

ان الله لا يغير ما بقوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم
« قرآن شريف »



بقلم



الطبعة الثانية

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
٦٠٠٠/٢٩/٥٥



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه والصلاة والسلام على رسله وانبيائه

وبعد فقد طلب منى بعض اخوانى أن أجمع رسائلى التى أرسلت بها من أوربا فى شهر أغسطس الماضى إلى جريدة « الاهرام » الغراء فنشرتها بعنوان « جولة فى اسبانيا » . فلبيت طلبهم شاكراً لهم هذه الرعاية وقد زدت على هذه الرسائل ما تكمل به فائدتها . وأضفت إلى كل رسالة كلمة تفسح فى تاريخها مع العظة التى تستخلص منها . مبتعداً عن كل ما يؤثر فى العاطفة الدينية أو القومية بالتطرف إلى حد المبالغة فى مدح أو نقد . ولزيادة الفائدة أضفت اليها رسوماً لبعض صور تلك الآثار الجميلة التى تركها العرب فى الأندلس . وكذلك مصور جغرافى لأسبانيا والبورتغال وفرنسا تتضمن مواقع البلاد التى وصل اليها الفتح العربى . ثم ذيلت رسائلى بقاموس موجز لما ورد بها من أسماء البلاد لعهد العرب وما يقابلها الآن من الأسماء الفرنسية . والله المسئول أن ينفع بها .

محمد لبيب البتنونى

تمهيد

كانت حالة اسبانيا قبل فتح العرب لها أشبه بالبداوة منها بالحضارة ولم يعلم التاريخ لأهلها مدنية قديمة يذكرون بها بل كانوا طوال عمرهم طعمة للفاتحين من فينيقيين ورومان ويونان وقرطاجيين وقوط . وما كانوا يعرفون شيئاً من أسباب الحياة الا ما كانوا يستخرجونه من معادن بلادهم فيستبدلون به مادة غذائهم وكسائهم من تجار الأمم المحتلة لبلادهم ، حتى دخل فيهم عنصر الدول المتغلبة فأخذوا يحملون سلاحهم ويدافعون عن حوزتهم وأصبحوا أمة اشتهرت بأنها حربية وهي وان كانت تعيش بين أركان القرى كان أهلها غارقين فى خشونة الهمجية الى أواخر القرن الرابع للميلاد . ولم تقم لاسبانيا قائمة الا فى المدة التى حكمها القوط فى أوائل القرن الخامس للمسيح . ولما دخلتها النصرانية وكثر ورود القسس اليها دعا الملك ريكارد فى أواخر القرن الخامس بطارقة النصرانية الى مؤتمر فى طليطلة وعلى أثره اعتنق المذهب الكاثوليكى . ومن ثم احتفل بكنيسة طليطلة هو وقومه حتى أصبحت غنية زاهية بكثير من الأوانى الذهبية التى كانت منها تلك المائدة الثمينة البديعة التى أخذها العرب بعد استيلائهم على هذه المدينة وقدمها موسى بن نصير إلى الوليد الأموى مع الغنائم التى وفد بها على دمشق بعد الفتح .

وهنا يقف القلم مبهوتاً حائراً خجلا من أن يرى لبعض مؤرخى العرب فى بعض الآثار التى تتصل بالتاريخ القديم لاسبانيا أقوالا لا تنطبق على عقل ولا فكر بل هى أساطير [1] اعتادها بعضهم عند مايريد أن

(١) نذكر لك باختصار شيئا مما جاء فى نفح الطيب من غير تعليق عليه :

يتكلم على شيء تغلغل تاريخه في بطن الماضي البعيد . ولا بد أن يكونوا قد أخذوا هذه الأساطير عن سكان البلاد بعد فتحهم لها . وتاريخ الاسبان أنفسهم مشحون بكثير من أمثال هذه الخرافات . ولكون العرب أمناء على النقل لم يشاءوا أن يحكموا عقولهم فيها ولا في غيرها

أولا — ذكر أن المائدة التي وجدها طارق في طليطلة وقدمها ابن نصير الى الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي كانت لسيدنا سليمان عليه السلام . وانها وصلت الى طليطلة مع الملك ريان وكان قد اشترك مع بختنصر في حربه لبيت المقدس . ووقعت هذه المائدة في نصيبه من الغنائم بعد أخذهما مدينة القدس ؟

ثانيا — ما ذكره من أن سيدنا سليمان وسيدنا عيسى صلوات الله عليهما أتيا الى طليطلة في حياتهما ؟

ثالثاً — ما ذكره سامحه الله من « أن مضيق الزقاق » كان موضعه برزخا يصل ما بين أسبانيا وبلاد المغرب . فلما حضر الاسكندر ذو القرنين الى هذه الجهة ؟ اشتكى له أهل أسبانيا من تعدى أهل المغرب عليهم فأمر فأزيل هذا اللسان وبذلك اتصلت مياه المحيط بمياه البحر الأبيض ففصلت ما بين البلدين » . وهذا القول صحيح من جهة وجود اللسان وزواله . ولكن الذي أزاله هو يد الطبيعة عقب اضطراب بركاني عظيم اندكت له أرضه كما اندكت له الأرض التي بين الا ناضول والأستانة . ومكانها الآن مضيق البوسفور الذي وصل البحر الاسود بالدرنيل . وكذلك الحال في بوغاز باب المندب الذي فصل بين آسيا وأفريقيا . ومضيق بهرنج الذي فصل بين شمالي آسيا وأمريكا . وذلك كله قبل وجود التاريخ وقد يكون قبل وجود الانسان . وبهذه المناسبة نقول أن الطيار السويسري هوتنثر الذي وصل على طيارته الى القاهرة يوم الجمعة ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٦ قال في حديثه لمكاتب الأهرام الغراء أنه يريد السفر الى أواسط أفريقية للتحقق من نظرية وجيز الذي يقول بأن القارات كلها كانت متصلا بعضها ببعض وأنه سيأتي زمن ينفصل فيه جنوب أفريقية الى نصفين في المنطقة التي تبتديء من جبل كينيا الذي يبلغ ارتفاعه ٥٨٠٠ متر

رابعاً — ما ذكره من أن الصنم الذي كان بقادس كانت له خاصية عجيبة لما كان يحيط به من الطلسمات التي بني عليها وانه كان يمنع مرور الرياح من البحر المحيط الى البحر الأبيض وان مفتاح هذه الطلسمات كان موضوعا في صندوق من الفضة في بيت خاص به في طليطلة لا يفتحه أحد . فلما كان زمن لذريق ساقه حب الاطلاع على ما في هذا البيت ففتحه . وفتح الصندوق الذي به فوجد فيه تماثيل على صورة العرب مكتوبا عليها « سيملك هذه البلاد قوم على هذه الصورة » — ثم قال — وبفتح الصندوق بطل عمل الطلسمات ودخل العرب اسبانيا !!!

والقول بالسحر والطلسمات قديم في الأمم . وقد عقد ابن خلدون في مقدمته بابا خاصا به قال فيه « وكان السحر في بابل ومصر زمان بعثة موسى عليه السلام أسواق نافقة . ولهذا كانت معجزة موسى من جنس مايدعون ويتناغون فيه وبقي من آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة

من هذا القبيل . لذلك ترى تاريخهم أنفسهم قبل الاسلام سقيما عليلا فيه كثير من الأساطير التى تضلّ حقيقة التاريخ بين سطورها . وربما ترى هذه الأمانة نفسها فى أيامنا هــذه حتى فى الأزهر الشريف فانك ترى أهله قد يحترمون غلطات المؤلفين وعلى اعتقادهم أنهــا أغلاط لا يزالون يتركونها لهم فى كتبهم ولا يريدون أن يصلحوها احتفاظا بأمانتهم فى النقل .

وعلى كل حال إنى لم أطلع للعرب على تاريخ للأندلس بحيث يقوم بحاجة من يريد الاطلاع على تاريخها فحسب ، ذلك لأن مؤرخيهم ينتقلون من رواية الى أخرى ومن شيء من التاريخ الى شيء من الأدب ومن شعر لناظم الى نثر لكاتب ومن شيء فى الاندلس الى شيء فى العراق أو فى مصر يجر اليه سياق الحديث مما يتعب له الذى يريد أن يطلع منه على شيء فى خصوصه . وحسبك أن تلقى نظرة على كتاب نفح الطيب وهو أكبر كتاب فى تاريخ الأندلس لتعلم حقيقة ذلك ، وخير ما رأيته من روايات التواريخ العامة خاصة بالأندلس هو ما كان لابن خلدون . وفى

على ذلك ؟ الى أن قال ــ وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو ان السحر لا يحتاج الساحر فيه الى معين . وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب ؟ وأسرار الأعداد وخواص الموجودات ؟ وأوضاع الفلك المؤثرة فى عالم العناصر كما يقول المنجمون . ويقولون : السحر اتحاد روح بروح . والطلسم اتحــاد روح بجسم ؟ الى أن قال ــ وأما الشريعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات وجعلته كله بابا واحداً محظورا » وذكر ابن خــلدون فى هذا الباب ان مسلمة بن أحمد المجريطى أمام أهل الاندلس فى التعاليم والسحريات لخص كتبها وهذبها فى كتابه الذى سماه (غاية الحكيم) . ولم يكتب أحد فى هذا العلم بعده » .

ومن هذا ترى أن السحر والطلسمات كان لها مجال كبير فى الأندلس ولا بد انها انتقلت منها الى بلاد المغرب ولا يزال من أهلها من يشتغل بها الى الآن . وشهرتهم بذلك فى مصر شائعة ذائعة . وبمناسبة استشهاد ابن خلدون ببرابى مصر فى أمر الطلسمات يذكر القراء ما كتبته جرائد أوربا وخصوصا الانكليزية منها منذ سنتين حين وفاة اللورد كارنارفون بعد كشف قبر توت عنخ آمون على أثر قرصة بعوضة أو ذبابة فى المقبرة نفسها وكانوا يتساءلون هل كان موته انتقاما منه لفتحه تلك المقبرة التى باركها الــكهنة أثناء دفن هذا الملك برقاهم وتعاويذهم التى كانت

كتاب « الاستقصا ، فى تاريخ المغرب الأقصى » شذرات مختصرة قيمة ذكرت فيه هنا وهناك على حسب علاقتها بتاريخ المغرب. ومن المطبوعات الجديدة مختصران قيمان الأول عن رحلة بالأندلس للاستاذ محمد كرد على. والثانى تاريخ للأمويين بالأندلس للأستاذ محمد عبد الله عنان.

وفى الجملة قد كان للاسبان قبل دخول العرب اليها شىء من المدنية القوطية وكانت هذه المدنية شائعة فى اوربة الوسطى على أثر اكتساح القوط للدولة الرومانية فى أوائل القرن الخامس للميلاد . وقد اندمج القوط فى البلاد التى فتحوها وفنيت لغتهم فى لغتها واتصلت مدنيتهم بمدنيتها ولم يضع الافرنج لهافنا خاصاً بها الا فى القرن الثالث عشر للميلاد . وأقدم أثر لهذا الفن باوربا هو كنيسة كولونيا بالمانيا . أما اسبانيا فأضخم وأعظم أثر فيها هو دير الاسكوريال الذى بناه فليب الثانى فى النصف الثانى للقرن السادس عشر . ووضع الأوربيون بعد ذلك للبناء العربىّ الأندلسىّ الجميل فناً خاصاً به سموه استيل مورسك (STYLE MAURESQUE) أخذوه على الخصوص من قصور الحمراء . وترى شيئاً منه فى بعض وجهات أبنية مصر الجديدة (هليو بوليس) ولا سيما فى فندقها الأكبر .

تدور حول لعنة من يجرؤ على فتحها . وقد فوجئ عندهم هذه الفكرة بعد موت ذلك العالم الأثرى الفرنسى عقب زيارته لهذه المقبرة فى السنة التالية .

أما التمثال الذى كان بقادس فقد أقامه فيها الرومان عند استيلائهم على أسبانيا لهرقل أو هرقيل وهو أحد آلهتهم وهو عندهم آله الزرع وحامى البلاد من عدوها. وحامى المسافرين فى البر والبحر. وقد أقاموه فى هذه المدينة ليحميها من أعدائها القريبين منها فى بلاد المغرب ومن هذا تجسمت تلك الخرافة فى أذهان الاسبان وانتقلت منهم الى العرب فذكروها بغير تعليق عليها . وربما توسع بعضهم فيها فزاد عليها وجعلها من عند نفسه وما زال هذا التمثال بقادس حتى ثار على بن عيسى قائد البحر فظن أن تحته مالا وهدمه فلم يجد شيئاً :

وقد دخل أصل هذا الفن مع العرب الى اسبانيا فانهم لما جازوا اليها نقلوا معهم بعض مدنية الشرق . ولما فرغوا من حركة الفتح فى السنين الأولى من جوازهم الى الأندلس أخذوا فى تخطيط الدور ، وتشييد القصور ، وحفر الترع ، واقامة الجسور ، وبناء القناطر ، وشق الخلجان ، وتهيئة الأراضى للزرع والعناية بتربية ذوات الضرع . واستوردوا من مصر والشام كثيراً من الأشجار والنباتات مما لم يكن له وجود فى قارة أوربا . حتى اذا ضربوا بجرانهم ، وأناخوا بكلكل سلطانهم ، وأخذت ينابيع الثروة تتفجر فى كل ناحية من نواحى البلاد وظهرت معالمها فى جميع شؤونهم اهتموا بنشر العلوم وتشييد هيا كل الفنون ، وكانوا يكافئون كل من برز فيها ويجيزون كل من ظهر فى آفاقها ويبالغون فى مكافأة المؤلفين ، فتغير حال البلاد من بداوة مطلقة الى حضارة متألقة ، وتكشفت سماؤها مما كان يتكاثف فيها من سحب الجهالة عن شموس من العرفان تنير أفلاكها ، وتملأ أجواءها بمادة العلوم المختلفة من دينية وطبية وزراعية وفلسفية وطبيعية وكيمياوية ، وغير ذلك من أدب جامع ، ونظم رائع ، مما كان مادة للافرنج بنوا عليه شيئاً كثيراً من مدنيتهم الحالية . وكان ملوك العرب وأمراؤهم فى مقدمة الناس اهتماماً بهذه العلوم وتحصيلا لها ، حتى لقد كانوا مع شغلهم بأعباء ملكهم لا يريدون أن يروا أنفسهم أو يراهم الناس أقل ممن اشتغل بتلك العلوم مهنة وصناعة . وكانت مجالسهم أشبه شىء بأندية علمية يشاطرون فيها العلماء علمهم فى وقت فراغهم من أعمال الدولة ، بل كانوا فى مجالس أنسهم ولهوهم يتنقلون فى كثير من الشؤون : فمن هزل الى جد ، ومن مجون الى فنون ، ومن صحفة شراب ،

الى صفحة كتاب . وهـذا لعمرى كان سبباً فى شحذ قرائحهم وارهاف بديهتهم ، وتهذيب طبيعتهم ، حتى أصبحت لا يصدر عنها الا كل مارق وراق ، و بدع وشاق . وكانت قصور قرطبة وسرقسطة وطليطلة واشبيلية وجيان والمرية و بلنسية وغرناطة مطالع سعود ، وموارد وفود ، ومرابض أسود ، ومساكن جنود ، ومراكز بنود . ومجامع عظماء ، ومنتديات علماء ، كما كانت مجالى سرور ، ومراتع حبور ، وكُنُس غزلان ، وملتقى أخدان ، ومزار ندمان . وبالجملة قد جمع أمراء الاندلس فى شباب دولتهم من الملك بين جلاله و جماله ، ومن الوجود بين نسيمه ونعيمه : فأخذوا من حياتهم بالحسنيين لدينهم ودنياهم ، مع أخلاق فاضلة ، وحكومة عادلة ، ونفوس ماثلة ، للعاجلة والآجلة . فشادوا للملك قراره ، وللعلم مناره ، وللفن داره ، وللأنس مزاره . وسار الناس على سننهم ، والناس على دين ملوكهم .

ومن يطلع على أقوالهم فى نثرهم وشعرهم ير أن مجـالس القوم بعد فراغهم من أعمالهم كانت مجتمع أحباب ، لكل ما لذ وطاب ، من أكل وشراب ، وسماع الأغانى . بين المثالث والمثانى ، من ذى عذار ، أو ذات سوار ، ولـكن فى حشمة ووقار . حتى اذا ولى شباب نهضتهم ، وأسلم الملوك قيادهم لشهواتهم . وتركوا حبل البلاد على غاربها لم يلبثوا ان ظهرت فيهم معالم الخمول ، وأخذت زهرتهم فى الذبول ، ونجم سعودهم فى الأفول ، فنضب معين ثقافتهم ، وانحلت عروة وحدتهم ، وتفككت رابطة جماعتهم ، وجفت دماء همتهم ، وخبت ريح نعمتهم ، وماتت قلوبهم والقـلوب لا تموت الا اذا غفل الداعى ، وهجمت عليهم الذئاب من كل ناحية والذئاب لا تهجم الا اذا نام الراعى . إن الله لا يغيّر مابقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم .

الرسالة الأولى

كدت أترك مصر وأنا معتزم أن أمضى برهة من الزمن فى جبال البرينيات أو الثنايا (كما كان يعرفها العرب) ترويحاً للنفس وارتياداً للصحة . فلفت نظرى أحد إخوانى الى زيارة اسبانيا التى لم أكن أعرفها مع أنى جبت تقريباً أكثر أقطار أوربا شرقا وغربا وشمالا . وكان عدم معرفتى باللغة الاسبانية يمنعنى من هذه الزيارة ولا سيما أن فى هذه البلاد البقية الصالحة من آثار ذلك الملك العربى الفخم . ولهذا يقصدها كل سنة عشرات الآلاف من السياحين من أوربا وأمريكا وألمانيا على الخصوص. وكان أحد إخوانى قد سهل علىّ عدم معرفتى لغة القوم بما أخبرنى من شيوع اللغة الفرنسية فيهم . وحينئذ قويت عزيمتى وأخذت جواز سفر فى أول أغسطس (سنة ١٩٢٦) أقطع به السكة الحديدية الاسبانية من شمالها الى جنوبها ومن غربها الى شرقيها ماراً بأهم البلاد التى كان للعرب أثر فيها ..

وأول ما مررنا بعد أن تركنا الحدود الفرنسية بمدينة (ايرن) وهى أول حدود اسبانيا الشمالية الغربية . وبعد التفتيش العسكرى على أجوزة المرور (لأن البلاد تحت الأحكام العرفية) ثم التفتيش (الجمركى) على أمتعتنا . سار القطار الى سان سباستيان . وهنا تجلت لى حيرتى بعدم معرفة لغة البلاد . لأنه على الرغم من أن هذه المدينة متصلة بالحدود الفرنسية وعلى الرغم من أنها مدينة من أشهر حمامات البحر فى أوربا — وجدتنى غريباً فيها لعدم معرفتى باللغة الاسبانية . ولما لم أجد لى مخلصاً

من هذا المأزق الا التشبه بالانكليز فى جودهم نذرت لله صوماً فلن أكلم اليوم اسبانيا ، ويومى هذا على النصف من يوم مريم : لأن يومها كان شهرا على مايقولون ولأنى كنت قدرت لسياحتى فى هذه البلاد نصف شهر . هنالك أصبحت عزلتى ضرورية لأنى لا أفهم الناس والناس لايفهموننى حتى أحتفظ بكرامتى بعدم ظهورى بينهم بمظهر الجاهل . وهم لو أنصفوا لوجدونا كلينا هذا الرجل .

اذا ما التقى ذو شملة عربيــة بذى عجمة فالكل فى النطق أعجم

وهنا أقول انه من الضرورى للعالم وجود لغة أخرى تكون الثانية لكل إنسان حتى تكون بها الحلقة التى تربط جميع أفراد العالم بعضهم ببعض ، فتسهل عليهم أمورهم وتقوى رابطتهم العلمية والمالية والتجارية والصناعية . ولقد فكر فى ذلك القومُ باوربا واشتغلوا بوضع أصول لغة جديدة سموها (الاسبيرانتو) . ولكنهم لم ينضجوها بعد أو أنهم لم ينجحوا فى وضعها أو فى تعميمها بين الناس . وهم لو نجحوا لأحدثوا بها تقدماً كبيراً وسريعاً فى كل مرافق الحياة وفى كل طرف من أطراف العالم ، ولاستغنى الناس بها عامة عن تعلم عدة لغات ربما لاتصلح لشىء اذا هى انتقلت من بيئتها التى تعيش فيها . على انه لاحاجة لكل هذه المتاعب فى خلق لغة جديدة ، وحسب الناس الاتفاق على لغة من اللغات الكثيرة الانتشار فى العالم لتكون هى اللغة الثانية لكل أمة .

سان سباستيان

هى أعظم مدن اسبانيا البحرية على الاقيانوس الاطلانطى وعلى

خليج (غسقونية) وعدد أهلها خمسون ألف نفس ، وهى مصيف ملوك اسبانيا . وترى قصر الملك فى قمة جزيرة صغيرة جميلة فى مدخل المرفأ تسمى جزيرة كلارا . وهذه الجزيرة بوضعها الطبيعى تخفف عن المرفأ هجمات أمواج الاقيانوس . ولهـذا يكون الاستحمام فى مياهها مأمونا وليس فيه شىء من الخطر . وفى هذا المرفأ حمامات عامة فخمة وخاصة جهة الجنوب .

ومن الناس من ينصبون لهم على الشاطىء خيمات صغيرة يقضون فيها يومهم بملابسهم البحرية طول نهارهم .

وهذا المرفأ على شكل هلال يقوم على طرفه الشمالى جبل (ارجيله) وعلى الطرف الجنوبى جبل (ايجالدو) . وهما أشبه شىء بحارسين يمنعان نفوذ العواصف الى داخل المرفأ . فالمدينة فى حرز حريز بهما من عواصف الشتاء ، ولهذا كانت مدينة شتوية أكثر منها صيفية .

ويحيط بالمرفأ رصيف جميـل جداً ، وهو وان كان ضيقا بعض الضيق قد بلغ الغاية من النظافة واللطافة وقامت عليه الأبنية الجميلة من فنادق وغيرها من مساكن الخاصة . وكنت أرى فى طريق (الـكورنيش) بمرسيليا شيئا من الجمال ولـكن هذا الرصيف وكذلك الرصيف الذى يحيط بجبل أرجيله أنسيانيه بل أنسيانى رصيف الاسكندرية الذى على الميناء الشرقية والذى كلف المدينة أكثر من نصف مليون من الجنيهات : لأنه ينقصه تمام العناية به لتنظيفه على الخصوص مما فيه من الحشرات الانسانية حتى يصبح للخاصة نصيب من التنزه عليه .

وتكثر فى المدينة الميادين اللطيفة قامت عليها أشجار جميلة تتخللها

رياض الورود والرياحين والأزهار المختلفة مما يجعل كل ميدان جنة زاهرة وروضة باهرة . ويفصل مبانى المدينة نهر (أيروما) وترى لمياهه عند اتصالها بمياه الاقيانوس شكلا بديعا يكسو صفحة الماء زبداً فضيا دائما ، وتسمع للأمواج فى هدوئها أصواتا كأصوات القبل تهيج الأشجان بهذه الموسيقى الطبيعية . ولعل لهذا الزبد الأبيض الذى تراه هنا على طول الشاطىء الاطلنطى معنى فى تسميته بالشاطىء الفضىّ . وعلى حافتى النهر من جهة الجنوب مسرح (تياترو) فيكتوريا ومن جهة الشمال ملعب السكورسال . وقد دخلت هذا الأخير فوجدته أفخم شىء فى بابه . والمدينة القديمة تقع على يمين المرفأ فى سفح جبل (أرجوله) . ومما يؤسف له أن هذه المدينة قذرة وعامة أهلها من الصيادين : فترى نساءهم ينسجن شباك الصيد منشورات على الأرض وبعضهن يعملن فى تمليح السردين[1] على رصيف المرفأ الشمالى . وهذا القسم كقسم الانفوشى بالاسكندرية قبل انشاء الرصيف ، وهو الوصمة الوحيدة فى جبين هذا المرفأ الجميل . وفوق هذا الجبل قلعة قديمة لا يسمح بالصعود اليها وبجوارها مقبرة لبعض الضباط الانكليز الذين ماتوا فى احتلالهم لهذه المدينة بين سنتى ١٨٣٦ و ١٨٣٧ فى أثناء ثورة الدوق كارلوس .

أما طرف المرفأ الجنوبى فهو غاية فى النظافة وحسن النظام وأبنيته جميلة . ويصعد الى جبل ايجالدو بواسطة الفنوكيلير[2] funiculaire . ويحيط به فى أعلاه بهو كبير واسع له كنّات أو أطناف (بلكونات) تشرف على المدينة كأنها صفحة جغرافية ، وتشرف من جهة أخرى على الاقيانوس فتراه

---

(١) الصير ، أو العرم (٢) سكة حديدية مسننة تتسلق الجبال وتشد عرباتها بواسطة حبل مكون من أسلاك حديدية مرنه وذلك امابضغط الماء أو بآلة رافعة فى محطتها العليا.

فى عظمته لايحده غير اتصال الماء بالسماء فى أفق يتخلله شىء من القتام على الدوام حتى فى أيام الصفاء . وفى أعلى الجبل فندق فيه مالذ وطاب من أكل وشراب، ومحاضرة على نغمات الموسيقى خصوصا (بعد العصر) . ودون الفندق على الجبل مكان فيه طائفة من الزنوج يضربون على الطنبور ويرقصون ويشربون نوعا من المريسة . وهم انما يمثلون افريقية للناس بهؤلاء المتوحشين الذين لايزالون فى الحلقة الأولى من الانسانية !! وكان أولى بهم أن يعرضوا فى مكانهم بعض أسرى الريف الذين ظهروا للعالم وللتاريخ بكبير شهامتهم . وهم لايزالون يدافعون عن كرامتهم وحوزتهم تلقاء هاتين الدولتين الضخمتين مع قلة عددهم وعددهم .

ولقد صادف اليوم الذى أزمعت فيه سفرى من هذه المدينة الاعلان عن[١] مصارعة الثيران ، وذكروا اسم من يتولى الصراع فى هذه

---

(١) هذا النوع من الصراع قديم فى بلاد اسبانيا . ولا يدرون أمن طريق الرومان دخل اليها أم من طريق القرطاجيين . ويقول بعضهم انه ظهر فى اسبانيا بعد دخول العرب — فان كان هـذا صحيحا فأنه يكون من طريق البربر الذين اخذوه عن القرطاجيين لما بينهما من التبعية أو الجوار . أما العرب فلا نعلم عنهم فى تاريخهم انهم اشتغلوا بمثل هذا الصراع . وعلى كل حال كان صراع الثيران الى القرن التـاسع من الميلاد يدخل فى انواع الفروسية التى كانت تظهر فيها بطولة المصارع باسبانيا . فقد كان ينزل الى الميدان الذى به الثور المتوحش ويهجم عليه ويأخـذ بقرنيه ولا يزال به حتى اذا غلبه على أمره وألقاه الى الأرض كان له شرف الانتصار على خصمه. فاذا كانت الغلبة للثور هجم عليه بعض المتفرجين بخناجرهم وأثخنوه جراحا يقع منها صريعا . وربما أنقذوا الرجل من تحت قرنيه وفيه رمق من الحياة فيقوم وهو يتعثر فى خجله . وكثيرا ما كان ينزل المصارع الى هذا الميدان فارسا فيقتتل مع الثور وتكون النتيجة القضاء على أحدهما .

ولم يتغير شكل هذا الصراع الى صراع فنى مداره على خفة المصارع ومرونته فى حركاته الا فى القرن الثانى عشر الميلادى . وبالجملة أن صراع الانسـان مع الحيوانات المفترسة كان منتشراً فى الدولة الرومانية .

وملعب (الكوليزيوم) لايزال أثره موجوداً فى روما . وكان يسع ثمانية آلاف نفس وقد كان افتتاحه سنة ٨٠ ميلادية مدة الامبراطور تيوليس الذى أمر فادخل فى ساحة هـذا الملعب خمسة آلاف من الحيوانات المفترسة وأرغم المسيحيين المساكين الذين منوا باضطهاده على قتالها .

الحفلة وهو الدون (انتونيو كثيرو) أعظم فرسان هذه الحلبة عندهم ، كما ذكروا أن الملك سيحضرها مع الأسرة المالكة . ولما لم يكن قد سبق لى رؤية هذا الصراع إلا فى صور الخيالة (الصور المتحركة) أخرت سفرى لمشاهدته فى أكبر ميادينه وأعظم مظاهره . وهذا الصراع قديم فى هذه البلاد : يتدرب منهم قوم على مصارعة الثيران التى تربى لهذه الغاية فتجد الثور على منتهى ما يكون من الوحشية ، عظيم الهامة قوى العضل ، ويبلغ ثمنه عندهم أضعاف ثمن مكافئه من غير ذات الصراع .

وكان أهل روما يجتمعون فى أعيادهم فى هذا المكان لمشاهدة الالعاب المختلفة التى كانت تقام فيه ، ومنها مصارعة بعض الرجال للوحوش . ولقد كانوا يلقون ببعض العبيد الى ميدان هـذا الملعب وهم عزل من كل شىء ، ثم يرسلون عليهم بعض الأسود من خيسها من باب له على هذا الميدان . فيأخذ المساكين فى دفعها عن أنفسهم بحكم طبيعة النضال الحيوى ، ولكنهم لا يلبثون أن يصرعوا وتأخذ السباع فى نهش أجسادهم ، وهنالك كنت تسمع رنات السرور والاعجاب من النظارة .

وكثيراً ما كان الملك يأمر فيلق ببعض من يغضب عليه من القواد الى هـذا الميدان ومعه آلة كفاحه ويرسلون عليه بعض الآساد فيدفع القائد خصمه بشدة .

وقد يتغلب عليه ويصرعه وهنالك يمحو دم الأسد ما كان له من جريرة فيصفق له الناس من كل جهة هاتفين له بكلمات الاستحسان وعند ذلك يضطر الملك الى العفو عنه ويرجعه الى قيـادة جيوشه بعد تهنئته بهذا الظفر العظيم .

ومن هذا وذاك ترى أن شدة فرح الناس بالظفر فى هذه الميادين كانت تنسيهم فظاعة تلك الدماء التى تسيل على أرضها من أحد المتصمين مما أذا رأوها فى غير هذا المـكان أخذتهم الشفقة والرحمة واستدعوا جمعية الرفق لاسعاف صاحبها .

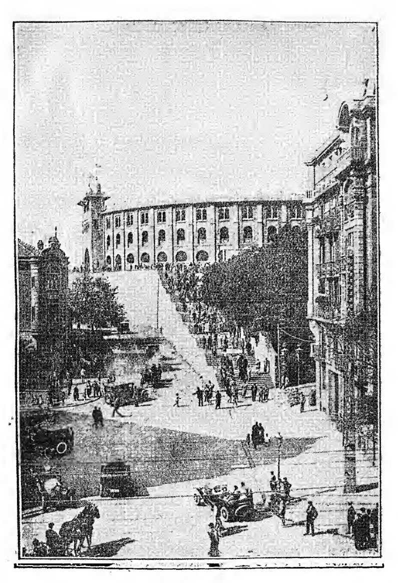
وقد كان يكثر الصراع فى الأزمنة الغابرة بين حيوان وآخر من نوعه فقد كان بين الثيران كما كان بين الـكباش والديكة . وكان الصراع فى هذين النوعين الى زمن قريب بمصر .

اما الصراع بين انسان وآخر فقد كان من الالعاب الرياضية التى كانت تستعملها اليونان والرومان وبها كانت تظهر قوة الشخص المادية وهى كل شىء فى تلك الأزمان ، فيكون له بها شرف البطولة التى يحرز بها فى قومه المجد الأعلى والشرف الاسمى ، وقد يصل بهـا الى عرش الملك بل الى عرش الالوهية فى نظرهم .

أما الآن فاشتغال الناس بهذه الالعاب الرياضية قد أصبح عاما فى البلاد المتمدينة ولـكن على قاعدة « العقل السليم فى الجسم السليم » وقد أصبح لأبطالها المحترفين لالعابها شىء من هذا الشرف يتردد صداه فى أنحاء المسكونة ، وهذا غير ما يكسبونه من مادة الرهان على انتصاراتهم مما تكون لهم به ثروة قد تقدر بالملايين .

وللمصارع شهرة كبيرة فى قومه تتناسب مع قوة صراعه وله فيهم احترام كاحترام كبار الرجال وعظمائهم . وكثيراً ماتراه محمولا على الأعناق من الشعب بعد انتصاره على خصومه من هذه الحيوانات الفظيعة . أما اذا صرع الثور خصمه فتلك الطامة الكبرى والحزن العام والكآبة الشاملة ، غير مايحدثه ذلك من الذعر فى نفوس القوم وعلى الخصوص القريبين منه فى جلوسهم. وقد يعترى الثور فى هذه الحالة شبه جنون فيهجم على الحاجز الخشبي الذى يفصل بين المصارعين والنظارة فينشأ عن ذلك خلل واضطراب فى بعض صفوفهم فيسقط بعض الناس على بعض وينشأ عنه ضرر كبير يصحبه موت الكثيرين تحت أقدام الفارين من الهلع والخوف . وهنا أرجو أن تسمح لى بان أقص عليك مارأيت .

وصلنا الى هذا المكان فوجدته دائرة أرضية يبلغ قطرها ثلاثين متراً على أقل تقدير وهى مكان الصراع . ويحيط بها سياج خشبي متين على ارتفاع نحو مترين ، وفيه باب يدخل منه المصارعون من إنسان وحيوان ، ومن دونه أبواب غرف الثيران لكل واحد غرفة ، ومن وراء هذا السياج قامت أمكنة المتفرجين ، وهى تتدرج الى ثلاث درجات بعضها فوق بعض بميل الى الوراء ، وفى القسم العالى من جهة الغرب مقاصير جلالة الملك والأسرة المالكة وكبار رجال دولته ، وهذا غير أعلى المسرح الذى لامجالس فيه للنظارة بل يبقون فيه وقوفا على أقدامهم ، ويسع هذا المكان عشرين ألف نفس على أقل تقدير ، ولقد كانت جميع مجالسه مكتظة بالناس من نساء ورجال فلما جاءت الساعة المضروبة ،دخل المصارعون راجلهم وفارسهم وعليهم الحلل المقصبة البراقة ولما وصلوا قبالة



بناء لمصارعة الثيران فى سان سباستيان



مقصورة الملك سلموا السلام اللائق ثم وقفوا فى أماكنهم مستقبلين الجهة التى يدخل منها الثور ، وهنالك فتح باب غرفة على المسرح فاندفع منها ثور هائل بحالة توقع الرعب فى قلب من لم يتعود مثل هذا المنظر، وكأنى به وقد وقف برهة والشرر يطير من عينيه وهو يجيل نظره فى خصومه يتخير الجهة التى يهجم منها ، ثم لا يلبث أن يهجم على أحد المصارعين ، فان كان من المترجلين قابله بملاءته الحمراء التى لايكون فى يده غيرها ، وفى هذا الوقت تدهش من خفة هذا الرجل فى زوغانه عن مسقط قرنى الثور بحركة خفيفة جدا ينتقل بها من يمين رأس الثور الى يساره وهو من قرنيه الثائرين قاب قوسين أو أدنى . ولا يزال يطمعه بهذه الحركات المدهشة الدقيقة حتى يعجزه فيتركه الثور الى غيره ، فيقابله هذا بمثل حركات الأول محرضاً له على الهجوم على الفارس الذى ترى فى يده رمحاً طويلا ، فاذا هجم عليه قابله الفارس بالرمح فى قفاه بقوة قد تدفع الثور الى الوراء فتقفه عن الهجوم ، وهنا تظهر كفاية الفارس، ومقدرته ، وقد تصدق هجمة الثور فيدخل رأسه تحت بطن الفرس ويرفعه على قرنيه فيخر الفارس وفرسه جميعاً على الأرض . وعندها تظهر أحشاء الفرس الذى يفارق الحياة لوقته . هنالك يشغل أحد المصارعين الثور بملاءته عن الفارس الذى يقصده طائفة من الخدم لاقامته من تحت حصانه . وقد يؤتى اليه بحصان آخر فيكون نصيبه نصيب الأول : وقد رأيت فى هذا اليوم ثوراً بقر بطن خمسة من الخيل فى نحو ٢٠ دقيقة. وفى هذه الحالة قد يكون الثور فى أشد هيجانه فيقصده فارس الحلبة راجلا

وفى يده سهمان ، فاذا رآه الثور هجم عليه بشدة فيزوغ الرجل منه واضعاً سهميه بين كتفيه ، وهكذا يكرر هذه الفعلة حتى اذا تعب الثور هجم عليه بملاءته الحمراء من تحتها سيفه ولا يزال يغرى الثور بنفسه بحركات مختلفة غاية فى الدقة والخفة ثم يهجم عليه ويدخل سيفه فى وريد العنق ، فان صدقت الضربة سقط الثور صريعاً يتضرج فى دمه وهنالك تنتهى الموقعة بين التصفيق الحاد من كل جهة مع عزف الموسيقى تحية للمنتصر .

وقد ترى القوم فى أثناء هذا الصراع متحمسين للمنتصر من الخصمين ناقمين على المنخذل ، فيصفقون للثور أحياناً ويصفرون لخصمه كلما جبن فى كراته أو أتى بحركة غير قانونية . وكثيراً ماتصدر منهم كلمات الازدراء أو عدم الاستحسان موجهة لأحد الخصمين .

والذى يدهشنى فى تلك الحفلة منظر السيدات وهن باشات مسرورات برؤية الحصان يمشى خطوات وهو يجر أحشاءه : هذا المنظر الذى قد ترتاع له نفس الرائى من غير الاسبانيين لأول وهلة . ولا شك أن هذه العادة قد ألفنها حتى أصبح منظرها لا يؤثر فيهن الا بحال متناقضة مع أثرها الطبيعى . ولهذا السبب يحظرون هذا الصراع فى فرنسا الا فى مدينتين اثنتين الأولى نيم لان أهلها ألفوه من زمن الرومان ومسرحه فيها من زمنهم . والثانية بوردو لمجاورتها لاسبانيا . وقد يقيمون صورة مصغرة منه فى بلاد أخرى مثل (فيشى) وغيرها . وقد كان الصراع فى هذه الحفلة مع ثمانية من الثيران قتلت جميعاً بعد أن قتلت أكثر من خمسة عشر حصاناً .

والذى لاحظته هنا أن الملك حضر من أول الصراع الى آخره من

الساعة الخامسة تماماً الى منتصف الساعة الثامنة بعد الظهر . ولا أدرى أ كان هذا ناشئاً عن شوقه لرؤية هذا النزال، أو أنه يحترم ميول شعبه فيظهر لهم أنه معهم فى عواطفهم وشعورهم من البداية الى النهاية . وهى سياسة رشيدة ربما كانت السبب فى حفظ عرشه فى الأزمات الحربية والسياسية التى مرت بالبلاد لعهده[١]. وعلى كل حال ترى الشعب الاسبانى يحب ملكه لانه كان يؤاسيه كثيراً مدة الحرب فيعود مرضاهم ويعطف على المنكوبين منهم . لذلك كثيراً ما كنت تراه يتنزه وحده على طوار[٢] هذا المرفأ عن غير ما حرس أو رقيب اللهم الا قلوب شعبه ومهجهم. وهل للملوك سعادة فى الأرض غير هذه العاطفة ؟

---

(١) كتبت هذه الرسالة قبل الحركة الثورية التى ظهرت فى البلاد ضد السلطات الحاكمة

(٢) رصيف

الرسالة الثانية

ركبت القطار السريع الى مجريط (مدريد) فى واد لا نبات فيه ولا زرع بين سلسلتى جبال (نوفا مورينا) فى واد جميع الأراضى عن يمينه وعن شماله قفر حتى كأننا كنا نسير فى تلك الصحراء التى وهبها أبو دلامة الشاعر للخليفة المنصور العباسى : (١)

ويتخلل هذه الصحراء بعض أراض كانت مزروعة قمحاً بعد المطر وقد حصدوه إذ ذاك وهم يشتغلون بدرسه كحاله عندنا : فترى النورج يدور على الكدْس (الرمية) الاأن حيلانه (فلكاته) أقل ارتفاعاً . وقد ترى بجوار هذا الجرن آخر قد تم درسه فيه المذرى بعذراق كحاله عندنا تماماً . وترى بجواره التبن وقد كدسوا بعضه على بعض مثل تكديسه فى الصعيد كأنه مقطوع من جهاته الأربع بمستوى أفقى .

ويتخلل هذا الوادى بعض أشجار من الجوز والبقس وبعض حقول من العنب والزيتون . وكلما اقتربنا من مدريد قلت فيه المزارع ووحش منظره . وفى هـذه الجهة ينزل الثلج مبكراً فيقصدها أهل مدريد للرياضة الشتوية والألعاب الثلجية (اسكيتنج) . ومتوسط سير القطار السريع فى هذا الوادى ٤٢ كيلو مترا لأن المسافة بين سان سباستيان ومدريد ٦٣٠ كيلو قطعها هذا القطار فى ١٥ ساعة

---

(١) ذلك انه دخل عليه يوما مع الشعراء فأعجبته قصيدته فأمر أن يعطى مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة ، فقال وما هى الغامرة يأمير المؤمنين ؟ قال هى التى لا نبات بها ولا زرع . قال اذا كان الأمر كذلك فأنى أعطيك يأمير المؤمنين مائة الف الف جريب غامرة من صحراء كذا وان شئت زدتك منها .

مدريد

مدريد (والعرب يسمونها مجريط وبعضهم يسميها مشريط) هى عاصمة اسبانيا الآن وعدد سكانها ٥٥٠ ألف نفس . ولقد كانت الى القرن العاشر بعد الميلاد قرية صغيرة غير مهمة ، وكانت حصناً يقع حيناً فى يد القشتاليين وآخر فى يد العرب . وأول شهرة هـذه المدينة التاريخية من سنة ١٣٩٤ م إذ توج فيها الملك هنرى الثالث ملك القوط . وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر جعلها فليب الثانى عاصمة ملكه ، ومن ثم أخذ عمرانها يتزايد وخاصة بعد أن هدم سورها القديم . وجو هـذه المدينة حار جداً فى الصيف بارد جداً فى الشتاء وخير الأوقات لزيارتها فصل الخريف . وكانت درجة حرارتها فى أواخر أغسطس ٤٥ سنتجراد وقد كنت أظن قبل زيارتى لها أنها مدينة غير عظيمة ليس فيها شىء من مظاهر المدنية الحديثة له قيمة ، ولكنى وجدت أحياءها الحديثة كأحسن مدائن أوربا فى مبانيها ومحالها التجارية وفنادقها الكبرى ومتنزهاتها وقهواتها البديعة ، وأفخم أبنيتها قصر الملك ويمكن السائح مشاهدته بتوصية من السفارة التى ينتسب إليها ولم أستطع زيارته كما حرمت مشاهدة كثير من آثار هـذه المدينـة ، وتكثر فى شوارعها المراكب الكهربائية والقطر السريعة (المترو) التى تسير تحت الأرض وهى أحسن منها شكلا فى ممالك أخرى ، وفى وسط المدينة ميدان يسمى ميدان الشمس تتفرع منه شوارعها الكبيرة ، وينتهى شارع القلعة (ALACALA) وهى تسمية عربية بشارع عظيم عمودى عليـه اسمه (البرادو) وهو على نظام شارع (شانزليزيه) بباريس إلا أنه أوسع ، ويسير من جانبيه شارعان،

أما أوسطه فكله رياض وأشجار صفت تحتها كراسى كثيرة لجلوس الناس وخاصة وقت المساء ، وهذا المكان هو محل رياضة القوم فى مدة الصيف فتجده غاصاً بالناس من جميع الطبقات إلى فترة من الليل وعلى حافتى هذا الشارع المبانى الفخمة .

وهذه المدينة مشهورة بصناعة الصينى والسجاد والدخان ، ولقد أعجبنى فيها منظر مساحى الأحذية لأنهم غاية فى النظافة وكل واحد منهم يحمل صندوقاً ومعه وسادة (مخدة) يجعلها تحت ركبتيه لمزاولة مهنته التى يؤديها بكل دقة . ولشدة حر مدريد لم أتمكن من زيارة شىء غير متحف الصور وهو آية فى بابه ومع صغره تراه من أحسن المتاحف التى من نوعه . والذى أعجبنى فيه سيدات ورجال وشبان وشابات منهمكون فى تصوير بعض الألواح المحفوظة بالمتحف . وكثير منهم يجيد صناعته ولا عجب فأوربا جميعها تعنى بالفنون الجميلة . وفى مدريد دار للكتب جميلة وفيها كثير من الكتب العربيــة القيمة وليس فيها شىء من آثار العرب إلا ما كان مجموعاً فى دور الآثار بها من التحف الثمينة التى هى من عملهم والنقود التى ضربوها سواء أكانت هذه المتاحف للحكومة أم كانت للأهالى ، وخير ما للخاصة من ذلك متحف السنيور[1] اوسما الذى أقام له داراً خاصة به ووقف عليها من ملكه ما تقوم غلته بنفقتها . وقد يلفت نظرك فى هذه المدينة استعمال القلل الفخار ويسمونها كرازا وهى كلمة عربية[2] . فاذا لاحت منك التفاتة إلى موائد قهوة من القهوات أو مطعم من المطاعم وجدت

(١) السيد (٢) جاء فى القاموس كراز كغراب ورمان القارورة أو كوز ضيق الرأس

على كل واحدة قلة . فاذا جلست أتاك الخادم بكوب وانتظر ما تأمر به من مشروب أو مأكول .

وعلى كل حال ان جو المدينة غير صحى فى الصيف لشدة حرارتها وكثرة ذبابها وأتربتها التى تؤثر فى الصدر ، ولشدة جفاف هوائها الذى يؤثر فى المزاج العصبى .

ويسير فى وسطها نهر (مانداناد) وكان أحد سفراء المانيا يصفه من باب الفكاهة بأنه أحسن أنهار الدنيا : لأن الانسان يقطعه ماشياً أو راكباً عربة أو دابة . وهو يشير بذلك الى أن هناك نهراً ولا ماء . ومن ألطف الاشارات التى من هذا القبيل أن مدريد أكثر عواصم أوربا ارتفاعا لأنها بنيت على جبل ، وقد خرّج القسوس من ذلك أن عرش ملوك أسبانيا بعد عرش الله (أعنى فى الارتفاع) . وبهذا أثروا فى عقيدة الشعب حتى أنه الى الآن يعتقد أن عرش أسبانيا هو خير العروش بعد عرش السماء . وتكثر فى هذه المدينة المراوح : فترى واجهات الدكاكين ممتلئة بها على أشكال مختلفة وقد تراها فى أيدى الناس عامة ويندر ألاّ ترى سيدة جالسة أو ماشية أو راكبة إلاوفى يدها مروحة تحركها بلطف أخف من النسيم الذى تنشده . وعلى ذكر هذا الجنس اللطيف أقول إنه فى هذه البلاد أكثر كالامنه فى غيرها من مدن أوروبا. فهن يتجملن غالباً بالحشمة ويدنين عليهن من جلابيبهن (فساتينهن) الى مادون نصف الساق وكثيراً مايضعن على رءوسهن وخاصة أهل الاندلس الشقة وهى أشبه شىء بما يسمونه عندنا (الطرحة) وهى إما أن تكون خفيفة من المخرم الأسود أو من نسيج من الشاش السميك . وبعضهن يشتملن

بعلاءة كبيرة قد تصل الى الركبة وهؤلاء فى الغالب من الراهبات .
ونساء أسبانيا أقل صلة بالرجال الغرباء ومع أنهن جميلات الوجه جداً قد تنقصهن رشاقة الجسم وخفة الحركة وذلك لكثرة ملازمتهن منازلهن .
وقد يكون ذلك لشدة حرارة الأقليم ، أو أن هذا النوع من الحجاب موروث عن العرب . ويقال إن أحسن الجمال الاسبانى فى جهة بلنسية ثم فى غرناطة ثم فى برشلونة ، ذلك لأن جمال طبيعة هـذه البلاد أثر فى أهلها فأكسبهم من محاسن الخلقة مالم يتيسر لغيرهم وهو تعليل معقول .

وبالجملة إن نساء الاسبان فى الغالب يكتفين بجمالهن الطبيعى الذى خص بهذه السمرة التى جملتها يد الطبيعة بما ترى أثره الصناعى فى وجوه الغانيات فى كل جهة من جهات العالم المتمدين . ولكن هل يبلغ الظالع شأو الضليع ؟؟ ومما يعجبنى أن نساء الاسبان فى الغالب لايستعملن الأدهنة البيضاء فى وجوههن ولا الحمراء فى شفاههن . ومن يستعملنها منهن فبخفة لاتظهر معها كلفة الصناعة . وبذلك أصبحن بعيدات عن التسمم الذى يحصل من كثرة استعمال هذه المحسنات الوقتية لأنها كلها مركبات زرنيخية تؤثر على مر الأيام فى بشرة الوجه بالذبول وعضلة الشفة بالتقلص. وعلى كل حال ان هذا الجمال الصناعى وإن أكسب المرأة رواء مزيفاً فى وقته يتقدم بهـا الى الشيخوخة قبل أوانها بما لاتنفع معه عناية الطبيب ولا استعمال العقاقير .

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

الاسكوريال

هو البناء الذى أقامه فليب الثانى ملك أسبانيا فى النصف الأخير

من القرن السادس عشر على قمة ترتفع عن البحر ألف متر وتبعد عن مدريد بواحد وخمسين كيلو مترا وهو يشمل الكنيسة والقصر والمقبرة الملكية والدير ومدرسته . واذا عرفت أنه يحتوى على ١٦ حوشا و ١٧١٠ نافذة . و ١٢٠٠ باب . و ٨٦ سلما توصل الى أمكنة مختلفة — عرفت مقدار أهمية هـذا البناء العظيم الذى بنى جميعه من الجرانيت الأزرق الذى أتوا به من جبال وادى رامه باسبانيا .

وبناء الكنيسة على النظام القوطىّ وهى على خلوها من التأنق تشعر فيها بعظمة فى النفس لا يصل اليها ذلك التأنق الذى تراه عادة فى الكنائس الكاثوليكية الكبرى . وشكلها من الداخل مربع طول كل ضلع منه خمسون متراً وفى وسطها أربعة أعمدة من البناء المربع عرض كل ضلع من أضلاعها ثمانية أمتار وعليها أقواس ترتفع عليها قبة الكنيسة التى قطرها ١٧ متراً وفى دائر الكنيسة ٤٢ مصلى . ويرتفع على سطحها منارتان ارتفاع كل واحدة نحو ثلاثة وسبعين متراً . ويعلو القبة صليب تبعد قمته عن أرض الكنيسة بخمسة وتسعين متراً — وبجوار الكنيسة حوش مربع يحيط به بهو عظيم رسمت على حوائطه بالزيت صور كثيرة كنسية مكبرة . وفى وسط هذا البهو من كل جهة أبواب إلى غرف فى بعضها ألواح ثمينة من رسم أشهر المصورين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . وبعضها يصعد منـه الى الدير وهو محل مسكن القسوس القائمين بحركة العبادة فى الكنيسة . وفيه مكتبة عظيمة فيها خمسة وأربعون ألف كتاب منها مجموعة من الكتب الدينية والأغانى الكنسية من القطع

الكبير جداً وقد وشيت كتاباتها وجلودها بالذهب ، وبعضها مكتوب على رق الغزال ومزين بالرسوم الجميلة والنقوش القيمة ومنها مجموعة ثمينة من المخطوطات العربية لا تقل عن ألفي مجلد .

وفي الدير تبقى جثة الملك خمس سنين قبل دفنها (بالبنتيون) وهو المقبرة الملكية المتصلة بالكنيسة . وينزل إليها بسلالم هي وحوائطها من المرمر الوردي الثمين تنتهي إلى غرفة مثمنة قطرها عشرة أمتار ، وحوائطها وأرضها من المرمر ، وفي كل ضلع منها ردهة وضع فيها ستة توابيت فيها جثث ملوك اسبانيا بعضها فوق بعض . وفي القاعة دهليز يوصل إلى عدة غرف فيها قبور بعض أعضاء الأسرة الملكية وبالجملة هذه المقبرة مع عدم أناقتها وخلوها من الزينة الكاثوليكية تتناسب عظمتها مع عظمة المدفونين فيها .

وهنا مر بخيالي مقبرة جنوه العامة وكنت زرتها منذ سنتين ، وكيف وصل بالقوم تأنقهم وتطاولهم في فخامة مقابرهم بها إلى درجة لايماثلها شيء آخر من نوعها ، فترى القبور بعضها بجوار بعض وكلها أو جلها من المرمر ، وقد رسمت أو نقشت أو مثل عليها صورة الميت ومن حوله الملائكة ترفرف بأجنحتها وتمد يدها إليه لتقوده إلى جنات النعيم أو بعبارة أصح إلى الجهة التي ينتظره عمله فيها ، وبعض القبور تجدها قد جمعت إلى هذا مختصر تاريخ الميت ، ومصابيحها مسرجة على الدوام ، وبالجملة قد وصل فيها الابداع وفخامة المنظر وجمال الصناعة إلى حد لم أره في غيرها ، ويحيط بهذه المقبرة رياض نضرة فيها كراسي خشبية ورخامية يجلس عليها زوار المقبرة ، وهنا ذكرت (قطع المره) وما إليه من جبانة

المجاورين والعفيفى وغيرهما مما أرجو أن يعيره أصحاب الشأن وأولو الأمر بعض عنايتهم حرمة للأموات ورحمة بالأحياء .

قصر الملك

وهنا أرجو القارىء عفوا اذا رجعت به معى بعد أن شط بى القلم الى قصر الملك ، وهو يتصل بالكنيسة اتصالا تاماً ، فماذا ترى ؟ ترى بهواً طويلا عريضا مرتفعاً ارتفاعا عظيما وفيه باب القصر ، ويدخل منه الى طابق أرضى فيه حجرة نوم الملك وحجرة نوم ابنته وليس بهما شىء من المبالغة فى التأنق . نترك هذا وما اليه الى الطابق الثانى وندخل الى قاعة المائدة ثم الى قاعة السفراء ثم الى المكتب الخصوصى فنجد بها من حسن الرونق وجمال الشكل وبديع الصور التى نسجت على قطع كبيرة من الحرير يتكون منها لوح على قدر كل حائط من حوائط هذه الغرف . فترى الحائط كله مشتملا على لوح واحد رسمت فيه بالنسيج صورة مكبرة من أصل معروف لأحد المشهورين فى فن التصوير . نرى هذه الصورة فى بروزها وظلالها وألوانها ودقة صنعها وكمال صوغها وتمام إبداعها تمثل لك واقعة حربيــة أو حادثة تاريخية ويكاد لسان حالها يقول (ليس فى الإمكان أبدع مما كان) ، ولقد أعجبنى من ذلك صورة محاصرة بنى مرين مع الدون جوبان لمدينة طريف ، وقائدها إذ ذاك غوزمان ، فأتى جوبان بأحد أبناء هذا القائد وهدده بقتله إن لم يفتح له أبواب هـذه المدينة ، فكان جوابه أن رمى له غوزمان بسيفه ليقتله به . وهذه شجاعة وأمانة يضرب بها المثل كما ضرب بشجاعة السموءل وأمانته من قبل .

وقد فرشت هذه القاعات كلها بالحصير المصنوع حديثا على مثال ما كان عليه فى وقته . وهو أشبه شىء بما يعمل الآن فى منوف والزقازيق من ذات الخطوط الضيقة المستقيمة . نترك هـذا أيضاً الى قاعة الصور الحربية ، وهى بهو كبير طوله نحو أربعين متراً ، وقد رسمت على حوائطه بالزيت واقعات حربية مختلفة لفتت نظرى واحدة منها بما اغرورقت له عيناى وجمد له قلبى . تلك هى الواقعة المشئومة التى حصلت بين القوط والعرب [1] فى سهول غرناطه ، نرى فيها الجيشين يسير كلاهما نحو الآخر بحال منتظمة ثم لا يلبث أن يلتحم أحدهما بالآخر ، ثم لا نعتم أن نرى هزيمة العرب تلك الهزيمة التى كانت نتيجتها أن قذف بهم إلى ماوراء البحر الأبيض المتوسط تاركين قصورهم وديارهم فى الأندلس تنعى من بناها !! تاركين وراءهم ملـكا مجيداً دام أكثر من ثمانيـة قرون كانت كلها عظمة وفخامة !! تاركين وراءهم الخراب بعد العمران ، والوحشية بعد المدنية ، والفقر بعد الرفاهية . والملك لله وحده سبحانه يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء

قصر الأمراء

هو على بعد ثلثمائة متر من قصر الملك ، وهو بناء صغير فى حديقة كبيرة معتنى بها كل الاعتناء . دخلت هـذا القصر مع الداخلين وكان

---

(١) شكل العرب المحاربين فى هذه الصورة على انتظام تام فى هجومهم ولباسهم وهو أشبه شىء بلباس الاتراك سروال (بنطلون) واسع وعليه شبه معطف (جاكتة) عليه حزام وعلى الراس عمامة لفت على قلنسوة مخروطية الشكل . وربما كان هذا اللباس شائعا عندهم بين حربيين وغيرهم . على أنهم كان منهم كثيرون يتزيون بلباس الاسبانيين حتى بعض الخاصة ومنهم محمد بن مردنيش : صاحب شرق الاندلس .

الحارس يرشد القوم بلغته الى ما فيه من أثر بما لم أفهم منه لا كثيراً ولا قليلا . ولـكنى ماذا رأيت ؟ رأيت صوراً من أبدع ما يرى الراءون الواحا صغيرة من رسوم مختلفة وأشكال متغايرة غاية فى الجمال تمثل لك وقائع تاريخية شهيرة يعرفها أربابها . وبجوار هذه هنا وهناك قطع أثرية صنعت من نحاس أو فضة أو عاج أو صدف وهى تمثل مناظر بديعة جداً تراها مع صغر حجمها كأنها واسعة شاسعة بما فيها من أشجار وأطيار وحيوان وإنسان وكلها من قطعة واحدة ، ولا يمكن أى واصف أن يصفها لأنه إذا رآها وقف أمامها فى حيرة عظيمة فى حكمه عليها أمن عمل الإنسان هى أم من عمل الشيطان ؟ ومن بين هذه الصور صورة للعذراء وقد اشتملت بعلاءة من المخرم (الدنتلا) تتصل حيناً بجسمها وتنفصل عنه أحياناً كالوضع الطبيعىّ للجسم ، وكل هـذا من قطعة واحدة من العاج صنعت مع سابقاتها فى القرن الرابع عشر .

والآن نترك (الاسكوريال) الى روما ونشاهد كنيسة القديس بطرس، ثم الى باريس ونزور كنيسة نوتردام . ثم الى لندره ونزور كنيسة القديس بولس. ثم نرجع الى ماوراء التاريخ العصرى ونزور (الاكروبول) فى أثينا . ثم نعود الى مصر ونذهب الى أبعد من ذلك كله : وبعد مشاهدتنا أهرام الجيزة نزور هيكل الكرنك فى الاقصر . ثم نتساءل هل هذا كله من عمل الملوك من بنى الانسان ؛ فى زمن هو أبعد الأزمان عن العلوم والفنون، فى وقت ليس فيه شىء من هذه الاختراعات الحديثة التى سهلت الصعاب ، وفتحت من مختلف العلوم كل باب، وجعلت هذه الطبيعة القوية فى يد الانسان يحركها كيف يشاء ؟ الجواب على كل حال ايجابى .

ثم اذا تساءلنا وهل فى قدرة الملوك فى هذا الوقت اقامة هيكل من هذه خصوصا مع هذه الآلات الحديثة التى يعمل الانسان الواحد بها فى لحظة ما كان يعمله ألف شخص فى أيام؟ فالجواب على كل حال سلبي.

واذا نحن بحثنا عن السبب عرفنا أن الأمم كانت مستعبدة لارادة أقيالها فى الماضى البعيد، ومسخرة لرغبات ملوكها ورؤسائها فى الماضى القريب. حتى اذا قامت الثورة الفرنسية بعد منتصف القرن الثامن عشر، وعلى أثرها انتشرت الحرية بين الأمم الأوربية، ووقف الملوك فى الدائرة التى رسمتها لهم دساتير بلادهم وسارت الأمم فى حدودها الشرعية، أصبح الملك يعمل لبلاده، والناس يعملون لأنفسهم وحدانا ولبلادهم مجتمعين. واذا كانت الملوك قد فقدت فى هذا الطريق أيدى رعاياها فقد كسبت قلوبهم، وهذه الحال ولا شك من أجل نعم الله على الراعى والرعية.

للعبرة والتاريخ

مدريد هى عاصمة أسبانيا الآن والبيئة الوحيدة التى يعيش فى جوها علماء الأسبان وتطلع فى سمائه شموس عرفانهم وعلومهم وفنونهم. وهى مظهر مدنيتهم ومجلى حضارتهم التى لاشك أنها أثر مما تركه العرب فى بلادهم: من علم جم، وفن راق، ومدنية صادقة، وحضارة فائقة. ولقد كانت الفائدة منها تكون أعم، والنفع بها أتم، لو لم يكن فى الاسبانيين ذلك التعصب الدينى الشنيع وبخاصة بعد أن وصلتهم بالعرب لحمة النسب وامتزج دم الفاتحين بدم المغلوبين: فقد كانت فتوحاتهم

بالأندلس موجبة لوقوع كثير من أسيرات الأسبان فى أيديهم مما كان موجبا لزواجهم منهن أو التسرى بهن ، حيث كن فى حكم الفاتحين ملك يمين . وهى شرعة من شرائع الحروب البائدة . وفى هذه الحالة كانوا يسمونهن « أمهات أولاد » .

ولقد كثر زواج ولاة الاندلس من العرب وأمرائهم بالاسبانيات . وأول من تزوج منهم عبد العزيز بن موسى بن نصير ، فقد تزوج بالسيدة ايلونا أرملة لذريق ملك القوط بعد أن مات أثر جروحه فى واقعة شريش التى تغلب عليه فيها طارق بن زياد . وتزوج الأمير محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط باسبانية اسمها مارية ورزق منها بولده عبد الرحمن الناصر . وتزوج الحكم بن الناصر بالسيدة صبح البشكنسية ، وأعقبت له هشاما المؤيد . وتزوج المنصور بن أبى عامر بنت سانكو ملك نافاريا ، وولدت له ابنه عبد الرحمن ، وكانوا يسمونه سانكو الصغير لميله الى ملاذه وجرأته على الدين فى سيرته الشخصية . وتزوج المأمون بن الناصر سلطان الموحدين اسبانية اسمها حباب وخلف منها ابنه الرشيد . وتزوج السلطان محمد بن أبى الحسن بن الأحمر بالسيدة ثريا الاسبانية وولدت له ابنه أبا عبد الله . وكانت أم عبد الحق بن أبى سعيد سلطان بنى مرين اسبانية .

وقد فشا الزواج والتسرى بالاسبانيات من القوط وغيرهم بين الأمراء والرؤساء من العرب ، وكان لهذا العنصر الجميل شىء من التأثير فيهم لم تكن تظهر نتائجه الخبيثة إلا عند ضعف الدولة ، كما كان سبباً فى استكانة هشام المؤيد الى حاجبه بن أبى عامر تلك الاستكانة التى

ساعدت عليها فى أول الأمر أمه ، فلما اختلفت مع المنصور بعد أن قويت شوكته وظهرت عبقريته وتوطدت دعائم سطوته ، وقبض على مقاليد الحكم بيد من حديد ، أخذت تضرم فى قلب ولدها النار التى أطفأتها ، وتثير فى نفسه شيئا من الحياة التى أماتتها ، ولكنه كان فى سن الأربعين : بحيث أصبح والجبن ملء جسمانه . لا يهتم بشىء من أعمال الدولة الا ما كان يقوم بملاذه وشهواته ! ! !

وقد قضى فى حياته على الدولة الأموية وبموته عفا أثرها ، وانمحى وجودها ولا شكّ أن هذا أثر تلك التربية الأجنبية [1] التى ظهرت فى المؤيد بالقضاء على الأموية : كما ظهرت فى عبد الرحمن بن أبى عامر بالقضاء على الدولة العامرية ، وفى الرشيد بن المأمون بضعف الموحدين ، وفى عبد الحق بن سعيد المرينى ملك المغرب بضياع الملك من بنى مرين ، وفى أبى عبد الله بن الأحمر بالقضاء على حكم العرب فى الأندلس .

ولم يقف الزواج أو التسرى بالاسبانيات عند الولاة والأمراء فى الأندلس بل تعداهم إلى عامة العرب وقد ذكر أبناؤهم منهن بالاضافة إلى أمهاتهم مما لم يكن فى طبيعة العرب . فقالوا . ابن الرومية . وابن القوطية . وهكذا .

ويظهر أن هذا التلقيح الطبيعى قد أثر فى طبيعة العرب ولا سيما البربر فرقق من أخلاقهم وقلل من حدتهم ، وكان فيهم سببا للتسامح

---

(١) وقد بدأ ضعف الدولة الاسلامية الشرقية بامهات الخلفاء الاجنبيات وتدخلهن فى اعمال الدولة : فكانت أم المستعين العباسى صقلية ، وأم المهتدى رومية ، وأم المقتدر تركية ، وكانت كثيرة التدخل في أمور الخلافة مدة ولدها وكانت تجتمع بالوزراء والقواد فى مجلسها وتصدر اليهم أوامرها من غير علم من ولدها . ومن هذا الوقت اخذت امور الدولة فى الضعف واستبد الاتراك بها .

الذى أحسنوا به عشرتهم مع من بقى فى وسطهم من القوط وغيرهم سواء أأسلموا أم بقوا على ديانتهم فتركوا لهم كنائسهم وبيعهم وحريتهم فى مزاولة شرائعهم، هـذا التسامح الذى أثر بسرعة فى طباعهم بما جعلها مستعدة لهذا الرقى السريع الذى ظهرت به ثقافتهم فى كل مرافق مدنيتهم الجديدة. وانا إذا تركنا جانباً ذلك الأثر السياسى الذى أرضعه الأمهات الأسبانيات أبناءهن وخصوصاً فى الطبقة العالية مما جرأ كثيراً منهم على التهاون فى القواعد الدينية، والعصبية، فانا نراهن من جهة أخرى قد أثرن بلطافة أخلاقهن، وجمال عشرتهن، وليونة ملمسهن فى نساء العرب اللواتى ظهر منهن كثيرات فى عالم الأدب، وكان ظهورهن فى أفق هذه البلاد من الأسباب التى جرت بالرجال الى ميادين العرفان فى كل نوع من أنواع العلوم وخاصة الأدب الذى كان لهم فيه القدح المعلى، حتى لقد كانت لهم فى عواصم البلاد أندية كثيرة تجمع بين الجنسين لمذاكرة العلم والأدب والنظم من شعر ونثر، وهذا لعمرى آية الآيات، ونهاية البراهين على علو القوم فى مدنيتهم. ولا نزال نجد البرهان الوحيد على رقى الأمم نبوغ الجنس اللطيف فيها. فان النساء خير موصل لحقائق الكون ودقائقه الى أبنائهن وهم فى نعومة أظفارهم. فينشأون بعقول سليمة وأفئدة ذكية وبداهة فائقة. وهى الأسس التى ينبنى عليها مجد الأمم وعظمتها.

ويحسن بنا هنا أن نذكر لك بعض من نبغن بالأندلس من الجنس اللطيف فى عالم الأدب وتبرزهن فى الشعر والنثر بحيث أصبحن فى مقدمة أهله لطفا وظرفا وبديهة ومتانة حتى تكون عندك فكرة مما كان عليه هذا الجنس اللطيف فيها.

فنهن أم العلاء الحجازية وقد كانت شاعرة أديبة ومن قولها :

كل ما يصدر منكم حسن　　وبعلياكم تحلى الزمن
تعطف العين على منظركم　　وبذكراكم تلذ الأذن
من يعش دونكم فى عمره　　فهو فى نيل الأمانى يغبن

ومنهن أمة العزيز ومن قولها :

لحاظكم تجرحنا فى الحشا　　ولحظنا يجرحكم فى الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا　　فما الذى أوجب جرح الصدود

ومنهن أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح ملك المرية ويقال إنها كانت تحب فتى من عامة الناس ومن قولها فى ذلك :

يا معشر الناس ألا فاعجبوا　　مما جنته لوعة الحب
لولاه لم ينزل ببدر الدجى　　من أفقه العلوى للترب
حسبى بمن أهواه لو أنه　　فارقنى تابعه قلبى

ومنهن حفصة الركونية وقد كتبت الى عبد المؤمن بن على سلطان الموحدين وكان من عادتهم أن يبدءوا كتاباتهم بقولهم « الحمد لله وحده ».

يا سيد الناس يا من　　يؤمل الناس رفده
امنن علىّ بطرس　　يكون للدهر عده
تخط يمناك فيه　　الحمد لله وحده

ومن قولها فى نفسها

عيون مها الصريم فداء عينى　　وأجياد الظباء فداء جيدى
أزين بالعقود وان نحرى　　لأزين للعقود من العقود
ولا أشكو من الأوصاب ثقلا　　وتشكو قامتى ثقل النهود

وبلغت هذه الأبيات المقتفى أمير المؤمنين فقال اسألوا هل تصدق صفتها قولها؟ فقالوا ما يكون أجمل منها، فقال اسألوا عن عفافها؟ فقالوا هي أعف الناس، فأرسل اليها مالا جزيلا لتستعين به على صيانة جمالها ورونق بهجتها:

ومنهن العبادية جارية المعتضد بن عباد وكان المعتضد يحبها وقد سهر ليلة بجوارها وهي نائمة فقال .

تنام ومدنفها يسهر ... وتصبر عنه ولا يصبر

فأجابته بديهة بقولها :

لئن دام هذا وهذا له ... سيهلك وجداً ولا يشعر

ومنهن حمدونة ويلقبونها بخنساء المغرب ومن شعرها :

ولما أبى الواشون الا فراقنا ... وما لهم عندي وعندك من ثار

وشنوا على أسماعنا كل غارة ... وقل حماتي عند ذاك وأنصاري

غزوتهم من مقلتيك وأدمعي ... ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

ومنهن عائشة بنت أحمد القرطبية وكانت من عجائب زمانها وكانت تحسن الخط وتكتب المصاحف، ودخلت على المظفر بن المنصور بن أبي عامر وبين يديه ولده فارتجلت :

أراك الله فيه ما تريد ... ولا برحت معاليه تزيد

فقد دلت مخايله على ما ... تؤمله وطالعه السعيد

تشوقت الجياد له وهز الـ ... حسام هوى وأشرقت البنود

وكيف يخيب شبل قد نمته ... الى العليا ضراغمة أسود

فسوف تراه بدرا في سماء ... من العليا كواكبه الجنود

فأنتم آل عامر خير آل ... زكا الأبناء منكم والجدود

وليدكم لدى رأى كشيخ وشيخكم لدى حرب وليد

ومنهن مريم بنت يعقوب الأنصارى ومن شعرها وقد كبرت :

وما يرتجى من بنت سبعين حجة وسبع كنسج العنكبوت المهلهل
تدب دبيب الطفل تسعى إلى العصا وتمشى بها مشى الأسير المكبل

ومنهن نزهون الغرناطية وكانت تقرأ على أبى بكر المخزومى الأعمى فدخل عليها أبو بكر الكندى فقال يخاطب المخزومى مستجيزا :

لو كنت تبصر من تجالسه —

فأفحم وأطال الفكر وما وجد شيئاً يجيز به . فقالت نزهون :

لغدوت أخرس من خلاخله

البدر يطلع من أزرته والغصن يمرح فى غلائله

ومنهن ولادة بنت الخليفة المستكفى حفيد الناصر الأموى ، قال ابن بشكوال : كانت ولادة أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر ، وكانت تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء ، وكانت فى نهاية من الأدب والظرف إلى أن قال — وكان مجلسها فى قرطبة منتدى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب الى ضوء غرتها ، ويتهافت أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، وعلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، ولها مع ابن زيدون أخبار كثيرة (ومن قوله وقت فراقه إياها)

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطا إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زماناً أطلعك

ان يطل بعدك ليلى فلكم　　بت أشكو قصر الليل معك

وكان منهن من تكتب للأمراء مثل لبنى كاتبة الحكم بن عبد الرحمن، ومزينة كاتبة الأمير الناصر ، وقد ذكر ابن فياض فى تاريخه « انه كان بالربض الشرقى فى قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى » فكم كان إذن فى كل أرباضها التى بلغت ٢٨ ربضاً ممن كان لهن مثل هذه الصفة من هذا الجنس اللطيف ؟ ؟

هذا ما اقتصرنا عليه من ذكر أدبيات الأندلس .

والآن نذكر لك بعض من نبغ من رجاله الذين لا يحصيهم العد .

ففى علوم الدين ظهر كثيرون منهم : عبد الملك بن حبيب السلمى الذى توفى سنة ٢٣٨ بلغت مؤلفاته نحو ألف كتاب . ثم عيسى بن دينار فقيه الأندلس . ثم يحيي بن يحيي الليثى أكبر علمائه فى مذهب مالك ثم منذر بن سعيد البلوطى قاضى القضاة بقرطبة توفى سنة ٣٣٥ . ثم أبو القاسم الشاطبي أمام القراء . ثم أبو بكر بن العربى . ثم ابن شبطون فقيه الاندلس . ثم بقى [1] بن مخلد . وأبو الوليد الباجى . والوزير الفقيه أبو محمد على بن حزم الذى بلغت تآليفه ٤٠٠ كتاب . وعثمان بن سعيد . أو القاضى عياض . ومحيي الدين بن عربى الذى مات بالقاهرة . وأبو العباس المرسى الذى مات بالأسكندرية ، وابن مالك الجيانى صاحب الألفية والذى هاجر فى النصف الثانى من القرن السابع الى دمشق ومات بها سنة ٦٧٢ .

أما من ظهروا فى عالم الأدب فيكادون لا يحصون عدا . ويمكنك أن تطلع على بعضهم فى قلائد العقيان وغيره من كتب الأدب والسير

---

(١) بقى (بالباء) بن مخلد بن يزيد حافظ الأندلس فى عصر بنى أمية

والطبقات والتاريخ كالاحاطة ونفح الطيب ، وان كنت أرى انهما الى الأدب أقرب منهما الى التاريخ. وقد برز من هؤلاء كثيرون فى مقدمتهم الوزير لسان الدين بن الخطيب . وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد . والفتح ابن خاقان صاحب قلائد العقيان . والشريشى شارح المقامات . والمنصور ابن أبى عامر . وابن خفاجه . وابن هانىء . وابن زيدون . وابن عمار . والمظفر الأفطس ملك بطليوس الذى ألف كتابا فى الأدب فى نحو مائة مجلد . والوزير بن زمرك . وابن سيده الذى ظهرت مواهبه فى اللغة وهو صاحب كتاب المخصص . وغيرهم وغيرهم ممن تحلت الطروس بسطورهم، والنفوس برائع كلماتهم وبديع آياتهم، من شعر يأخذ بالألباب ونثر يصل برقته الى سويداء القلوب

وكان عبد المجيد بن عبدون يحفظ جملة من كتب الأدب ومنها كتاب الأغانى. وكان الخلفاء والأمراء يقترحون على الناس حفظ الكتاب الفلانى ويقدرون لذلك جائزة لها قيمة وكان هذا سببا لشيوع الحفظ فيهم.

وكان الأمراء الأمويون أنفسهم فى مقدمة رعيتهم فضلا وعلما وأدبا ومنهم من كان له قدم عالية فى الشعر ، ومن قول الأمير عبد الله بن محمد وهو غاية فى الرقة وأظن أنه لم يسبقه غيره الى هذا المعنى .

يامهجة المشتاق ما أوجعك ... ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها ... بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتى به ... فى مجلس يخفى على من معك
كم حاجة أنجزت ايرادها ... تبارك الرحمن ما أطوعك

ومنهم كثيرون اشتغلوا بالعلوم الرياضية ، والفلكية ، والكيمياوية،

والنباتية ، والزراعية بما ظهرت نتائجه القيمة فى أواخر القرن الرابع الهجرى . وقد نبغ من هؤلاء كثيرون أفادوا كثيراً فى رقى المدنية الاسلامية التى كانت مادة لشىء كثير من المدنية الاوربية الحالية . كابن الصفار[١] . وابن السمح[٢] وأبى القاسم مسلمة بن أحمد توفى سنة ٣٩٨ والكرمانى[٣] ومحمد ابن اسماعيل[٤] وعبد الغافر بن محمد . وعبد الله بن محمد المعروف بالسرىّ . وعبد الرحمن بن اسماعيل بن بدر المعروف باقليدس كان فى أيام المنصور بن أبى عامر . وسعيد بن فتحون السرقطى . وابن شهر[٥] وابن الليث[٦] وعلى بن خلف بن أحمد . وابن الخياط[٧] وأحمد بن جوشن . وموسى بن ميمون توفى سنة ٦٥٠ ، وابن البيطار المالقى . وابن مفرج[٨] النباتى ، وأبو زكريا الأشبيلى . وابن باجة أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ الغرناطى استوزره أبو بكر يحيى بن تاشفين مدة عشرين سنة وتوفى سنة ٥٣٣ ،) وابن جابر ، وينسب اليه اختراع الجبر[٩]

---

(١) أحمد بن عبد الله بن عمر (٢) أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح توفى سنة ٤٢٦
(٣) عمر بن عبد الرحمن القرطبي توفى سنة ٤٥٨ (٤) المعروف بالحكيم توفى سنة ٣٣١
(٥) هو أبو الحسن مختار بن شهر الرعينى كان بصيرا بالهندسة والنجوم متقدما فى اللغة والحديث والتاريخ شاعرا أديباً (٦) محمد بن أحمد بن الليث توفى سنة ٤٠٥ (٧) أبو بكر يحيي بن أحمد أحد تلاميذ أبى القاسم مسلمة بن أحمد توفى بطليطلة سنة ٤٤٧ (٨) ابن مفرج النباتى (هو أبو العباس أحمد بن محمد ويعرف بابن الرومية من أهل أشبيلية ومن أعيان علمائها وأكابر فضلائها وصل سنة ٦١٣ الى ديار مصر وأقام بها وبالشام والعراق زمنا ـ ولما وصل من المغرب الى الاسكندرية سمع به السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب وبلغه فضله فاستدعاه الى القاهرة وأكرمه وعرض عليه الاقامة عنده فأبى ولكن أقام لديه مدة ثم قصد الحجاز حاجا وعاد الى المغرب فأقام بأشبيلية
(٩) (وبعضهم ينسبه الى جابر بن حيان الطوسى أمام المشرق فى علم الكيمياء الذى مات سنة ١٦٠ هـ)

ومن الذين اشتغلوا فى الرياضيات عباس بن فرناس الذى اخترع آلة المثقال لمعرفة الزمن ورسم فى بيتـه هيئة السماء بما فيها من النجوم والغيوم والبروق وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة استخراج الزجاج من الحجارة وفكر فى إمكان الطيران[1] وكان قبله لاتتسع له غير خرافات اليونان ، فعمل له جناحين من ريش طار بهما مسافة فى الهواء ولـكنه لم يحسن الوقوع لعدم تفكيره فى عمـل الذيل الذى ينظّم حركة النزول ويمنع السقوط المروّع — فسقط سقطة كان فيها حتفه سنة ٧٥٥

أما الذين اشتغلوا بالمسائل الطبية ونبغوا فيها فكثيرون جداً . وقد

---

(١) ذاع أمر الطيران فى الفرنجة فحذا حذو ابن فرناس دانت DANTE فى أواخر القرن الخامس عشر ثم أوليفييه OLIVIER فى القرن السادس عشر وعملا لهما أجنحة من الريش ولـكن كان حظهما مثل حظه فى سقوطهما واصابتهما برضوض وكسور . وأتى من بعدهما كثيرون فـكروا فى الطيران بواسطة آلات مدار حركتها على قوة ساعدى الشخص الطائر ولـكنها لم تنتج نتيجة صالحة . وفى سنة ١٨٩٣ اخترع الالمانى ليلينتال آلة طار بها بضع مئات من الأمتار وانتهت تجاربه بموته سنة ١٨٩٦ . وفى نهاية القرن التاسع عشر وصل العالم الرياضى لانجلى الامريكانى الى اختراع طيارة من الالومنيوم يحركها جهاز خفيف فطارت تسعمائة متر بسرعة ١١ مترا فى الثانية . ثم وصل تانان وريشييه الى اختراع طيارة صغيرة وزنها ٣٣ كيلو جرام فـكانت تطير بسرعة ١٨ مترا فى الثانية .

ومن ثم اخذ هذا الاختراع العجيب يزيد فى صلاحيته حتى وصل الى مانراه الآن من نقل الركاب بين انكلترا وفرنسا وبين هذه وبلاد المغرب ونقل البريد بين مصر وبغداد بطريقة منتظمة ثم فى قطع المسافات الشاسعة بين أوربة وأمريكا وبينها وبين مصر والهند واستراليا . ولابد أن يأتى يوم تـكون فيه حركة الطيارات فى الهواء كحركة العربات على وجه الارض .

وقد صنع الالمان اخيرا منطادا كبيرا اسمه (جراف زبلن) تزيد مساحته عن مائة الف قدم مكعب وقد جهز بخمس محركات قوة كل واحد منها ٥٥٠ حصانا وقطع المسافة بين المانيا ونيويورك ببضائع كثيرة وبثلاثين راكبا بسرعة ١٣٥ كيلو متر فى الساعة .

والآن يعمل الانكليز بالونا يسع اكثر من مائة راكب اسمه (ر١٠٠) طوله ٧٢٤ قدما وبه قاعات لنوم المســافرين وفيـه قاعة تسع خمسين نفسا يجلسون فيها للطعام ولتمضية الوقت فيما يسليهم فى سفرهم من قراءة وغيرها وهو يقطع ١٨٠ ميلا فى الساعة

وصل الطب فى الأندلس إلى درجة لم يصل اليها فى الشرق ولا فى الغرب نذكر منهم : ابن الجزار [١] ، واسحاق بن سليمان توفى سنة ٣٢٠ وابن خلدون [٢] (غير المؤرخ) ، وابن غلندو [٣] والحرانى [٤] وإسحاق [٥] ابن عمران ، ومحمد بن فتح ، واحمد بن يونس ، [٦] واسحاق [٧] الطبيب ، ويحيى [٨] بن اسحاق ، وابن جلجل [٩] وابن باجه ، وبنى زهر ، وابن رشد وابن حفصون [١٠] وابن المدور ، والزهرى [١١] وابن خاتمة الطبيب وقد ألف كتابا فى الوباء ذهب فيه إلى وجود الجراثيم (الميكروبات) وتأثيرها فى العدوى وقد سبق فى العثور عليها باستور العالم الفرنسى الذى مات سنة ١٨٩٥ م

---

(١) هو أحمد بن ابراهيم من أهل القيروان وهو ممن لقى اسحق بن سليمان وصحبه وأخذ عنه

(٢) هو أبو مسلم عمر بن أحمد بن خلدون الحضرمى من أشراف أهل أشبيلية توفى سنة ٤٤٩

(٣) أبو الحكم بن غلندو الطبيب ولد بأشبيلية ونشأ بها وكان أديباً شاعرا توفى بمراكش حوالى سنة ٥٩٠

(٤) يونس الحرانى هذا ورد من المشرق وكان فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموى واشتهر بقرطبة

(٥) كان بغدادى الاصل ودخل أفريقية فى دولة زيادة الله بن الأغلب التميمى

(٦) رحل الى المشرق فى دولة الناصر سنة ٣٣٠ وأقام به زمانا لدراسة الطب ثم انصرف الى الأندلس فى دولة المستنصر بالله سنة ٣٥١ فأسكنه مدينة الزهراء واستخلصه لنفسه

(٧) والد الوزير ابن اسحق وهو مسيحى النحلة وكان مقيما بقرطبة فى أيام الأمير عبدالله الأموى

(٨) كان فى صدر دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله واستوزره وولى الولايات والعمالات

(٩) سليمان بن حسان كان فى أيام هشام المؤيد بالله وتوفى مدة المستنصر

(١٠) ابن حفصون (أحمد بن حكم) كان طبيبا فيلسوفا حاذقا اتصل بالحكم المستنصر بالله وتوفى فى مدته

(١١) لعله الزهراوى وهو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى المتوفى سنة ٥٠٠ كان أشهر أطباء زمانه وهو أول من ألف فى فن الولادة ورسم فى كتابه آلات الجراحة و(الزهرى) أيضا هو الفقيه الطبيب أبو بكر بن أبى الحسن الزهرى الاشبيلى وخدم بالطب للسيد أبى على بن عبد المؤمن صاحب أشبيلية وهو فى أيام المستنصر

ومن الذين نبغوا فى الجغرافية ولهم مؤلفات فيها : الادريسى والبكرى صاحب المعجم ، وابن جبير ، والحجازى صاحب المسهب . أما الذين ظهروا فى التاريخ فهم كثيرون منهم ابن خلدون (أصله من أشبيلية) وابن حيان ، وابن بشكوال ، وابن سعيد ، وابن الخطيب

ولم يظهر الذين نبغوا فى الفلسفة إلا فى أواخر القرن الرابع لأن الناس (وخاصة أهل الأندلس) كانوا إلى منتصف هذا القرن يتهمونهم بالزندقة بل بالكفر . [١] ويتطاولون عليهم بكل أنواع الأذى بما كان يضطرهم إلى الاختفاء وانكار الاشتغال بها ، وكثيراً ما كان الخلفاء من المرابطين والموحدين ينالونهم بالأذى تقرباً للعامة ، ومن ذلك أن المنصور يعقوب ملك الموحدين مع علو كعبه فى العلوم والآداب سجن ابن رشد لنسبة بعض كتب الفلسفة اليه على الرغم من إنكاره لها ، وكانت الفلسفة سبباً فى فرار ابن هانئ الشاعر من أشبيلية خوف إيقاع الناس به ، والذين ظهر منهم فى سماء النبوغ فيها ، ابن رشد ، وابن الطفيل ، والوقشى وابن الصائغ المعروف بابن باجه ، وابن حيان والمقتدر بن هود صاحب سر قسطة .

وقد برز فى علم الموسيقى ابن فتحون ، وابن باجه ، ويحيى الخدج ، ولهم فيها مؤلفات كانت أصلا لترتيب النغمات الأفرنكية وتقييدها فى مذكرتها الحاضرة (نوتتها)

---

(١) ومن ذلك قيامة الأزهر على السيد جمال الدين الأفغانى عند حضوره الى مصر فى النصف الثانى من القرن المنصرم وتدريسه به أصول المنطق والفلسفة ، فانهم رموه بالزندقة وقصدوه بأنواع الاهانة مما اضطر معه الى ترك الازهر والاقتصار على التدريس فى بيته لمن أراد من تلاميذه الذين كان منهم قادة الاصلاح الفكرى والسياسى فى القطر، ومنهم الامام الشيخ محمد عبده

ومما مر ذكره ترى ان الذى كان ينبغ منهم فى مادة لا يمنع نبوغه فيها تبريزه فى مادة أو مواد أخرى كابن رشد مثلا فانه كان عالما دينيا وأديبا وشاعرا وطبيبا وكاتبا وفيلسوفا ، وكذلك ابن باجه فانه كان مع هـذا كله موسيقيا .

ولولا التطويل الذى لا تتسع له هـذه الكلمة لأكثرنا لك من هذه الأمثلة التى يخجل أمامها هؤلاء الذين يدعون جلال العلم من غير ماعلم ، وقد أصبح هذا من علل الشرق بعد أن كان فيه من علمائه من ينحنى رأس التاريخ أمام أسمائهم اعظاما واكبارا

وبالجملة لقـد أنجبت الأندلس من رجال العلم (١) من لا يقلون فى كفايتهم وعلومهم عمن أنجبهم الشرق الاسـلامى ممن قامت بتأليفهم هياكل المدنية فى كل علم من العلوم المختلفة . وقد كانوا يفاضلون بين ابن رشد والطوسىّ ، وبين ابن زهر وابن سينا ، وبين ابن فرناس والفارابى وبين يحيى الخدج وأبى الفرج الأصبهانى ، وبين ابن هانىء والمتنبى ، وبين ابن زيدون والبحترى ، وبين ابن عبدون والأصمعى ، وبين ابن ضمضم والخوارزمى ، وبين أبى مروان البصير والمعرى ، لوجود الشبه بين كل فى كثرة علومهم وعرفانهم ، وفى معارفهم الخاصة التى برزوا فيها ، وكانوا يفاضلون بين عبد الرحمن الداخل والمنصور العباسىّ ، وبين الناصر والرشيد وبين الحكم بن الناصر والمأمون العباسىّ لكثرة الشبه بينهم فى سياستهم ، وبعد نظرهم ، وكمال رياستهم ، وغزارة معارفهم ، كما كانوا يفاضلون بين

---

(١) لابن الفرضى كتاب لتاريخ علماء الاندلس الى آخر القرن الرابع فى جملة مجلدات نشر الاستاذ كوديرا منها الجزأين السابع والثامن فى مدريد سنة ١٨٩٢ .

قرطبة وبغداد، وبين اشبيلية وحمص، وبين غرناطة ودمشق ، لكثرة الشبه بينها فى ضخامة البنيان وواسع العمران وكثرة الزروع والأنهار، ورواج أسواق العلوم والآداب

الرسالة الثالثة

من مدريد إلى قرطبة

يسير القطار بين هاتين المدينتين فى مسافة طولها ٤٤٠ كيلو متر يقطعها فى عشر ساعات فى صحراء (تقريبا) كالتى بين مدريد وسان سباستيان . وترى على القطار لوحا مكتوبا عليه (الأندلس) يعنى انه يتجه إلى جهة الجنوب ، وهو أشبه شىء بقطر الفروع الصغيرة عندنا قبل أن يدخل عليها الاصلاح ، ومن ذلك تعرف أن السفر إلى هذه الجهة ليس فيه أى ضمان لراحة الركاب وليست فيه بطبيعة الحال عربات للنوم ولا للأكل . وكنا كلما سرنا إلى الجنوب رأينا الأراضى الزراعية تكثر فى هذا الوادى كما تكثر الأبنية التى هى أشبه شىء بالعساكر والقرى الصغيرة . وبعض هذه الأبنية باللبن النىء . وكذلك تكثر حول المبانى الآبار وعليها دلاؤها بشكلها المعروف وقد ترى بعض السواقى المعينة تدور بحصان وعصاميرها (قواديسها) من الزنك ومن حولها بعض مزارع الخضر . وقد ترى بجوار القرى أتن الآجر (قمائن الطوب الأحمر) المحروق بالفحم . ولشدة الحرارة فى هذه الجهات ترى فى كل محطة من محطات الأندلس بعض الرجال أو البنات أو الصبيان يحملون قللا وينادون

(اغوا . اغوا) وهم أشبه شيء بتلك الصبية التي تراها في بعض المحطات عندنا مدة الصيف وهم يصرخون (ماياه) أو ماتراه في صحراء الحجاز من العرب الذين يحملون القرب الصغيرة وهم ينادون (الما الما) وفي الساعة السابعة مساء وصلنا إلى قرطبة .

قرطبة

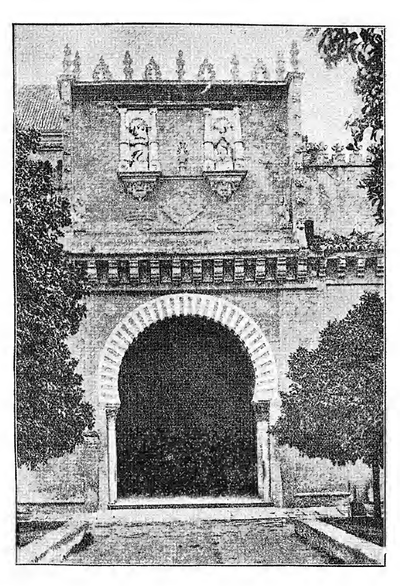
كانت قرطبة قبل العرب عاصمة الأندلس مدة القوط . فلما لحق موسى ابن نصير بمولاه طارق بن زياد بعد الفتح أقام بها ودعا فيها للوليد بن عبد الملك الخليفة بدمشق . وما زالت حتى استولى عليها عبد الرحمن الداخل الأموي في مبدأ الخلافة العباسية بالمشرق وجعلها عاصمة ملكه وأصبحت منذ زمن عبد الرحمن الناصر مقر الخلافة العربية باسبانيا . وكانت مدة الأمويين على أكبر ما تكون من العظمة ، وكان قصر الخلافة في مبدأ أمره جنوبي المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الداخل ، وهو باق الى الآن في مكانه لا في روائه وفخامته . وهو مقر البطريق الكاثوليكي في هذه الجهة . وقد بنى الخلفاء الأمويون قصور الزهراء خارج المدينة وكانت أشبه شيء (بفرساى) بجوار باريس لكل خليفة منهم زيادة فيها إلا أن تعسف المرابطين وأيدي السلبة من جهة ويد الغاصب وحدة التعصب الديني في محو كل أثر للمسلمين بعد استيلائهم على المدينة من جهة أخرى ، وكونها كانت بعيدة عن حصون قرطبة وقد يتحصن فيها المسلمون اذا هجموا على قرطبة من جهة ثالثة ، كل ذلك قضى على هذه القصور التي وصلت من فخامة الملك وأبهة الخلافة العربية الى ما لم يصل

اليه شيء في بابها . وقد كانت تبلغ في طولها ثلاثين كيلو مترا بغياضها ورياضها مما وصفه مؤرخو العرب بما لم تبلغه قصور الخلافة الشرقية في دمشق وبغداد .

وقد بلغت هذه المدينة من العظمة ماسبقت به بغداد في ثروتها وحضارتها وعلومها وفنونها ولم يبق لنا من آثارها غير تلك الذكرى المؤلمة وذلك الجامع البديع الذى لا يبلغ فخامته شيء آخر في بابه .

المسجد الجامع بقرطبة

دخلنا المسجد من باب المنارة وهو بابه العمومى الكبير النحاسى ويبلغ طوله نحو ثمانية أمتار وارتفاعه نحو عشرين متراً. ووجهة البناء من الرخام المنقوش بنقوش عربية عجيبة أشبه شيء بالمخرم (الدنتلا) . وفى وسطها وأعلاها كتابة عربية لم أستطع قراءتها . ويتكون هذا الباب من ظاهره من قطع نحاسية طولها ١٥ سنتيمترا في عرض نصفها تقريبا . وهى مثمنة الشكل بعضها عمودى على الآخر . وقد رسم القوم فى وسط القطعة القائمة صلبانا بعد استيلائهم على المدينة وتحويلهم المسجد الى كنيسة . والمنارة فى الزاوية القبلية الجنوبية من المسجد وهى مربعة الشكل وطول كل ضلع منها ١٢ متراً وارتفاعها ٩٣ متراً وهى خمس طبقات فى كل طبقة عدد كبير من الأجراس . وقد استوجب هذا التغيير الجديد بعض تغيير فى نظامها القديم ومن دون باب المنارة صحن المسجد: وهو فناء واسع ، فى وسطه الى الآن ثلاث برك واحدة فى الوسط وهى الكبرى واثنتان صغيرتان واحدة عن يمينها ، وأخرى عن يسارها ،



أحد أبواب مسجد قرطبة



وكانت ثلاثتها للوضوء . ومن دون الصحن المسجد .

وقد كان مكان هـذا المسجد كنيسة فأراد عبد الرحمن الداخل أن يبتني مكانها مسجداً لحسن موقعها ، فعوض النصارى عنها أرضاً واسعة وأموالا جمة (وذلك بشهادة مؤرخي الافرنج) . ثم بني مكانها مسجده هذا على نظام المسجد النبوى الذى بناه الوليد بن عبدالملك بالمدينة المنورة (وهذا ما تدلنى عليه مشاهدتى الشخصية) .

وقد وصل خلط بعض الناس فى أفكارهم وأقوالهم الى الحد الذى لا يتفق مع الحقائق البدهية ، فان بعضهم نسب إلى عبد الرحمن الداخل أنه إنما بنى مسجده بقرطبة بهذه الفخامة حتى يستغنى الناس بحجهم اليه عن حجهم الى الكعبة المكرمة بمكة.وهذه تهمة أقل ما فيها أن الرجل بعمله هذا يهدم ركناً من أركان الاسلام الخمسة وحاشا لله أن يهم مثله بذلك فما علمنا عليه من سوء

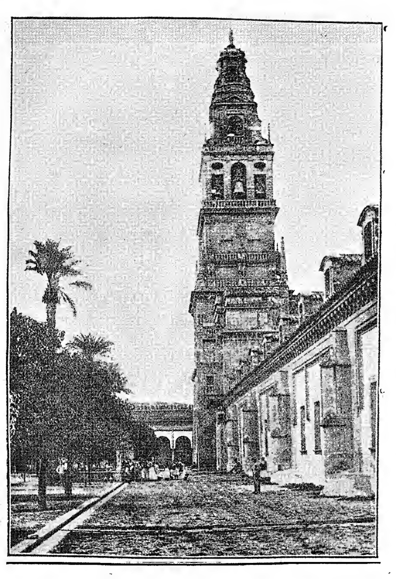
ولو علمت أنهم ذكروا أن مالكا رضى الله عنه سأل بعض حجاج الأندلس عن عبد الرحمن الداخل فقالوا له«يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد فى سبيل الله فقال ليت عندنا فى حرم الله مثله » . وكانت هذه القولة سبب محنة مالك من العباسيين لعرفت أن مثل عبد الرحمن الداخل لا يأتى بما اتهمه به هؤلاء الذين لا يعون ما يقولون :

وقد اتهموا فى ذلك الوقت وبهذه التهمة نفسها المنصور العباسى حينما بنى القبة الخضراء ببغداد .

وقد كان المنصور وعبد الرحمن الداخل فى زمن واحد ، وهما تهمتان كاذبتان لا تنطبقان على صفتى هذين الرجلين العظيمين اللذين انما كانا

يستمدان سلطانهما من قوة الاسلام ومن شرائع الاسلام فى وقت كان منار الاسلام فيه أصله ثابت فى الأرض وفرعه فى السماء وفيه كان أمراء المسلمين وخلفاؤهم يأتون الى مكة سعيا على الأقدام من بلادهم لحج بيت الله تقربا اليه وزلفى .

وقد زاد فى المسجد الحكم بن الداخل والخلفاء من بعده . ولكن الزيادة الكبرى التى بنيت فى الجهة الشمالية بناها المنصور بن أبى عامر الذى توفى سنة ٣٩٣ وزير الخليفة هشام المؤيد . وهذه الزيادة تبلغ ثلثى المسجد الأصلىّ وتتميز عنه بان ميول خطوط أعمدتها تتجه من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى . أما ميول أعمدة المسجد الأصلى فتتجه من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى . وعلى كل حال ان الذى ينظر الى الأصل والزيادة يرى الفارق بينهما عظيما : لأن الأصل بنى على نظام واف وفيه من الأعمال الفنية مايقف أمامه الإنسان مبهوتا معجبا ولا سيما أعمال القبلة والمحراب والمقصورة التى كانت من المسجد الأصلىّ مكان مقصورة الرسول صلى الله عليه وسلم من مسجده . ولا بد أنها كانت مكان صلاة الخلفاء لأن بابها تجاه الباب الذى كان يدخل منه الخليفة الى المسجد قبالة باب القصر ، وهى بناء مربع مرتفع مزين بنقوش جصية بديعة جدا وعليها كتابات قرآنية وأحاديث نبوية ، وقد وشيت من داخلها بالأدهنة الذهبية ولها فتحات على المسجد . وقد كان القسوس بنوا حولها حائطا تحجبها عن الأنظار بعد أخذهم المدينة ولكنهم فطنوا الى هذه الأغلاط التى ارتكبوها جنوا بها على التاريخ وهم الآن يزيلونها ويرجعونها الى أصلها .



منارة مسجد قرطبة وقد وضعوا فيها النواقيس بعد تحويله إلى كنيسة



أما القبلة فهي شيء لا يصل اليه وصف الواصف ولا مبالغة الناعت ، ويحيط بها الآن (درابزين) من الحديد ليمنع الناس عنها . وقد قدرتها بسبعة أمتار طولا في ١٢ مترا ارتفاعا ، وفي وسطها المحراب ، وكل هذه الوجهة صنعت من الفسيفساء [١] الصغيرة جدا والدقيقة في صناعتها : فهي من قطع رخامية من ألوان كثيرة يدخلها قطع صدفية وذهبية . وقد صيغت بشكل ينشأ عنه صورة فذة في بابها : اذا نظرت اليها من جهة اليمين رأيت مناظر غير التي تراها من جهة الشمال وذلك بسبب انعكاس الضوء فيها بحال تستهوي الألباب وتسلب العقول بجلال هذه الصناعة العربية . وفي دائرة القبلة والمحراب كتابات كوفية قرآنية كثيرة مما تراه عادة على أمثالها . وعن يمين القبلة ويسارها بابان لغرفتين صغيرتين احداهما لتعبد الامام والثانية لوضع لوازم المنبر الذي لا يوجد له الآن أثر . والمحراب واسع من داخله وتعلوه قطعة واحدة من الرخام المقعر تكون سقفه وكانوا يضعون فيه المصحف العثماني الكريم [٢] حتى اذا ما استولى

---

(١) أصلها كلمة يونانية فسيفوسيس PSEPHOSIS ولعل كلمة موازيك MOSAIQUE أصلها عربي « مزوق » فاستعمل العرب الاولى واستعمل الافرنج الثانية .

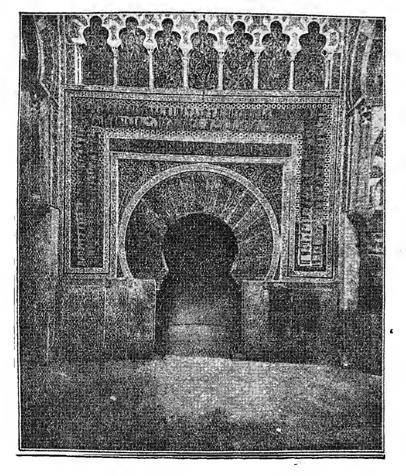
(٢) خلط الناس كثيرا في نسبة بعض المصاحف الى عثمان رضي الله عنه . وادعى بعضهم أن المصحف الذي في جهته هو مصحف عثمان وأضاف الى هذه الدعوى دعوى أخرى وهي أنه هو الذي على بعض صفحاته دم هذا الشهيد : فمن يتكلم عن مصحف قرطبة يقول أنه هو الذي كان يتلو فيه عثمان وقت أن قتله الثائرون . والذي بالشام يدعي هذه الدعوى والذي بالاستانة أو العراق لا تقل دعواه عن ذلك . ولا تعدم مصر من يقول بهذا القول . والحاصل أن عثمان رضي الله عنه لما جمع القرآن كتب منه ستة مصاحف (أو عشرة) وأرسلها الى الجهات الاسلامية فكتبوا منها كثيرا من المصاحف التي أذاعوها في بلادهم وهذه كتب عنها غيرها وهكذا : ويمكن أن نحسب كل مصحف منها مصحفا لعثمان : لا أنه نفسه المصحف الذي كان يقرأ فيه وقت أن اعتدت عليه تلك اليد الاثيمة وسال دمه على صفحاته في سنة ٣٥ هـ ، ولا أنه هو المصحف الذي أرسل به الى بعض الجهات ، على أنه لا يعقل أن ينتقل مصحف عثمان الأصلي من المدينة الى الاندلس لبعد الشقة وعدم تيسر الطريق لنقله : لان مصر في مدة الامويين بالمغرب كانت تابعة للخليفة

الموحدون على الأندلس نقله عبد المؤمن بن على الى مراكش فى سنة ٥٥٢ هـ واحتفل بدخوله الى المغرب أيما احتفال .

وما زال هذا المصحف الشريف بخزائن ملوك المغرب فى مركز إجلال وإعظام وكانوا يستصحبونه فى غزواتهم حتى ذهب أبو الحسن المرينى ملك فاس الى افريقية (تونس) . وبينما كان عائدا فى سنة ٧٥٠ هـ من طريق البحر غرقت مراكبه ومن جملة ما غرق فيها هذا المصحف الشريف وهذا آخر العهد به .

وقد كان القوم أيضاً أقاموا على القبلة حائطا ليحجبوها عن أنظار الناس إلى أن أزيلت فى القرن الثامن عشر . وطول المسجد من الشمال الى الجنوب ١٧٥ متر ومن الشرق الى الغرب ١٣٤ متر وارتفاعه يصل الى ٢٠ مترا . وقد كان بالمسجد ١٢٩٣ عمود كلها من الرخام وتيجانها منقوشة بنقوش مختلفة وكانت قبته قائمة على ٣٦٥ عمود من المرمر ، ولما أراد القوم بناء كنيستهم من داخله أزالوا القبة وأزالوا معها ١٦٣ عمود من وسط الجامع وأزالوا ما كان عليها من الحنايا وبنوا فيها كنيستهم التى تراها الآن وسط المسجد الى جهة الشمال الغربى وامتدادها من الشمال الى الجنوب . وهى منه كالنقطة السوداء فى وجه الحسناء لا أدرى أتجملها أم تخملها . وقد كانوا أزالوا بعض سقف المسجد الجميل المنقوش بالأطلية

العباسى ، ولا يعقل أن كتابا عظيما كهذا يقول بعضهم عنه إن ثقله ينوء بحمله رجلان يخرج من مصر التى هى الطريق الوحيد الى الاندلس ولا يعلم به عاملها الذى لم يكن يسمح بخروج أثر كريم مثل هذا من بلاده ، على أنه لا يبعد أن بعض تجار الكتب يستنسخ مصحفا كبيرا ويلون بعض صفحاته بدم ويبيعه بهذه الدعوى الفاسدة إكبارا له حتى يضاعف له فى ثمنه كما يفعل تجار الآثار فى هذا العصر .



قبلة المسجد الجامع بقرطبة وهى آية الآيات فى الصناعة العربية



الجميلة والليقة الذهبية. ولا يزال موجوداً منه جزء عظيم جهة القبلة. ووضعوا بدله حنايا أقاموا عليها عقود كنيستهم. وقد عولوا الآن على رفعها وإعادة باقي السقف الى ما كان عليه مع إزالة جميع المصليات الصغيرة التي أقاموها في محيط المسجد. وهم الآن يزيلون البناء الذي كان يحجب الأبواب الخارجية، وقد ظهرت منها ثلاثة أبواب مما يقابل القصر وهي غاية في كمال نقشها وفخامة منظرها. وكان بالمسجد مصابيح من الفضة الخالصة بقي الى أوائل القرن الثامن عشر منها أربعمائة مصباح أخذها الفرنسيون عند دخولهم قرطبة في زمن نابليون الأول.

وقد رأيت بين أعمدة الجامع عموداً الى الغرب يكاد يكون بين المسجد الأصلي وزيادة ابن أبي عامر. وقد حفرت في جانبه الخلفي صورة صغيرة للمسيح مصلوبا. ومن دونها في الحائط مثال رأس انسان وضعه القسوس ويقولون إنه مثال هذا الرجل الذي رسم تلك الصورة بظفره وكان ينافق بإظهار إسلامه. وقد خطر ببالي أن هذا وأمثاله كانوا من أسباب هزائم المسلمين في حروبهم مع القوط وغيرهم، لأنهم كانوا يرشدون العدو الى مواضع الضعف فيهم [1]

---

(١) وبحسبك الحكاية الآتية برهانا على ذلك :

قال المقرى : قال ابن حيان « انه كان جالسا مع المنصور بن أبي عامر في بعض الليالي، وكانت شديدة البرد والريح والمطر. فدعا بأحد الفرسان وقال له انهض الآن الى فج طالس وأقم فيه، فاول خاطر يخطر عليك سقه الى. قال فنهض الفارس وبقي في الفج في البرد والريح والمطر واقفا على فرسه، اذ وقف عليه قرب الفجر شيخ هرم على حمار له ومعه آلة الحطب. فقال له الفارس الى اين تريد ياشيخ؟ فقال وراء حطب. فقال الفارس في نفسه هذا شيخ مسكين نهض الى الجبل يريد حطبا فما عسى ان يريد المنصور منه ؟ ؟ قال فتركته فسار عني قليلا ثم فكرت في قول المنصور وخفت سطوته فنهضت الى الشيخ وقلت له ارجع الى مولانا المنصور. فقال له وماذا عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي ؟ سألتك بالله ان تتركني اذهب لطلب معيشتي. فقال له الفارس لا

واذا ذهبنا الى أبعد من هذا وجدنا أمثال هذا الرجل سبب مصائب الإسلام حتى فى صدره الأول : لأن اليهود الذين أسلموا ولم يحسن إسلامهم كانوا من المنافقين الذين كانوا شراً على الاسلام من أعدائه. وقد حاربوا الإسلام بمادة الإسلام وهو فى قوته : فأخذوا يبتدعون الأحاديث المكذوبة ويتقولون على النبى ما لم يقله حتى اختلط الصحيح بالفاسد ، وما زال الامر كذلك حتى قام رجال الدين فى العصر الثانى[1] وطهروا الأحاديث من الدخيل والموضوع وأبانوا صحيحها من ضعيفها بالسند الصحيح الذى لم تحم حوله أية شبهة . ثم انظر الى من لم يحسن إسلامهم من الفرس تره حاربوا الدين بمادة الدين من جهة أخرى فابتدعوا التشيع ، وغالوا فى بعض مذاهبه حتى أخرجوها عن الاسلامية . ثم حكموا أهواءهم فى فهم أصول العقائد وغالوا فى ذلك حتى أخرجوا به الدين عن جوهره . واذا *تركنا الدين الى جانب ونظرنا فى أعمال هؤلاء الدخلاء السياسيين فى الدولة* العثمانية مثلا ، وليس عهدها ببعيد ، نرى أن هؤلاء الذين كانوا من دم صربى أو بلغارى أو روسى أو رومى وبيعوا فى الاستانة مماليك وأسلموا

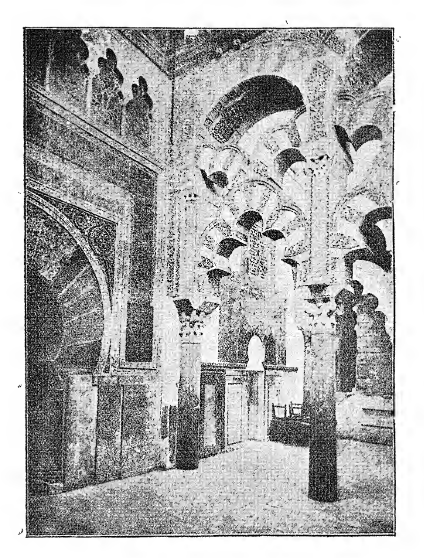
أفعل . ثم قدم به على المنصور ، ومثل بين يديه وهو جالس لم ينم ليلته تلك . فقال المنصور للصقالبة فتشوه . ففتشوه فلم يجدوا معه شيئا . فقال فتشوا برذعة حماره . فوجدوا داخلها كتابا من نصارى كانوا قد نزعوا الى المنصور يخدمون عنده الى أصحابهم من النصارى ليضربوا ويقتلوا فى احدى النواحى المستوطنة فلما انبلج الصبح أمر باخراج أولئك النصارى فضربت أعناقهم وضربت عنق الشيخ معهم . ؟

(١) أول من دون الحديث الامام مالك المتوفى سنة ١٧١ هـ فى موطئه باقتراح وإرشاد الخليفة المنصور . وقبل ابن جريج المتوفى سنة ١٥٠ هـ . ثم توالت بعد ذلك المجموعات الشهيرة بالكتب الستة الصحيحة وهى: مجموعة البخارى التى جمع فيها ٩٢٠٠ حديث وكان يحفظ مائة ألف حديث صحيحة ومائتى ألف غير صحيحة وتوفى سنة ٢٥٦ هـ . ومجموعة مسلم المتوفى سنة ٢٦١ هـ ومجموعة ابى داود المتوفى سنة ٢٧٥ هـ . ومجموعة ابن ماجه المتوفى سنة ٢٨٢ هـ . ومجموعة النسائى المتوفى سنة ٣٣٢ هـ . ومجموعة الدار قطنى المتوفى سنة ٣٨٥ هـ . واليهم ينتهى أمر الاجتهاد فى الحديث .

وتربوا فى حضانة كبار القوم حتى وصلوا الى مكانة عالية وأصبح منهم الوزراء والرؤساء والقواد يميلون بطبيعتهم الى خدمة جنسيتهم الأولى . وقد تستعملهم دولهم الأصلية لمساعدتها ضد هـذه الدولة التى نشأوا فى عزتها وكانوا لايزالون يعيشون فى نعمتها : هؤلاء كانوا سبب هزائم الدولة فى كثير من حروبها وكانوا علة فساد سياستها وضعف ثروتها ، حتى كاد يتلاشى أمرها لولا أن أسعفها الله بالكاليين أعانهم الله على ما فيه خير بلادهم .

ولو عرفنا أنه قد كان بقرطبة غير هذا المسجد الجامع العظيم مايقرب من ألفى مسجد ، وعرفنا أن المساجد كانت ولا تزال فى الدول الإسلامية تستعمل مدارس للعلوم المختلفة كما هو الشأن الى الآن فى الحرمين الشريفين بمكة والمدينة والأزهر بمصر والمسجد الجامع ببغداد والمسجد الأموى بدمشق وجامع الزيتون بتونس ومسجد الـكتبية بمراكش وجامعى السلطان أحمد والسلطان محمد بالاستانة ومسجد عمر بالقدس أمكننا أن نتخيل ما كانت عليه قرطبة زمن العرب من تبريزها فى العلم والعرفان الى مالم تلحقها فيه مدينة أخرى إسلامية أوغير إسلامية فى عصرها . وأمكننا من جهة ثانية أن نقدر عدد سكانها فى ذلك الوقت بما كان يزيد كثيرا على نصف مليون نفس .

أما قرطبة الحالية فشكل مبانيها يكاد يكون عربياً صرفا . فقد ترى الباب الخارجى من بيوتها ومن دونه دهليز يوصل الى حوش يفصل بينهما باب من حديد فى الغالب ، وفى الحوش ترى روضة جميلة زرع فيها شىء من نخل الاريكا أو الـكنسا (من أنواع النخل الفرنجى) يتخللها



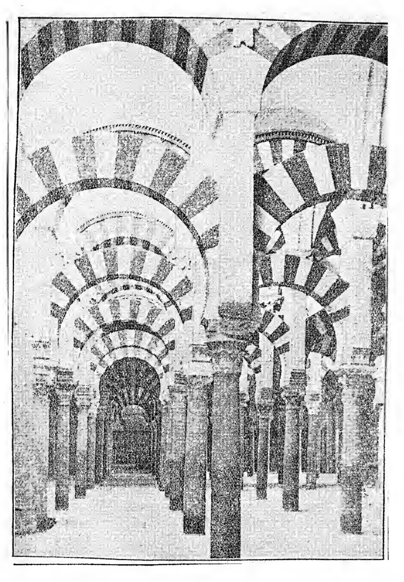
منظر من الحنايا والعقود الفنية البديعة بمسجد قرطبة



شيء من الأزهار والورود. وترى في وسط هذه الروضة بركة من الرخام عالية أو واطئة عن أرض الحوش صغيرة أو كبيرة بنسبة سعته أو ضيقه، وقد ذكرني هذا الحوش بالقاعات الحورانية التي كانت بمصر وقضى عليها النظام البنائي الفرنجي الجديد ولا يزال شيء منها في البيوت القديمة بجهة سوق السلاح.

وعلى يمين الداخل من الحوش ترى قاعة الاستقبال وهي أشبه شيء بالمنظرة (المندرة) في ديارنا القديمة، وفي ناحية منها السلم الى الطبقة الثانية والنساء يجلسن في هذا الحوش في شيء من الحجاب، وحيطان الطبقة الأرضية على الخصوص في دائرها القاشاني المختلف الألوان والأشكال الى ارتفاع مترين. ولا شك أن هذه الرسوم بقيت في المدينة من مدة العرب. وقد بقي فيها بيت واحد قديم يقرب من المسجد الجامع لم أتمكن من زيارته لعدم وجود أصحابه فيه. ونساء المدينة محتشمات يغلب عليهن الحياء وغض البصر فاذا أبصرت واحدة منهن ترى عينيها متجهة الى الأرض ولا تحدق بنظرها فيك مطلقا ومع أن بلادهم حارة جدا لاتكاد ترى صدورهن عارية، ومن غريب ما رأيت في هذه المدينة أن سيدة كانت تتوارى وراء باب منزلها الخارجي وتنظر الى الخارج من فرجة صغيرة بين مصراعي الباب كما كنت تشاهد في الأحياء الوطنية عندنا الى عهد قريب.

وقرطبة على الشاطىء الغربي من نهر الوادي الكبير وهو في زمن شرقه لا ترى فيه غير مياه راكدة هنا وهناك على هيئة برك صغيرة تحيط بها أراض جافة الى الشاطىء الآخر. وفي قبالة المسجد قنطرة



منظر داخلى لمسجد قرطبة الجامع



طولها ٢٤٠ متر بناها يوليوس قيصر قبل الميلاد بخمسين سنة وقد جددها السمح بن مالك عامل عمر بن عبد العزيز على الاندلس ، ورممها الاسبانيون ، وهى تنتهى من الطرف الشرقى بقلعة من بناء العرب لها برجان عظيمان تسمى الى الآن بالقامة الحرة . وفيها نقطة للشرطة وفى وسط النهر قريبا من القنطرة أربعة أبنية كانت طواحين مائية مدة العرب . وقريبا منها أبنية قديمة على الشاطىء كانت فى مدتهم حمامات نهرية . وقد بنى القوم بين المسجد والقنطرة عمودا عالياً عليه تمثال القديس روفائيل حامى المدينة . لذلك تجد المدينة وسكانها ثمانون ألف نفس أكثر من نصف رجالها اسمهم روفائيل كما هو الحال فى طنطا وما اليها من البلاد فى كثرة اسم السيد. وشوارع المدينة ضيقة والشارع الذى به القهوات والمحال التجارية واسع بعض السعة ينشرون فى أعلاه خيمة تظله من شمس النهار ذكرتنى بالخان الخليلى والصاغة عندنا لولا أنها هنا أوسع وأنظف . وأكبر شوارعها هو شارع السكروية . وأترك لك الحرية فى قراءته بالتحريف الذى تريده . وعرضه على ما أرى ٢٠ متراً منها عشرة لافريزه من كل جهة . وفيه بعض الفنادق والمقاهى ، ومبانيه فى الغالب على الطراز الفرنجى . أما الأبنية التى هى خارج المدينة فليست بهذا ولا بذاك ويكثر حولها التراب ممتدا الى مسافة بعيدة مما يدل على أنها قد كان فيها أبنية قديمة محتها يد الأيام .

ويظهر أن رجال المدينة عملهم قليل ، لذلك ترى القهوات على كثرتها عامرة غاصة بهم طول النهار وأظن أن لشدة الحرارة أثراً فى ذلك ويكفى أن اقول لك إنى كنت أدخل الحمام ثلاث مرات فى اليوم فى هذه المدينة ،

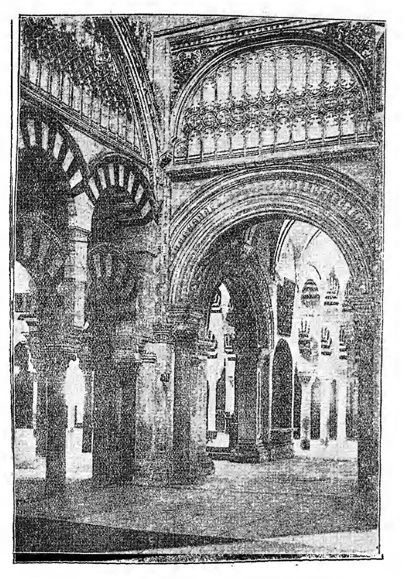
وكنت أجلس فى الماء البارد أكثر من ساعتين وقت الظهر . وفى هذه الأثناء تذكرت المرحوم داود باشا مدير قنا لعهد اسماعيل وكان يقضى غالب يومه فى فنطاس ممتلىء بالماء . ومن دونه الختم : فاذا كانت أوراق هامة أتى رئيس الكتاب (الباشكاتب) وختمها وانصرف الى سبيله . ولكن أين قرطبة من قنا وفيها أشجارها ونيلها يلطفان من شدة حرارتها كثيراً ولو بعد غروب الشمس .

ولقد كانت قرطبة مدة العرب جنة زاهرة وروضة ناضرة لنظام الرى الذى أحدثه العرب فيها فلما استولى الفرنجة عليها سنة ١٢٣٦ م طردوا أهلها وجعلوها حصناً على حدود مملكتهم وأهملوا ترعها وخلجانها وكذلك الماء الذى سيره العرب الى قصورها من الجبل . وبذلك أصبحت هذه المروج النضرة قفاراً لا يسكنها الا البوم ولا تسير فيها الا لفحات السموم . وكان حالها كحال العراق الذى بعد أن كان جنة الأرض مدة العباسيين أصبح بعد أن دالت دولتهم صحراء لا نبات فيها ولا زرع، ولا يسكنه الآن غير قوم من العرب الرحل الذين ينتقلون وراء الكلأ :

ولا شك أن البلاد تسعد أو تشقى بأهلها

وإذا نظرت الى البلاد وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وقد كانت الدولة العلية فى أواخر أيامها فكرت فى وضع نظام للرى فى العراق واستقدمت المستر ويلكوكس المهندس الشهير بمصر فذهب الى العراق ومعه نخبة من المهندسين المصريين وبعد أن وضعوا له النظام الوافى بالغرض أهملته الدولة لكثرة النفقات التى تلزمه ، ولا تزال رسومه على ما أظن فى خزانة وزارة النافعة التركية (الاشغال) الى الآن .



منظر داخلى للمسجد الجامع بقرطبة

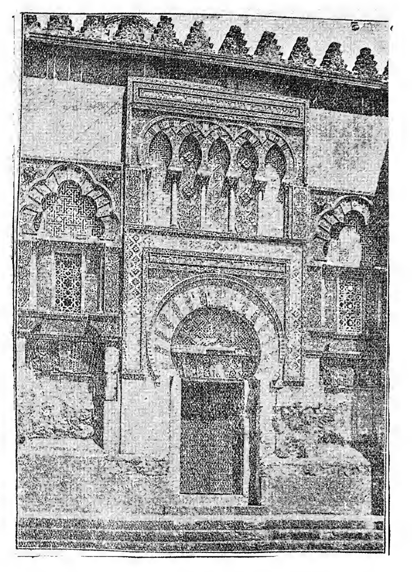


ولعل الانكليز وقد اصطلحوا مع الترك على الموصل وصار العراق بحدوده الجديدة فى أمن من الأتراك ومناوآتهم يعملون على تنفيذ هذا المشروع فيرجعوا الى العراق شبابه الأول ورفاهيته المنصرمة وأن كانت هذه الأمنية مما يهدد مصر فى كيانها الزراعى (وهو كل شيء فيها)، وخاصة بعد المكوار ، ومشروع جبل الأولياء ، ونظام الرى الذى يراد عمله فى سواكن والأريترة ، وهو المتفق عليه بين الانكليز وايطاليا على حساب الحبشة ومصر ، فلا يعلم الا الله ما يكون مخبوءا وراء هذا كله لبلادنا . وعلى كل حال ليس للفلاح المصرى مخلص من كل هذه المهددات لحياته غير اهتمامه وعنايته بترقية زراعته حتى ترجع إليها شهرتها الأولى ، ويرتفع القطن المصرى الى رتبته التى كانت له منذ عشرين سنة بحيث لا يعدله قطن أية بلاد أخرى

وبهذا وحده تخلص مصر من جميع المهددات التى تكتنفها من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ولا سيما اذا لاحظنا أن الاتراك يفكرون فى تعميم زراعة القطن فى بلادهم وأظنهم قد تفرغوا الآن للعمل فى أمورهم الداخلية بعد أن صفوا كل مسائلهم الخارجية أو جلها . وأن الأسبان من جهة أخرى يزاولون التجارب العديدة لزراعة القطن فى بلادهم وقد استقدموا فعلا بعض المصريين لهذه الغاية ومكان هذه التجارب الآن بلنسيه واشبيلية ولكنهم لم ينجحوا فيها لشدة حرارة أسبانيا صيفاً وللتغيرات الجوية الفجائية التى قد تنتقل بالجو من حار الى بارد من غير وسط بينهما فى جنوب هذه البلاد وخاصة أيام شهر سبتمبر

للعبرة والتاريخ

فى زمن الوليد بن عبد الملك دخل العرب أرض اسبانيا فاتحين سنة ٩٢ هـ تحت امرة طارق بن زياد ثم موسى بن نصير . ولما انتهوا بالفتح الى برشلونة عاد موسى ومعه طارق الى المغرب ومنها الى المشرق بعد أن ولى عليها ابنه عبد العزيز بن موسى بن نصير . وما زالت تختلف عليها الولاة من قبل بنى أمية ويخطب لهم فيها الى أن انتهى حكمهم فى المشرق سنة ١٣٢ هـ . ومن خيرة ولاتهم عبد العزيز بن موسى وخير مايذكر به أنه أمر بانشاء ديوان للتوفيق بين الشريعة السمحة ومصالح البلاد المفتتحة ، وتشجيعه أمر الهجرة الى الاندلس فوفد عليه الناس من الشام والعراق ومصر وغيرها . وكان يقطع كل قبيل جهة من الجهات فكان ذلك سبباً فى انتشار علوم المشرق وصناعاته فى البلاد التى وفدوا اليها . ومن خيرة عمالهم أيضاً السمح بن مالك الذى نهض بالفتح الى جنوب فرنسا ومات فى حصاره لمدينة طولوشه (تولوز) . ثم عنبسة ابن سحيم الذى غزا قرقشونة و نيا وغيرهما من جنوب فرنسا . ومات عنبسة فى كمين عمل له فى جبال (البرينات) ومنهم عبد الرحمن الغافقى الذى بدأ باصلاح مافسد من داخلية البلاد ثم سار الى (أرل) وبعد استيلائه عليها سار الى (بوردو) فاستولى عليها ثم قصد (ليون) (وبيزانسون) فأخذهما عنوة . ثم قصد (تور) فدخلها فاتحاً . وهنالك قابلته جيوش النصرانية تحت أمرة قارلة (شارل مارتل) . فارتد عبد الرحمن بجيشه الى السهول التى كانت بين تور وبواتييه . وفيها حصلت بينهم



الواجهة الخارجية لأحد أبواب مسجد قرطبة



وقائع يشيب منها الولدان كاد النصر يكون فيها للعرب لولا أن صرخ صارخ فى جيوشهم بأن الافرنج قصدوا الى معسكراتهم وفيها غنائمهم. وقد يكون شارل لبعد نظره ومعرفته بالوتر الحساس فى أصحاب هذه الغنائم التى كانت تملأ السهل والوعر، أرسل الى معسكرهم فرقة من عسكره لازعاجهم على ماملكت أيديهم من الغنائم والأسلاب، أوان (البشكنس) قاموا بهذه الخدعة حتى إذا انهزمت العرب خلصوا من سلطانهم عليهم، وعلى كل حال قد حصل الاضطراب فى صفوفهم لهذه الفكرة، وبينما كان أميرهم عبد الرحمن يحاول تثبيتهم وتشجيعهم على القتال أصابه سهم فخر منه قتيلا، وهنالك وقع الخلل فى صفوفهم واختلف أمراؤهم فكانت النتيجة أن صمموا على العودة إلى اسبانيا مكتفين بما فى أيديهم من الغنائم وفى أثناء الليل تركوا معسكرهم الى الجنوب مثقلين بما كان فى أيديهم من الأموال، والعدو يضرب فى أقفيتهم إلى أن أجلاهم عن أرض فرنسا

وعندى أن الغافقى رحمه الله مع شجاعته الخارقة للعادة واقدامه الذى لا مثيل له ومعرفته بأساليب الحرب فى جميع أبوابها — كان يجب عليه قبل أن يتغلغل بجيوشه فى فرنسا أن ينفذ رأى ابن زياد فى تطهير جزيرة اسبانيا وجبال (البرينات) الى منحدراتها الشمالية من القوط (والنفاريين) وغيرهم من العناصر التى كانت لا تزال تسكن شمال الجزيرة، حتى كان يخلص بلاده من هذا العدو الذى كان يسكن منه بين البشرة والأدمة، هذا العدو الذى كان فى حال ضعفه يعمل لكل هيجان فى داخلية البلاد ينتهى غالباً باضرام نار الثورة بين قبيل وآخر من العرب، بل كان يصل تدخله الى بيت الامارة نفسه فكان يفسد بين الأخ وأخيه والابن

وأبيه ، وكانت أيام العرب كلها فى الأندلس جذوة نار لاتطفأ (وبركان) اضطرابات لايهدأ، حتى إذا صلب ريشه وقوى ساعده أخذ يحارب العرب إلى أن أخرجهم من ديارهم بحال من القسوة لاتزال تبكى لها الانسانية .

نعم كان يجب على الغافقى بعد دخوله بلاد فرنسا أن يجعل حداً لسيل هجومه قبل أن يقف الضعف الطبيعى لهذا السيل عند الحد الذى انقلب به الفتح خذلاناً والنصر هزيمة ، نعم كان يجب أن يكون لتيار انتصارات هذا الفتح العظيم حد فى بلاد قد اتسعت سهولها وتشعبت حزونها وانفسحت أمامه فيها دائرة الفتح وامتد فيها خط هجومه الى حد لم يمكنه مع قلة أساليب المواصلات فى ذلك العهد أن يحكم أمره فيه أو يدلى برأيه الى طرفيه : ومسافة ما بينهما لا تقل عن مائتى كيلو متر (بين ليون والاطلانطى) . وكان خيراً له ألا يتعدى نهر (الدوردونى DORDCGNE) بل يجعله حده الشمالى من جهة الغرب وهو على الدوام فياض بمائه لعظم المد الذى يأتيه من الاقيانوس ، وأن يجعل جبال (الأوفرنى AUVERGNE) حداً آخر الى مدينة ليون ، ويكون نهر الرون حده الشرقى الى خليج مرسيليا التى كانت فى يده ، وهنالك كان يقف فى خط دفاع أوله من الشرق مدينة ليون وآخره من الغرب مدينة رويان ROYAN . وبذلك كان يتفرغ لتنظيم البلاد التى افتتحها ويقسمها بين الفاتحين فيشتغل كل قبيل منهم بالدفاع عن ملكه ، وربما كان عدوه يحسن سكوته على وقف هذا الهجوم الذى كاد يطير بألباب أوربا هلعاً ويفتت من أحشائها جزعا . وكان شارل مارتيل يرضى بأن يقبع فى بيته ولا يلقى بنفسه فى لهيب تلك المخاطر التى كانت تتجسم أمامه هاويتها

وبذلك كانت تصبح فى يد العرب مملكة تبلغ ألفاً ومائتى كيلو متر طولا فى نحو نصفها عرضاً، ليس فيها دخيل ينغص عليهم حياتهم بسعاياته أو عدو يهدم كيانهم بخياناته .

ولقد أحدث انكسار العرب فى فرنسا قيام الثورات الداخلية فى أسبانيا الاسلامية فكانت الحروب الأهلية مستمرة أحياناً بين المضرية واليمنية ، أو بين الشامية والمضرية أو بين البربر والمولدين أو بين جملة عناصر منهم ضد آخرين مما كان سبباً فى الاضطراب العام فى الاندلس قتل فيه آلاف من المسلمين وغير واحد من أمرائهم .

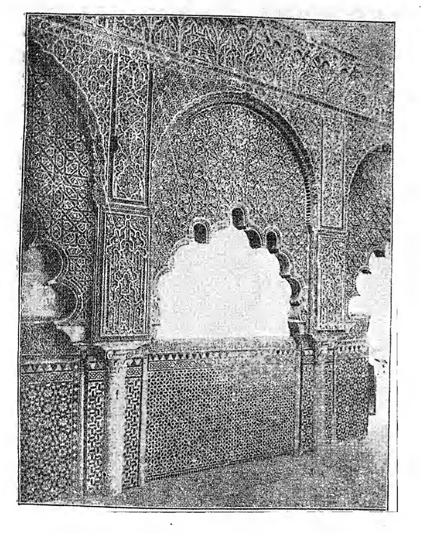
وقد ساعد على تأجج نيران هذه الثورات ضعف الخلافة الأموية فى الشرق ثم سقوطها بين يدى العباسيين بعد واقعة الزاب التى انتصرت فيها المسوّدة شيعة بنى العباس على جيوش مروان الثانى سنة ١٣٢ ﻫ . وهنالك أمعن السفاح أول خلفائهم فى تقتيل الأمويين فهرب منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك حتى دخل الأندلس فى سنة ١٣٨ وكان عاملها من قبل العباسيين عبد الرحمن الفهرى وكان من المضرية، وهو الأمير العشرون من يوم دخل العرب أسبانيا ، وفى أول ولايته اختلفت اليمنية مع المضرية على الولاية ثم اتفقوا على أن يكون من المضرية أمير لسنة ومن اليمنية أمير لسنة أخرى ، فلما انتهت سنة المضرية لم يقبل الفهرى النزول عن الولاية ، وصادف ذلك ظهور عبد الرحمن الأموى فانتصرت له شيعة الأمويين مع اليمنية وانضم اليهم البربر مع زنانة لأنهم أخواله وسار الى قرطبة واستولى عليها ، ومن ثم أخذت أطراف البلاد تبايعه واحداً بعد الآخر ، وكان يثور عليه بعضها بتحريض

الاسبانيين فكان يقضى على الثورة بهمة لاتعرف الملل ، ثم انتصر على جيوش شارلمان التى حاربته مساعدة للعباسيين كما انتصر على الجيوش التى كانت تأتى لحربه من المغرب ، وانتهى أمر البلاد كلها لطاعته فشيد بها ملكا أمويا جديداً وصل من أبهة السلطان وجلال المجد الى أرقى ما وصلت اليه العظمة الاسلامية ثروة وجاها وعلما وصناعة وزراعة وتجارة . ومن آثاره بقرطبة مسجدها العظيم وقصرها الفخم الذى لا يزال قائماً تجاه المسجد . وكان يدعو أولا للمنصور العباسى الذى كان يسميه بصقر قريش ، حتى اذا توطد سلطانه قطع ذكره من الخطبة واستمر له الحكم المطلق فى البلاد حتى توفى رحمه الله سنة ١٧٣ بعد أن عهد بالامارة الى ولده هشام .

وكان هشام أميراً جليلا عادلا ذهب مذهب العمرين فى سيرته فكان يسير فى الطرقات ليسمع بنفسه مظالم الناس ويرسل بمن يثق به الى البلاد ليتعرف أحوال عماله . وكان يأخذهم بما يقع منهم من ظلم أو حيف ، وهو الذى أدخل مذهب مالك الى الاندلس وكانوا على مذهب الأوزاعى[1] وكان يفسح لعلماء الدين فى مجلسه ، وزاد فى المسجد الذى بناه أبوه ، وجدد بناء قنطرة الوادى الكبير ، وكان رحمه الله ورعا تقيا رفيقا على الناس رحيما بهم شديداً على أعدائه ، ومات فى سنة ١٨٨هـ بعد أن أوصى بالخلافة الى ولده الحكم ، وكان يحب الصيد ويميل الى شىء من اللهو ويجالس الشعراء والأدباء والمغنين ويعمل لأبهة

---

(١) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى امام أهل الشام وكان يسكن بيروت وتوفى سنة ١٥٧



المقصورة بجامع قرطبة



الملك بكل وسائل البذخ فأكثر من المماليك الصقالبة ومن ربط الخيل المطهمة ، ومنع تدخل علماء الدين فى حكومته ، فشنعوا عليه سيرته وكثرت الثورات بتحريضهم ، ووصل بغضهم له الى أن ساعدوا الاسبان على قيامهم ضده ، وأثاروا عليه أهل قرطبة ، ولكنه شمر عن ساعد الجد وقبض على كل ثورة بيد من حديد ، وما زال فى عزة الملك وفخامة السلطان حتى مات سنة ٢٠٦ هـ . وخلفه ابنه عبد الرحمن الأوسط بعهد منه ، وكان لطيف الجانب عظيم الخلق ميالا للعلم والعلماء على اختلاف مذاهبهم وكانت أيامه خيراً على البلاد هدأت فيها الثورات الداخلية وزادت الموارد المالية ، غير أن النورمانديين هاجموا أسبانيا فى أواخر حكمه ونهبوا بعض البلاد التى فى الشمال الغربى وقامت بعض الثورات من النفاريين وزادت فتنهم فى مدة ولده محمد ثم الظافر بن محمد وعبد الله بن محمد الذين حكموا من سنة ٢٣٨ الى سنة ٣٠٠ هـ . وكان يزيد فى خطر ذلك كله تلك الاضطرابات الداخلية : وبالجملة قد كانت البلاد فى مدتهم كلها شعلة نار فكلما أطفأوها فى جهة تأجج لهيبها فى جهة أخرى حتى نهكت الحرب قوى الجند وأنفدت ثروة البلاد .

ولما مات عبد الله تولى بعده حفيده عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الاوسط وكان الناس يرقبون سقوط الأموية لقيام الثورة فى كل جهة واشتداد سعيرها خصوصاً فى جهة الشمال . فأخذ الناصر يعمل ليله ونهاره فى تجهيز الجيوش وارسالها غربا وجنوبا لاطفاء فتنة العرب ، وشمالا لمحاربة النفاريين وهو فى أثناء ذلك يدبر أمور مملكته بعقل راجح وفكر ثاقب . وقد أقام فى إطفاء نيران هذه

الثورات والوقوف فى وجه أعدائه من القشتاليين والبشكنس (البسك) وغيرهم نحو خمس عشرة سنة .

وهنالك أسعفته المقادير باختلاف ملوك الأسبان وإعلانهم الحرب بعضهم على بعض ، وأقاموا فى تيار هذه القطيعة مدة طويلة انطفأت فيها جميع الثورات الداخلية فى الأندلس بحسن سياسة الناصر وتمشت الطمأنينة بين جميع العناصر الاسلامية وحينئذ أخذ الناصر فى ترتيب داخلية بلاده وفى تنظيم جيوشه البرية والبحرية وما يقتضيه ذلك من زيادة الأسطول وتقويته ، ومن ابتداع الأنظمة التى ترقت بها مملكته فى جميع مرافقها وظهرت بها مواهبه للناس من أقصى البلاد الى أدناها فثبتت محبة الناس له لعدله وفضله وكرمه وعلمه وشجاعته وسياسته ، ووقعت هيبته من قلوبهم ليقظته وحزمه ، ولما كان فيه من المزايا التى اتصف بها حكمه بأن الحكم النهى للعرب فى الأندلس .

ولما بلغ الناصر فى سنة ٣١٧ هـ أن مؤنساً الخادم قتل الخليفة المقتدر بالله العباسى بالمشرق لم يضع هذه الفرصة : فأعلن خلافته فى الأندلس بمنشور أرسله الى جميع الجهات[١] وتسمى بأمير المؤمنين وضربت السكة

---

(١) منشور الخلافة

أما بعد فانا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسه ، للذى فضلنا به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل لدولتنا مرامه ، وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا ، وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعان من انحرافهم الينا ، واستبشارهم بدولتنا ، والحمد لله ولى الانعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه ، وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك ، اذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه ، وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه ، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ان شاء الله ، والله المستعان.

باسمه وخطب له على منابر البلاد بهذا اللقب الجديد الذى بقى فى خلفائه الى سقوط الأموية فى الأندلس

وفى سنة ٣٢٥ ابتدأ فى بناية الزهراء ولما تمت جعلها مركزا للخلافة (١) وجر اليها الماء من جبال قرطبة فى أقنية من البنــاء مرفوعة على حنايا تختلف ارتفاعا وانخفاضا حسب طبيعة الأرض (وترى شكلها بالقاهرة بين النيل والقلعة من عمل محمد على ويسمونها العيون) .

وكان لعبد الرحمن من جــلال الملك وعظيم السلطان وهيبة الذات وسامى الصفات ما زاد فى أبهة الخلافة وفخامتها: فامتدت اليه أيدى الملوك شرقا وغربا طلبا للتقرب منه. ووفدت عليه ملوك قشتالة وارغون وليون التماسا لرضاه وقدموا اليه طاعتهم وتبعيتهم وهاداه ملوك القسطنطينية ومصر وأرسلوا اليه وفودهم ليوثقوا له دعائم محبتهم ومتين صلتهم

وأرسل اليه قسطنطين كتابا رقيقا يوثق به علاقته معه ويستفزه فيه إلى حرب العباسيين حتى يسترد منهم ملك آبائه: وغرضه بذلك أن يضرب

---

(١) ابتدأ الفرنجه يعترفون بفضل الخلافة العربية بالاندلس فقد ورد بتلغراف الاهرام الخصوصية فى ٢٤ يناير سنة ١٩٢٩ ما نصه :

إحياء ذكرى الخلافة فى قرطبة. باريس فى ٢٣ يناير سنة ١٩٢٩ ورد من مدريد أن جامعة قرطبة نظمت حفلات تقام بين ٢١ و٢٦ يناير بمناسبة ذكرى مرور الف سنة على عهد الخلافة فى قرطبة وان لجنة تنظيم هذه الحفلات مؤلفة من مستشرقين مشاهير فى مقدمتهم جوليان ريبيرا والاستاذ المستعرب ميجل آزين بلاكيوس الذى نشر منذ بضع سنين كتابا عن الرواية الآلهية التى هى تأليف دانتى الجيرى اثار جدالا شديداً اذ أن الموضوع الذى كتب فيــه دانتى كان قد سبقه اليه احد كتاب العرب قبل بضعة قرون

ويقام فى اسبوع هذه الحفلات فى قرطبة معرض للفن العربى من عهد عبد الرحمن الثالث الى عهد المنصور، واقامة هذا المعرض تدل على تطور الافكار فى أسبانيا وتوسعها فى الحرية والتسامح . وقد نشرت جريدة «صوت مدريد» مقالة افتتاحية قالت فيها أن أسبوع هذه الحفلات لايتناول ذكرى تنحصر فى قرطبة فان عهد الخلافة لم يكن ازهر وازهى عهد فى تاريخ قرطبــة وحدها بل أن اسبانيا كلها كانت فى ذلك الزمن فى مقدمة المدنية

المسلمين بعضهم ببعض حتى يضعفهم بسلاحهم ويقوى هو بضعفهم ويكون فى أمن منهم جميعاً ، ولكن دسيسته لم تجز على الناصر بل أرسل اليه هدية نظير هديته مع سفير خاص . وبعد ثلاثين سنة من حكمه ظهرت معالم الثروة فى جميع طبقات البلاد ، وكان دخل المملكة فى هذه الآونة حسب ما أجمعت عليه التواريخ العربية المعتبرة ما نكتفى منه بذكر ما جاء فى تاريخ ابن خلدون قال :

« خلف الناصر فى بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف ألف — مكررة ثلاث مرات [١] . ثم قال : وقال غير واحد أنه كان يقسم الجباية

---

(١) لم يذكر ابن خلدون أكان ما تركه الناصر من الدنانير أم من الدراهم (وان كان غيره قيدها بالدينار) ، فاذا كان من الدنانير (وقد يقدرون الدينار بنصف الجنيه المصرى الحالى) فيكون ما تركه الناصر فى خزائن الاموال الفين وخمسمائة مليار من الجنيهات المصرية . واذا كان من الدراهم وكان الدينار فى القرن الرابع الهجرى يساوى تقريبا ١٧ درهما فيكون ما تركه الناصر نحو ثلثمائة مليار من الجنيهات . وهو فى كلتا الحالتين لا يتصوره العقل وأظن أن هناك ألفا مكررة وان ما أراد ابن خلدون أن يقول هو :

٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ فاذا كانت من الدنانير يكون ماخلفه الناصر مليارين ونصف مليار من الجنيهات المصرية وان كانت من الدراهم يكون ما تركه ثلثمائة مليون جنيه وهو ما يمكن أن يتصوره العقل.

غير أن من يطلع على ما ذكره ابن خلدون وغيره من وصف هدية ابن شهيد الى الناصر وكان من وزرائه مما يدل على عظيم ثروة الرجل يرى أن ثروة الدولة على هذا القياس ربما بلغت الحد الذى ذكره المؤرخون من العرب ونحن نتخيل أنهم مبالغون فيها . واليك بعض ما جاء فى هذه الهدية :

٥٠٠ الف مثقال من الذهب ، وما قيمته خمسمائة الف دينار من سبائك الفضة ، و ٤٠٠ رطل من التبر ، و ٤٠٠ رطل من العود العالى (لعلها القاقلى) ، ومائة أوقية من المسك ، ومائتا أوقية من العنبر ، وثلثمائه أوقية من الكافور ، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب كلباس الخلفاء ، ومائة جلد سمور ، و ٤٨ من الملاحف لكسوة الخيل من الحرير والذهب ، وقرية تغل آلافا من امداد الزرع ، ومن الصخر للبنيان ما اتفق عليه فى عام واحد ثمانون الف دينار (ولعل ذلك أيام اشتغال الناصر ببناء الزهراء) . وعشرون ألف عود من الخشب قيمتها خمسون ألف دينار وغير ذلك من السرادقات والبسط المختلفة الألوان والسلاح والنبال والخيل المطهمة والبغال والوصائف والمماليك والجوارى الى آخر ما قالوا ؟ وكانت هذه الهدية سببا لابلاغ الناصر رزق ابن شهيد الى ٨٠ ألف دينار فى السنة ؟

وقد قدر المؤرخ نيكلسون ايرادات الاندلس مدة الناصر بمبلغ ٦٢٤٥٠٠٠ وقدر ما كان فى بيت المال سنة ٩٥١ م بعشرين مليون جنيه

أثلاثا : ثلثا للجند وثلثا للبناء وثلثا مدخراً . وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى ثمانيـة وأربعماية ألف وخمسة آلاف ألف دينار ومن السوق والمستخلص خمسة وستين وسبعماية ألف دينار وأما الأخماس والغنائم العظيمة فلا يحصيها ديوان »

وكان الناصر عالمـاً فاضلا عاقلا بعيد النظر في السياسة والرياسة شجاعاً ناهضاً برقيّ أمته ساهرا على شؤون دولته وكان كاتبا شاعراً كبير الهمة عظيما في نفسه كبيرا في كرمه ومن قوله :

ما كل شيء فقـدت إلا عوضني الله عنـه شيّاً
إني اذا مامنعت خـيري تباعد الخـير من يديّاً
من لي نعمة عليـه فانهـا نعمـة عليـّاً

وهذا لعمري أرقى درجات الكرم والشجاعة ، وقد وجد بخطه أن أيام سروره كانت أربعة عشر يوماً وهي يوم كذا من سنة كذا ويوم كذا من سنة كذا . الخ وتوفي الناصر رحمه الله سنة ٣٥٠ هـ بعد أن حكم خمسين سنة وطد فيها دعائم الخلافة لولده الحكم الذي تولى بعده بعهده اليه فثارت عليه ملوك النصرانية لأول حكمه فحاربهم بنفسـه واستولى على بعض بلادهم ، فطلبوا صلحه على ما كانوا عليـه مدة والده . ثم أرسل جيوشه الى نواح كثيرة شمالا وغربا ففتحوا مدناً كثيرة منها قُلُمْرِية من بلاد (البشكنس) وأرسل أسطوله بقيادة أمير البحر عبدالرحمن بن رماحس الى مياه البرتغال فطرد النورمان الذين كانوا يهددون السواحل . وأجاز جيوشه الى العدوة فنزل له الادارسة عن ملـكهم فيها وفي الريف

وكان الحكم يميل إلى السلم حتى يتفرغ لنشر المعارف والعلوم المختلفة

بين أمته . وكان يرسل إلى جميع البلاد شرقا وغربا لشراء الكتب النادرة بأثمان عالية حتى جمع منها مبلغاً عظيما ، وكون دار كتبه الشهيرة التى كان بها ٤٠٠ ألف مجلد من ثمين الكتب ، وكانت على أغلبها تعليقات بخطه . ورتب لها الخدم والمنيّرين تحت أمرة مولاه تليد الخصى ، وكانت لخزانة دواوينه وحدها أربعة وأربعون فهرسا . وفى كل فهرس عشرون ورقة ليس فيها إلا أسماء الدواوين . وأقام الحكم للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت اليها بضاعته من كل قطر . واستمرت هذه المكتبة ينتفع بها الناس عامة إلى أن تبددت وبيعت بأرخص الأثمان مدة الفتنة زمن هشام المؤيد بأمر الحاجب واضح مولى المنصور بن أبى عامر .

وكان الحكم عالما فاضلا بل كان أعلم بنى أمية على الاطلاق لأن والده استحضر لتثقيفه جلة العلماء من الشرق والغرب ومنهم أبو على القالى . وكانت كل لذته فى مطالعاته ومذاكراته مع العلماء فى مختلف العلوم . وفى مدته نفقت سوق العلم والعلماء الذين أصبحوا مشمولين باحسانه وفى حمايته وتحت رعايته ، فظهرت آثارهم فى كل علم ، وترجمت كتبهم إلى الاسبانية أو اللاطينية : وكان كثير من أهل البلاد المسلمين واليهود على علم تام بهما ، فينقلون العلوم الأجنبية إلى العربية ، كما كان كثير من القوط وغيرهم يعرفون لغة العرب لضرورة علاقتهم بالدولة العربية فى محرراتهم ومعاهداتهم وسفاراتهم وغير ذلك ، فكانوا يترجمون الكتب العربية الى لغاتهم . ومن هنا انتشرت مدنيـة المسلمين وعلومهم فى ممالك الفرنجة فاستفادوا منها كل الفائدة ، وجعلوها مصدراً أخذوا عنه علومهم المختلفة من رياضيـة وفلسفية وزراعيـة وفلكية وطبية

وكيمياوية . وبالجملة أنَّ الدولة الأندلسية العربية كانت واسطة فى نقل علوم العرب من شرقية وغربية إلى أوربا فبنوا من مادتها شيئاً كثيراً من علومهم ومدنيتهم الحالية . ولولا ذلك لكانت أوربا متأخرة بمئات من السنين عن الدرجة العلمية التى وصلت اليها الآن .

وما زال الحكم فى أبهة الخلافة وجلالها تتقرب الملوك اليه بالهدايا والسفارة من كل جهة حتى مات سنة ٣٦٦ بعلة الفالج . وكان الأمر من بعده لأخيه المغيرة فعمل وزيره المصحفى بتدبير الحاجب بن أبى عامر على الفتك به من ليلته ، وبذلك خلا الجو لهشام بن الحكم من السيدة صبح البشكنسية التى كان لها الفضل فى ترقية ابن أبى عامر وحظوته عند الحكم حتى وصل إلى درجة الوزارة . واجتهد ابن أبى عامر فى أخذ البيعة له وهو لم يتجاوز سن العاشرة . وأصبح يعمل باسمه فى رسوم الخلافة . وباستشارة والدته قضى على جميع مناوئيه وحاسديه من رجالات الدولة . وكان بدهائه يقتل بعضهم بسلاح بعض ، حتى أصبح صاحب الحول والطول والكلمة النافذة ، وهنالك استبد بالسلطة وحجر على المؤيد فى قصره بحيث لا يراه أحد ، وأخذ يكوّن لنفسه عصبية من جند البربر والصقالبة وغيرهم . وكان يقطع الألسنة عنه بكرمه وحسن ادارته وجميل سياسته ، وتسمى بالمنصور وأمر بأن يحيا بتحية الملوك . وقد كثرت غزواته بحيث بلغت سبعا وخمسين غزوة ، وكان يقودها بنفسه ، ويعود منها منتصراً غانما فيفيض على الناس مما أفاء الله عليه فيأسرهم باحسانه . وكان المنصور نصيراً للعلم محبا للعلماء ، وكان يفسح لهم فى مجلسه ، وكان له يوم فى الأسبوع للاجتماع بهم للمذاكرة فى مختلف

العلوم ، بل كان يستصحب الكثيرين منهم فى غزواته ويستأنس برأيهم ، فكانوا يذيعون عنه دينه وورعه وعدله وفيضه وبره ويتحدثون عنه بكل محمدة . ومن دهائه أنه أمر سامحه الله بحرق بعض كتب الفلسفة تقربا للعامة ، وكان ذلك يزيد فى سلطانه ويؤكد من محبته فى قلوب الناس

وبنى المنصور الجهة الشمالية من الجامع الأموى بقرطبة . ثم قنطرة على الوادى الكبير وأخرى على نهر (شنيل) وبنى قصر الزاهرة وجعله محل سلطانه وحكمه بعد أن جعله من الفخامة والجلالة لا نظير له.ووصلت جيوشه الى قلب المغرب الأقصى بقيادة ولده عبد الملك وخطب له على منابره .

وعلى الجملة قد كان المنصور بن أبى عامر من أكبر ملوك الأندلس سلطانا وعلما وفضلا وأحسانا وله فى سياسته القدح المعلى وفى أدارته المثل الأعلى . وكان الناس يتحدثون فى جميع الجهات بما كان له من جميل النعوت وعظيم الصفات وبعد النظر وثاقب الفكر ، وكان كاتباً شاعراً بليغاً ومن قوله .

رميت بنفسى هول كل عظيمة - وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى الاجنان مشيع - وأسمر خطى وأبيض باتر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة - وفاخرت حتى لم أجد من يفاخر

وما زال المنصور فى أبهة الملك وعظيم السلطان حتى مات رحمه الله فى غزوة من غزواته سنة ٣٩٢ هـ ودفن فى مدينة سالم : وهى مدينة على الطريق الحديدى بين مجريط وسرقسطة وكتب على قبره :

آثاره تنبيك عن عزماته - حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله - أبداً ولا يحمى الثغور سواه

وقام بأمر الحجابة بعده ولده عبد الملك بعهده اليه فسار على سيرة أبيه من الحجر على المؤيد واستبداده بأمور الملك ، وكان شهما كبير الهمة عظيم الهيبة ومات بعد سبع سنين من حكمه ، كانت كلها خيراً وبركة وغزوات موفقة .

وخلفه أخوه عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر ، فشدد في الحجر على المؤيد ، وأرسل اليه من هدده في حياته حتى كتب اليه عهده بالخلافة من بعده ، وأشهد على ذلك رجالات الدولة فاغضب ذلك بقية الأمويين من أحفاد الناصر ، وأثار عوامل الحقد في قلوب المضرية ومن كان من شيعتهم فقاموا بالثورة وبايعوا محمد بن عبد الجبار بن الناصر ولقبوه بالمهدى ، وكان عبد الرحمن بن أبي عامر في غزوة له فلما سمع الخبر عاد أدراجه فانصرف عنه الناس لسوء سيرته وقتله بعضهم وذهب برأسه إلى المهدى : وبه طويت صحيفة آل بنى عامر . ومن هذا الوقت اشتعلت نار الفتنة فى الأندلس ، وأصبحت الخلافة محل وثوب كل من استأنس بحق فيها من بقية الأمويين و بنى حمود حتى انتهى أمرها الى هشام بن محمد الملقب بالمعتمد وكان ضعيفاً فخلعه الجند فى سنة ٤٢٢ ، فقر الى لاردة وهلك فيها سنة ٤٢٨ وبه انقضى أمر الأموية من الغرب كما قضى عليها فى الشرق . وبالجملة قد كانت بلاد الأندلس كلها فوضى من سنة ٤٠٠ الى سنة ٤٢٣ ﻫ .

ولقد تولى الخلافة فى هذه المدة اليسيرة من الأمويين ستة هم : المهدى ، والمستعين ، والمرتضى ، والمستظهر ، والمستكفى ، والمعتمد . وتولاها من بنى حمود فى هذه المدة ثلاثة : على ، والقاسم ، ويحيى . وانتهى أمر البلاد الى تفرق الجماعة وانقسامها الى ملوك الطوائف . وكان نفر من بنى

حمود لا يزالون يتقاتلون على الخلافة الى سنة ٤٦٠ . وربما كان منهم أربعة يحكمون فى منطقة صغيرة لا تزيد على ثلاثين فرسخاً كلهم يحمل لقب الخلافة ومنهم الواثق ، والمتأيد ، والمهدى ، والمستعلى ، حتى قال فى ذلك ابن شرف القيروانى أبياته المشهورة :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ألقاب معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صورة الأسد

وفى أثناء هذه الفتنة هدم الثائرون قصور الخلافة بما فيها الزهراء والزاهرة ، ونهبوا ما فيها من الأموال والتحف التى لا يتيسر تقديرها بل ولا تصورها الا لمن قرأ . وقال مؤرخو العرب عنها إنها من الحقائق التى هى أشبه شىء بالقصص منها بالتاريخ . وانتهت هذه الفتنة بمحو الخلافة وبتقسيم البلاد بين ملوك الطوائف .

وكانت قرطبة كالكرة يتلقفها كل غالب ثم آلت الى حكم ابن جهور حينما انقسمت الاندلس الى ملوك الطوائف وما زالوا بها ولم يتعدوا لقب الوزارة حتى غلبهم عليها المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية . وآل أمر ملوك الطوائف الى أن كانوا يدفعون الجزية لملوك الاسبان خوفا منهم على ما فى أيديهم . وكلهم كان يخطب ود ابن عباد ويطلب مرضاته لقوته ومنعته . ولم يطل ملكهم حتى تغلب عليه المرابطون فى سنة ٤٨١ ثم الموحدون سنة ٥٣٩ . وفى أواخر حكمهم أخذ ملوك الاسبان يستولون على أطراف البلاد ونواحيها ، حتى لم يبق للعرب غير غرناطة التى بقيت فى يد بنى الأحمر الى آخر القرن التاسع الهجرى ، ثم آل أمرهم الى أن طردهم الاسبان من الأندلس مما تراه مفصلا فى مكان آخر

الرسالة الرابعة

من قرطبة الى اشبيلية

المسافة بين هاتين المدينتين ١٣١ كيلو متر يقطعها القطار فى أكثر من أربع ساعات فى طريق عامرة بالمزارع الواسعة يتخللها بعض خلجان الماء ويسمونها مما يلى قرطبة بالمرج . وتكثر فى هذه الطريق القرى الكبيرة . على الرغم من كل هذا ترى الحر شديدا ، حتى اذا وصلت الى اشبيلية وجدته أشد ولا يكاد يحتمل خصوصاً من الظهر الى ما بعد غروب الشمس .

اشبيلية

والعرب تسميها حمص تشبيها لها بحمص الشرقية فى عمرانها وحضارتها وكانت فى مدتهم أحسن مدنهم عمرانا وثروة وعلما وصناعة وخاصة فى مدة المعتمد بن عباد : فقد كانت فى زمنه عروس المدائن الاندلسية والشمس التى تنبعث منها أشعة العظمة والثروة والفخامة الى جزيرتها . وبالجملة كانت اشبيلية مدة ملوك الطوائف أوسع بلادهم ملكا وأكبرها قوة . وهى الآن مدينة عظيمة جدا بل هى أحسن مدينة فى جنوب اسبانيا بعد مجريط ، وعدد سكانها ١٥٠ الف نفس ، وهو أقل من نصف عددهم مدة العرب . ويغلب الشكل العربى فى كثير من مبانيها الا أنها خالية فى الغالب من الرياض الصغيرة التى تجدها بحالة عامة فى بيوت قرطبة . وقد دخل على شكل بعض أبنيتها شىء كثير أو قليل من الرسوم الافرنكية . وعلى كل حال هى مدينة لاتزال عربية الى الآن والى الغد .

لانهم لو كانوا رأوا أن هذا الشكل غير مناسب لوضع المدينة ولكثرة حرارتها لاستبدلوا به غيره من زمن بعيد كما ترى فى مدريد وبرشلونه .

وهناك قسم من أقسام اشبيلية لا يزال على ما كان عليه مدة العرب، وشوارعه ضيقة جدا لا تسع غير عربة واحدة تسير فيه وان قابلتها عربة أخرى فلا بد لأحداهما أن تتقهقر حتى تجد الثانية مخلصا للمرور . وقد قررت بلدية المدينة الاحتفاظ بهذا القسم على حاله والامتناع عن ادخال أىّ اصلاح عليه ابقاء على صورة أصلية للنظام العربىّ القديم . وفى هذا القسم دار بنتها الجمعية الاسبانية الامريكانية على النظام العربىّ وجعلوها مزاراً للسائحين : والحق انها جميلة جدا فى نظامها وان لم يكن فيها شيء من الفن .

وشوارع المدينة بوجه عام ضيقة وكثيراً ما ترى فى أعلاها مظلات من نسيج القلاع لتحجب الشمس عن أرض الشارع وعن الدكاكين التى فيه . وترى المحال التجارية منتشرة هنا وهناك فى شوارع المدينة، وبعضها منعت العربات من المرور فيه كما هو الحال فى الخان الخليلىّ بالقاهرة . وأحسن هذه الشوارع وأكثرها حركة هى التى تتصل بميدان القديس فرديناند : وهو ميدان لا بأس به زرعت على محيطه الأشجار وفيه أكبر فنادق المدينة . ويقرب من هذا الميدان (الكاتدرائية) وهى الكنيسة الجامعة التى بنيت مكان المسجد الجامع الذى كان بهذه المدينة قبل استيلاء سان فرديناند عليها فى سنة ١٢٤٨ م . ويقرب من هذه الكنيسة القصر (الكازار) وهو من أفخم ما يرى الراءون ، وبطبيعة الحال كان المسجد يتناسب معه فخامةً ورواءً . ولم يبق منه غير صحنه ومناره .

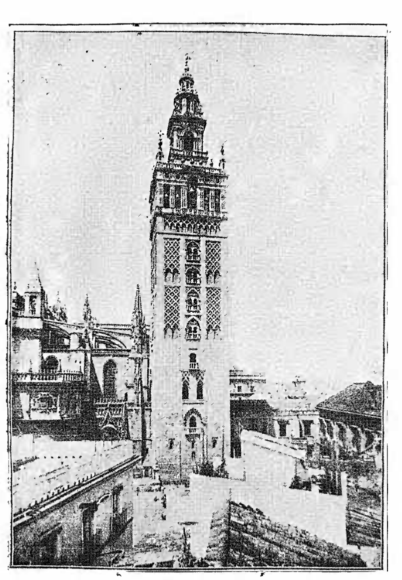
وقد لجأت الى هذه الكنيسة من شدة الحر . وقديما كان الناس يلجأون الى بيوت العبادة . فدخلت من بابها الغربي الى صحن واسع فى وسط بركة من الرخام كانت للوضوء . وهذا الباب على شكل باب مسجد قرطبة النحاسيّ الكبير لولا أن قطعه النحاسية القائمة مكتوب فيها بالعربى لفظ الجلالة بأوضاع مختلفة .

وفى زاوية الصحن الشرقية مما يتصل بالكنيسة تلك المنارة العظيمة التى يسمونها الآن (La Tour de Giralda) وترجمتها منارة لعبة الهواء .

وهذه المناره بنيت على شكل منارة مسجد الكتبية بمراكش (أو أن منارة مسجد الكتبية بنيت على شكلها وهو الأصح) . وأمر ببنائهما السلطان المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من الموحدين (وهو الرابع من ملوكهم) فى أواخر القرن الثانى عشر الميلاديّ وكان فى أعلاها أربع تفافيح كبيرة من النحاس غلفت بطبقة من الذهب بلغت نفقاتها وحدها أكثر من مائة الف دينار . فأزال القوم هذه التفافيح بعد استيلائهم على المدينة وبنوا مكانها على الدائرة التى كان يدور عليها المؤذن أبراجا للنواقيس وضعوا فوقها تمثالا ارتفاعه أربعة أمتار وزنته ١٢٨٨ كيلو جرام ، بحال يتحرك فيها مع الرياح حيث سارت ومنها أتت تسميتها بلفظ جيرالدا . (لعبة الهواء) وهذه المنارة مربعة الشكل وكل ضلع من أضلاعها من جهة القاعدة طوله ١٣٫٦٠ مترا وبناؤها من الطوب الأحمر وسمك حوائطها متران ونصف متر . وفيها إلى أعلى كثير من الفتحات التى تسمح بنفاذ الهواء والنور الى داخلها . وارتفاعها ٧٠ مترا ، وهو ما بقى من عمل العرب فيها . ويصعد إلى قمة المنارة بطريق مائل فى

محيطها من الداخل يسع فارسين يسيران أحدهما بجانب الآخر ، وترى من أعلاها منظراً جميلا جداً للمدينة. وقد تثبت فى سقف دائرة الصحن مما يلى المنارة قبالة باب الكنيسة الداخلى تمساح (يقال أنه هدية من ملوك مصر)، وسن فيل كبير ، وعصا ، ولجام : ويقولون أن التمساح رمز للتروى ؟ والسن للقوه . والعصا للعدالة . واللجام للوازع النفسانى الذى يقف بصاحبه عند حده : وهى وان كانت ذات مغزى جميل لم أفهم معنى لوضعها هنا .

دخلت الكنيسة الجامعة التى بنيت مكان الجامع الذى يمكنك تقدير فخامته من شكل منارته ومما كانت عليه فى أول وضعها . وأول ما صادفنى مصلى الى جانب المنارة فى صدره ناووس القديس فرديناند ،وهو من الفضه الخالصة وفيه نقوش جميلة جداً ،وفى وسطه من جانبه الظاهر دائرة من الذهب شكلها بيضى نقشت فيها صورة فرديناند على حصانه وأمامه ملك العرب يقدم اليه مفاتيح المدينه ! ! والى جانب هذا المصلى من اليمين قبر زوجه والى اليسار قبر ابنته التى ينسب اليها هدم المسجد وبناء هذه الكنيسة مكانه . وبجوار هذا المصلى غرفة وضعت فيها جواهر الملك وتاجه وسيفه . وفى جانب آخر من هذه الكنيسة قبر كرستوف كولومب الذى كان مصدر حياة اسبانيا التجارية وعظمتها الاستعمارية: وعلى قبره الرخامى أربعة تماثيل كبيرة من المرمر تحمل نعشه الرخامى على قدره الطبيعى : وهى تماثيل ملوك الممالك الأربع التى تألفت منها الوحدة الاسبانيـة وهم : ملك قشتالة وملك اراغون وملك ليون وملك نافاريا . ولم يدهشنى أن هؤلاء الملوك يحملون نعش هـذا الرجل الذى كان على



« لاجيرالدا » وهى منارة المسجد الجامع باشبيليه الذى جعلوه كنيسة



يده ظهور هـذا العالم الجديد (امريكا) ، وأصبحت إحدى دوله المتحدة وبين شفتيها كلمة اسعاد دول العالم واشقائها وقد تم لها الآن دور الظهور على جميع الامم بما لها من ثروة واسعة وجاه عريض وقوة هى قوة المـال والعلم والاختراع : وذلك ببركة ما فى بلادها من المواد الأولية من ذهب وفضة وحديد ونحاس وقصدير وفحم وبترول وغير ذلك ولا أدرى هل تقدر امريكا هذا الرجل العظيم قدره وتخلد ذكره .

وعلى كل حال هـذه الكنيسة غاية فى الفخامة ولا بد أن يكون القوم قد أزالوا المسجد مع جلالته وعظيم فخامته ، حتى يقضوا على كل فـكرة تحوم حول رجوع المدينة الى المسلمين : مما ترى فيـه التعصب الدينى ممثلا كل التمثيل . على أن مسجداً فخما كهذا لو بقى لـكان فيه فائدة كبيرة للعلم والفن والتاريخ : كما هو شأن مسجد قرطبـة الذى رجعوا فيه الآن الى غسل الأغلاط التى ارتكبوها فى ستر نقوشـه وتغيير بعض معالمه .

وهنا أقول ان تحويل الكنائس الى مساجد أو المساجد الى كنائس يجرح قلوب المغلوبين بما تبقى ندبة التحامه طول الدهر ، وتنتقل من الآباء الى الأبناء ومن الأجداد الى الأحفاد . وأصل مصائب الدولة العثمانية وتحرش نصارى أوربا بهـا هو تحويلها كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد . واذا كانت المساجد كلها لله والدين كلـه لله فخير للناس أن يتركوا للناس حريتهم فى تعبدهم . والانـكليز لم ينجحوا فى استعمارهم إلا باتباعهم هذه الطريقة واحترامهم لعقائد المستعمرين ؛ على أن لهم فى مصر زلة لا يريد الشعب أن ينساها وهى إطلاقهم الرصاص على الأزهر وقت

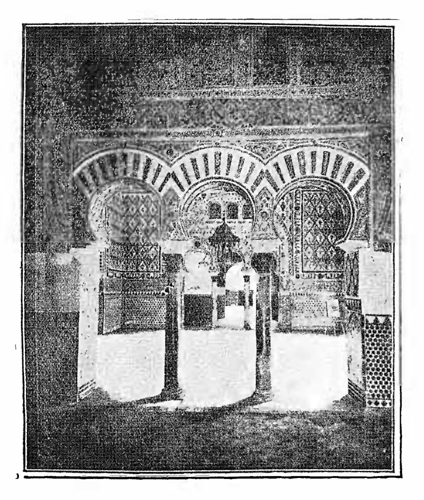
الفتنة كما أنه لايريد أن ينسى لنابليون بونابرت ربطه الخيل فى صحن الأزهر على أثر ثورتهم على الفرنسويين أيام احتلالهم لمصر .

السكازار (القصر)

السكازار أو القصر هو بناء كبير يدخل اليه من بهو واسع مسقوف فى وسطه صفان من أعمدة الرخام وليس فيه شىء من الزخرفة ولا من الفن ، وتنتهى من اليمين الى دهليز يوصل الى باب فى يمينه ، له حوش فيه بحيرة صغيرة من الرخام تحيط بهـا زهرية جميلة . ومن دونها قاعة عالية مربعة الشكل كل ضلع منها عشرة أمتار وارتفاعها نحو ١٥ متراً قامت عليها قبة من الخشب الجميل الصنع وحوائطها منقوشة من أعلاها بنقوش جصية ، فيها (مقرنصات) جميلة مختلفة الشكل وفى أعلاها مناور متصلة بالجو مباشرة للنور والهواء ، وفى كل جهة ثلاثة مناور . وفى ظنى أن هذه القاعة كانت مكان انتظار الزوار .

وينتهى ذلك الدهليز بباب إلى حوش كبير ، ومن جهته اليسرى باب عظيم من الخشب البديع الصنع يبلغ ارتفاعه نحو ٨ أمتار . ووجهة هذا المدخل تبلغ ١٥ مترا طولا فى ٢٥ مترا ارتفاعاً وكلها بالنقوش الجصية الجميلة ، تتخللها الأدهنة المختلفة وقد وشيت بالذهب ممـا جعل لها منظراً هو نهاية الفخامة . وربما كانت هذه الوجهة فذة فى بابها نادرة فى مثالها .

ومن وراء هذا الباب بهو بديع جداً فيه كثير من النقوش المختلفة وهو يفضى إلى حوش يكتنفه ممشى يحيط به أربعون عموداً من الرخام تحمل حنايا يقوم عليها سقف الممشى. وهنا ترى النقوش الغريبة فى السقف وحوائط الحوش ، وتجد فى أسفلها (وزرة) من القاشانى الجميل على



قاعة السفراء باشبيلية



ارتفاع نحو مترين . وفى هذا الحوش باب يؤدى إلى قاعة الاستقبال .

وقاعة الاستقبال ويسمونها قاعة السفراء مربعة الشكل وارتفاعها نحو ٢٠ متراً وكل ضلع منهـا لا يقل عن ١٢ متراً قامت عليها قبة من الخشب البديع الصنع من تحتها مناور فى كل جهاتها ، ومن دونها ثلاثة أطباق متصلة بالدور العلوى من القصر ، وفى كل جهة من جهاتها ماعدا جهة الباب عمودان من المرمر يحملان مع الحائط الذى يليها مقصورة جميلة . ويحيط بهذه القاعة خلف هذه المقاصير بهو عظيم : والقاعة والقبة والأبهاء الثلاثة آيات من آيات الله فى جلالها وفخامتهـا وبديع صنعتها وجميل نقوشها الذهبية التى تتخللها الأدهنة الحمراء والزرقاء والخضراء : عـا يقف أمامها الأنسـان مبهوتاً : فبينا يدهشك هـذا الجدار بعظمته يجذبك الجدار الآخر بفخامته ، فيستهويك الثالث بكمال جمـاله ، فيستلفتك السقف ببديع مثاله. وبالجملة ليس فى الامكان أن يتخيل الجنان أو يصور البيان مقدار مافى هذا المكان من العظمة والفخامة .

وهذا القصر على الشـكل الذى بناه عليه العرب خصوصاً فى زمن ابن عباد ، لولا أن مساحته الآن على نصف ما كان عليه فى مدتهم، لانه كان يتصل بمنارة الذهب الموجودة على نهر الوادى الـكبير ممـا يلى (الجمرك) المـكس وبينهما الآن مبان واسعة . وينسبون شيئاً من أبنيته الحالية إلى الملك (بترو) الأول الملقب بالقاسى . ولـكنهم لم يحددوها لنا . وعلى كل حال أن هـذا الملك استقدم عمالا من العرب بنوا القسم الذى بناه فى القصر أو قاموا بالاصلاح الذى أتمه فيه وذلك من سـنة ١٣٥٠ الى سنة ١٣٧٠ م

وقد حدث فيه اصلاح وترميم أيضاً فى زمن فرديناند وازابلا .

وفى سنة ١٦٢٤ أصلحه جميعه فليب السادس بوساطة فنانين من البقية التى بقيت فى البلاد من العرب وكان نصيبهم بعد ذلك أن طردهم من أرض أسبانيا بحال شنيعة حتى تخلو البلاد من شىء اسمه عرب : وكان جزاؤهم جزاء سنمار بعد أن بنى للنعمان قصر الخورنق ، فلما رآه من العظمة بمكان أمر بيده فقطعت حتى لا يبنى مثله لغيره ، ولكنه عوضه عنها بأموال جمة حفظت حياته وحياة أسرته : وهذا العمل وأن كان قاسياً عمل فردى وفيه شىء من العوض : أما عمل الأسبان فهو ضد أمة بتمامها دعا اليه التعصب الدينى الذى لا يعرف شفقة ولا رحمة ! !

والجهة الأخرى من مدخل القصر تنتهى الى بستان عظيم جداً فى نظامه وترتيبه ، وبعضه عال وهو للأزهار وفيه بحيرة واسعة من الرخام طولها ٢٠ مترا ، وعرضها ١٥ متراً ، وعمقها ٣ أمتار . وكانت حمام الملك الخصوصي ويسمونها البركة .

أما البستان الواطىء فتنزل اليه بعدة درجات رخامية وفيه من كل فاكهة زوجان . وبه باب فى بناء القصر يوصل الى بحيرة بالخافق (الفافق) فى داخله طولها نحو ٥٠ مترا وعرضها نحو ٨ أمتار : وهى حمام النساء . وقد أخبرنى مرشدى أنها كانت تستحم فيها مائة غانية مرة واحدة مدة ملوك العرب ، ولكنه لم يقل كم غادة كانت تستحم فيها من هذا الجنس اللطيف مدة ملوك الأسبان .

قصر بيلزنوس

بدأ بناء هذا القصر الدون بدرو سنة ١٤٩٢ وأتمته ورثته فى أزمان

مختلفة وهو الآن يملكه واحد من هـذه الأسرة الشريفة ويدخل اليه بأجر زهيد .

ولقد كنت أود أن أكتب كلمة عن هذا القصر الفخم الذى وشيت جميع حوائطه الداخلية بالنقوش العربية ، وبرزت سقوفه فى حلتها المختلفة الألوان والأدهنة بحسن صناعتها التى تدهش الأبصار ، لولا سبق زيارتى للقصر (الكازار) الذى لم يبق بعده كلمة لقائل ولا وصف لواصف . على أنى زرت فى هذا القصر جملة قاعات وأبهاء فيها من النقوش المختلفة مايدهش الأبصار ، ولا سيما المكتب الخصوصى وقاعة الحكم : ولعلهم كانوا يقضون فيها على الناس ، أيام كانت الأحكام على الشعوب البائسة بين شفاه الأمراء والرؤساء . وبالجملة هـذا القصر آية من آيات الصناعة والفن سواء أكان ذلك فى نقوش حوائطه وسقوفه أم فى القاشانى الثمين الذى يكسو حوائطه إلى ارتفاع مترين تقريباً . هذا كله فى طبقته الأرضية أما الطبقة العلوية فهى خاصة برب المنزل ولا يسمح بزيارتها لأحد .

وأهم شوارع المدينـة من خارجها شارع البرادو وهو على نظام البرادو فى مدريد تقريباً ، ترى فيه كثيراً من القهوات والمتنزهات التى يقصدها الناس فى المساء أيام الصيف على الخصوص لقضاء شطر من الليل هناك فى الهواء الخالص ، وكثيرا ماترى الأسرة منهم تجلس الى ناحية من المتنزه وتتناول عشاءها البسيط الذى أتت به معها . ومما أعجبنى جدا انى أردت أن أدخل فيه قهوة جميلة مفتحة المنافذ من كل جهة وبها تمثيل (بالخيالة) فاعترضنى الحارس بما فهمت منـه أنها خاصة بالأسرات ولا يدخلها رجل بمفرده . فعدت وأنا معجب بهذا النوع من الحجاب الذى

يحفظ به كيان الأسرات من جميع آفات المدنية المطلقة والتى لا حد لها وقد وجدت فى هـذه الجهة التين الشوكى يباع مقشورا وهو ما انتقدته لتعرضه للتراب والذباب. ويظهر أن المسائل الصحية غير معتنى بها فى هذه البلاد. فقد رأيتهم يبيعون الفاكهة وكثيراً ماتكون عاطبة وعفنه. وقد شاهدت غير مرة الخيل تجر العربات مع ظلعها وهزالها من غير شفقة ولا رحمة كما رأيت فى الصحراء أكثر من مرة رجلين يركبان حمارا مهزولا يكاد ينوء بحملهما!!

وشارع البرادو ينتهى إلى (البارك) وهو بستان عظيم كبير جميل التنسيق والتحديق. وفيه أشجار الفلفل والبرتقال والنارنج والنخل المختلف الأنواع مما لا يثمر بهذه البلاد وان أثمر فلا يتم نضجه. ويكثر الرش فى هذه المدينة وخصوصاً خارجها لانامة التراب وقتل الحر الذى لا يزال مستمراً إلى الساعة العاشرة مساء.

وأهل هذه المدينة بصفة خاصة والأندلس بصفة عامة يستسلمون إلى التشاؤم والتفاؤل وأظنهما من ميراث العرب. وقد ترى فى أغلب الطنوف الجميلة جريدة من النخل على طولها لمنع تأثير العين. وهم يهتمون كثيراً بأوراق اللوتوريات (النصيب).

واشبيلية لها عيد فى الاسبوع المقدس من كل سنة فى (أبريل)، فتجد سكان جميع الجهات المحيطة بها يقصدونها زرافات بملابس مخصوصة بيضاء فى الغالب ومزركشة بالمقصبات وغيرها من التطاريز الحريرية الكثيرة الألوان، ويسيرون فى الطريق بهيئة مواكب كبيرة حاملين صورة العذراء بحملة مذهبة وهم يرقصون ويتغنون ويلعبون حتى يصلوا الى

الكاتدرائية (الكنيسة الكبرى) ، وتستمر هذه الحركة ثلاثة أيام . وفى هذه الأثناء ترى لهم أسواقاً يقيمونها فى هـذا الفضاء الواسع الذى يكتنف (البرادو) من جميع أطرافه . وترى لهم فى كل نقطة من هذه الجهة مساكن من خشب أو خيم مختلفة الأشكال والأوضاع . وترى فى هذه المنطقة هنا وهناك مغانى ومراقص وأمكنة لمصارعة الثيران وملاعب وملاهى مختلفـة . والبراد هو المركز العمومى للمراكب الكهربائية فى المدينة

ويقصد اشبيلية فى ذلك الوقت آلاف الآلاف من سياح أوربا وأمريكا فتكتظ بهم المدينة الى درجـة لايتيسر معها للانسان المشى فى شوارعها الا بكل مشقة . وهم يحجزون مكان مبيتهم أو محل اقامتهم فى الفنادق أو المساكن قبل هذا الوقت بشهرين أو أكثر . وهناك شركات تقوم بتجهيز كل ما فيـه راحة السياح لهذه الزيارة فى كل جهة من جهات أوربا

وبلدية المدينة تعد الآن معرضاً خارجها لسنة ١٩٢٨ ، وبينه وبين (البارك) خليج من نهر الوادى الكبير . وهـذا المعرض على قسمين : قسم اسبانىٌ وهو آية فى فخامته ، وشكله من جهة البستان نصف دائرة واسعة الأطراف آية فى الجمـال . ووجهتها كلها من الصناعة العربية البديعة المنقوشة بالذهب والألوان المختلفة والتى أخذوها من الأشكال العربية الموجودة فى (القصر) الكازار وغيره . وتكثر الأعمدة الرخامية فى مداخل المعرض من هذه الوجهة ، كما تكثر صناعة الفسيفساء فيما يلى هذا القوس المظيم . أما أشغال القاشانى التى عملت منها القناطر التى

على هذا الخليج من أراضيها وسلالمها ودرابزيناتها فشىء من الابداع يحار فيه وصف الواصف . وقد قام على طرفى هذا القوس مناران على شكل المآذن الاسلامية المربعة . وهذا القسم من داخله مقسم الى أقسام كثيرة للمعروضات .

أما القسم الثانى فامريكانى وهو مركب من جملة مبان منفصل بعضها عن بعض ، وهو أيضا من خارجه جميل المنظر وعلى النظام العربى .

ومن هذا ترى أن أثر هذه الصناعة البديعة لا يزال فى هذه البلاد بحال تشرح الخاطر وتسر الناظر وهو من الدقة بحيث يجود فيه هذا الفن كل الاجادة .

للعبرة والتاريخ

لما دالت دولة الأمويين والعامريين من قرطبة ، واقتسمت الأندلس ملوك الطوائف ، أخذوا يبنون لأنفسهم وهم فى شباب دولهم مجداً أثيلا وذكراً جميلا بما كان لهم من علم وفضل وكرم . وكان فى مقدمة بلادهم اشبيلية لما كان فيها من واسع العمران وناصع الحضارة وجليل الأمارة فى زمن بنى عباد الذين راجت سوق العلم والأدب فى دولتهم ولا سيما أيام المعتمد آخر ملوكهم فقد كان أوسعهم حزماً ، وأكبرهم هما ، وأكثرهم كرما ، وأعظمهم سلطانا .

ولقد كان بعواصم الأندلس منتديات علمية يتداولون فيها العلوم المختلفة ، وكان ملوكهم يعملون على نشرها فى دوائر حكمهم . وكثيرا ما كانوا يحتفلون فى مجالسهم الخاصة بالعلم والعلماء ويفيضون عليهم من

نعمتهم . فكان اعزازهم للعلم من أكبر الأسباب التى دعت الى نشره بين الناس على اختلاف طبقاتهم . لذلك كانت البلاد فى مدتهم فياضة برجالات العلم غاصة بذوى الدراية والعرفان وخصوصا اشبيلية التى ظهر فى أفقها كثيرون ممن ذاع فضلهم وعلمهم فى المشرق والمغرب . وكانت ملوك الأندلس يستقدمون أكابر علماء المشرق ويعقدون لهم المجالس للمناظرة مع علماء بلادهم ويفيضون نعماهم على المبرزين منهم . وكان أهل أشبيلية يشتغلون بالأدب خاصتهم وعامتهم . وكانت لهم منتديات يتذاكرونه فيها . وكانت لهم متنزهات يخرجون اليها فى وقت راحتهم من عملهم كما هو الحال فى البلاد المتمدينة الآن . وكانوا يتبادلون فيها كل ما راق لهم من الحديث من قديم وحديث :

ومن ذلك أن عبد الجليل بن وهبون المرسى الشاعر أعد نزهة لأصحابه بوادى اشبيلية أقاموا فيها يومهم حتى إذا دنت الشمس الى الغروب هب نسيم ضعيف غضن وجه الماء فقال مرتجلا :

حاكت الريح من الماء زرد —

ثم قال لأصحابه أجيزوا . فقال على بن رباح :

أى درع لقتال لو جمد

وهذا من أرق ما أتت به البديهة ومن أحسنه وأبلغه

ومن أحسن بديهات العامة أن الوزير ابن عمار مر على دكان قصاب فقال له

لحم سباط الخرفان مهزول —

فأجابه القصاب من فوره :

يقول للمفلسين مَهْ زولوا

ومنها أن ابن عمار مر على دكان ابن جامع الصباغ فأراد أن يعلم سرعة خاطره وكشف عن ساعده قائلا :

ما بين زند وزند —

فقال الصباغ من فوره :

ما بين وصل وصد

فعجب الوزير من حسن ارتجاله وكان هذا أول التنويه باسمه .

ومن هذا تعلم أن الأدب في الأندلس لم يكن محصوراً في المشتغلين بصناعته بل كاد يكون عاما بين الناس . وقد ورد في ياقوت عند كلامه على مدينة شلب ما نصه :

وسمعت ممن لا أحصى أنه قال (قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ولا يعانى الأدب ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبته منه)

وهنا نذكر لك شيئا عن الخاصة في مجتمعاتهم : فقد صنع المعتمد بن عباد قسيا في القبة المعروفة بسعد السعود فوق المجلس المعروف بالزاهي فقال :

سعد السعود يتيه فوق الزاهي —

واستجاز الحاضرين فقال ولده الرشيد :

وكلاهما في حسنه متناهي

ومن اغتدى سكنا لمثل محمد قد جل في العليا عن الأشباه

ما زال يبلغ فيهما ما شاءه ودهت عداه من الخطوب دواهي

وهذا لعمرى من ألطف البديهات وأظرفها .

ومنها ان ابن عباد خرج للنزهة بظاهر اشبيلية فى جماعة من ندمائه ثم أخذ فى المسابقة بالخيل ، فجاء فرسه سابقاً إلى شجرة تين أينعت وبرزت منها ثمرة، فسدد اليها عصاه فأصابتها وتثبتت على أعلاها. فالتفت إلى من لحقه من أصحابه وقال أجيزوا :

كأنها فوق العصا —

فأجاب ابن جامع الصباغ من فوره :

هامة زنجيّ عصى

فطرب المعتمد لسرعة بديهته وأمر له بجائزة سنية .

ومن هذا تعلم مقدار عناية أمراء الأندلس فى مجالسهم بالعلم والأدب وكيف كانوا رحمهم الله يشحذون القرائح بطلبهم الى الناس اجازة أقوالهم أو تكليفهم الكلام فى شأن من الشؤون ، ويجيزون المبرزين فيها : ففشا العلم فى ديارهم وطلعت شموس الأدب فى فلك بلادهم حتى شملت الصغير والكبير والنساء والرجال .

وقد كان كرم بنى عباد يساعد على رقىّ العلم فى عمومه والشعر فى خصوصه ، ولم يكن ذلك فى دائرة ملكهم فحسب ، بل كان يقصدهم الناس بمدائحهم من جميع الآفاق : فكانت اشبيلية فى مدتهم كعبة القاصدين من المجيدين ، والسماء التى تطلع فيها درارى الأفكار ، وشموس الابتكار .

وانى أكتفى بأن أقص عليك ما ذكره الحافظ الحجازى فى المسهب عن عبد الله بن ابراهيم الذى قال : قصدت المعتمد بن عباد وهو مع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى غزوته المشهورة للاسبان فرفعت له قصيدة منها :

لا روح الله سربا فى رحابهم ... وان رمونى بترويع وابعاد
ولا سقاهم على ماكان من عطش ... الا ببعض ندى كف ابن عباد
ذى المكرمات التى مازلت تسمعها ... أنس المقيم وفى الأسفار كالزاد
ياليت شعرى ماذا يرتضيه لمن ... ناداه ياموئلى فى جحفل النادى

فلما انتهيت الى هذا البيت قال : أما ما أرتضيه لك فلست أقدر عليه فى هذا الوقت ، ولكن خذ ما ارتضى لك الزمان ، وأمر خادما له فأعطانى ما أعيش من فائدته الى الآن . وكنت ممن زاره فى سجنه بأغمات وحملتنى شدة الحمية والامتعاض لما حل به أن كتبت على حائط سجنه متمثلا :

فان تسجنوا القسرىّ لاتسجنوا اسمه[1] ولا تسجنوا معروفه فى القبائل

ثم تفقدت الكتابة بعد أيام فوجدت تحت البيت — « لذلك سجناه »

ومن يجعل الضرغام فى الصيد بازه ... تصيده الضرغام فيما تصيدا

أما شعر المعتمد وبنيه فقد وصل إلى مكانة عالية ، وفى قلائد العقيان جملة صالحة منه ترى منها مقدار سمو كعبهم فى الأدب من شعر ونثر يصعد بهم إلى مستوى أعاظم الشعراء والكتاب ، وتتعرف منه حالهم من الرفه ونعيم السلطان مدة حكمهم .

وكانت أشبيلية مدة ابن عباد عاصمة العواصم الأندلسية . ومظهر المدنية الراقية، فكان فيها واسع الدور وعالى القصور وفى محالها العمومية

---

(١) القسرى (خالد بن عبد الله بن يزيد البجلى القسرى كان أمير العراقين من قبل هشام ابن عبد الملك وولى قبل ذلك مكة سنة ٨٩ ثم عزل عن العراقين سنة ١٢٠ وولى مكانه يوسف ابن عمر الثقفى فحبس خالداً (ولما كان فى سجن يوسف مدحه أبو الشغب العبسى بأبيات فى الحماسة منها البيت المذكور) وتوفى سنة ١٢٦

التماثيل المرمرية كما هو الحال الآن فى البلاد المتمدينة . وفى بعضها يقول شاعرهم :

ودمية مرمر تزهو بجيد تناهى فى التورد والبياض
لها ولد ولم تعرف حليلا ولا ألمت بأوجاع المخاض
وتعلم أنها حجر ولكن تتيمنا بألحاظ مراض

وكانت اشبيلية مشهورة بكثير من الصناعات وخصوصا النسيج وعمل الأسلحة والسفن وحرف البناء التى اتسع بها عمرانها فى مدة بنى عباد . وكانت ضواحيها كلها رياض رياحين وجنات أثمار ، تنساب فى نواحيها جداول الماء، وتنعقد فى أرجائها أندية السرور والهناء،وهنا يجمل بنا أن نذكر لك كلمة عن تاريخ بنى عباد :

يتصل نسب بنى عباد بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة . وأول من نبغ منهم فى الأندلس هو محمد قاضى اشبيلية جد المعتمد . وكان الناس يحبونه لفضله وعدله ولطفه وظرفه وأدبه وحسن سياسته . وآل أمره الى أن انتخبه أهل البلاد سلطانا عليهم لسوء سيرة المستعلى بن حمود ملك قرطبة ، وكانت اشبيلية تابعة له ، وتسمى بالظافر .ولم يزل باشبيلية حتى مات سنة ٤٣٣ هـ . وخلفه ابنه المعتضد بالله عباد وقد جاء فى بعض أوصافه فى ابن خلكان ماملخصه : كان سبط البنان ثاقب الذهن حاضر الخاطر صادق الحديث وقد أعطته سجيته ماشاء من تحبير الكلام وقرض الشعر الى أن قال : وأخبار المعتضد فى جميع أفعاله وضروب أبحاثه غريبة بديعة وكان كلفاً بالنساء فاستوسع فى اتخاذهن ، وخلط فى أجناسهن ، فانتهى فى ذلك الى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه .

ومن شعر المعتضد الذى يعطيك من شخصه صورة صادقة قوله :

شربنا وجفن الليل يغسل كحله ⁂ بماء صباح والنسيم رقيق
معتقة كالتبر أما بخارها ⁂ فضخم وأما جسمها فدقيق

ومن قوله سامحه الله :

وليل بسد النهر أنسا قطعته ⁂ بذات سوار مثل منعطف النهر
نضت بردها عن غصن بان منعم ⁂ فياحسن ما انشق الكمام عن الزهر

وتوفى المعتضد سنة ٤٦١ هـ وقام بالملك بعده ولده المعتمد ، وكان أندى ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثمادا ، وأرفعهم عمادا ، ملتقى الرحال ، وقبلة الآمال ، لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه ، وكان المعتمد شاعراً أديباً ومن شعره :

لولا عيون من الواشين ترمقنى ⁂ وما أحاذره من قول حراس
لزرتكم لا أكافيكم بجفوتكم ⁂ مشياً على الوجه أو سعياً على الراس

وجاء فى ابن خلكان أن المعتمد عزم على ارسال حظاياه من قرطبة الى اشبيلية فخرج معهن يشيعهن فسايرهن من أول الليل إلى الصبح فودعهن ورجع وأنشد أبياتاً من جملتها :

سايرتهم والليل أغفل ثوبه ⁂ حتى تبدى للنواظر معلما
فوقفت ثم مودعاً وتسلمت ⁂ منى يد الاصباح تلك الأنجما

وعلى كل حال انه اذا كان المعتمد قد أعطى لنفسه ماطاب لها من لذاتها وشهواتها فقد كان فيه من العقل والدهاء والكياسة والشجاعة وكبير الهمة وعظيم الصفات ما جعله أكبر ملوك الأندلس فى وقته ملكا ،

وأنفذهم رأيا، وأعظمهم سلطانا . وقد استعان على مدافعة الاسبانيين بابن تاشفين ملك المغرب وقال حين حذر من خطر اجتياح ابن تاشفين لملكه كلمته الخالدة « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » ولكن ابن تاشفين فتك به آخر الأمر فأسره وأرسله الى أغمات وهى بلدة وراء مراكش بينهما مسافة يوم بالقافلة وهو ما يقرب من خمسين كيلو متراً . ومما قال فى قيده وهو فى محبسه بها :

قيدى أما تعلمنى مسلماً ⁂ أبيت أن تشفق أو ترحما

دمى شراب لك واللحم قد ⁂ أكلته لا تهشم الأعظما

ومات المعتمد فى محبسه سنة ٤٨٨ .وقد رثاه الشعراء بقصائد مطولات أنشدوها على قبره ومنهم شاعره أبو بكر بن عبد الصمد رثاه بقصيدة طويلة قال فى أولها :

ملك الملوك أسامع فأنادى ⁂ أم قد عدتك عن السماع عوادى

لما نقلت عن القصور ولم تكن ⁂ فيها كما قد كنت فى الأعياد

أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاً ⁂ وجعلت قبرك موضع الأنشاد

وهذا لعمرى أكبر شىء فى الوفاء والشجاعة وعظم النفس فرحم الله ابن عباد ورحم الله شاعره أبا بكر . وانى لم أذكر لك ما ذكرت إلا للعبرة بصروف الزمان وتقلب الحدثان وسبحان من بيده الأمر يعز من يشاء ويذل من يشاء .

وقد زار قبره لسان الدين بن الخطيب فرآه على هضبة بمقبرة اغمات فقال :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات	رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا	ويا سراج الليالى المدلهمات
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه	الى حياتى لجادت فيه أبياتى
أناف قبرك فى هضب يميزه	فتنتحيه حفيات التحيات
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا	فأنت سلطان أحياء وأموات
مارى مثلك فى ماض ومعتقدى	أن لا يرى الدهر فى ماض ولا آت

وقول لسان الدين هذا فى شخص مات قبله بثلاثة قرون ونصف تقريباً وليست له عليه أية يد ، لأكبر دليل على أن ابن عباد كان من أكبر الملوك وأعظمهم . ومن يطلع فى الجزء الثانى من نفح الطيب على هذه الجملة « وبسبب قتل بنى عباد لأبى حفص الهوزنى تسبب ابنه ابو القاسم فى فساد دولة المعتمد بن عباد وحرّض عليه أمير المؤمنين يوسف ابن تاشفين حتى أزال ملكه ونثر سلكه وسبب هلكه رحمه الله » ، ير أن هذا الملك العظيم قضى بيد الخشونة والظلم فريسة السعايات والوشايات الدنيئة .



مناظر مدينة غرناطة وفى أعلاها قصور الحمراء من اليسار وقصر جنة العريف من اليمين



الرسالة الخامسة

من اشبيلية الى غرناطة

قام القطار من اشبيلية الساعة العاشرة صباحا واتجه الى الجنوب الشرقى فى أرض تكثر فيها المزارع وغابات الزيتون والكافور ومروج الخضر تتخللها أشجار الفاكهة من برتقال ونارنج وتين وليمون . وقد يكثر على حافتى الطريق التين الشوكى والصبار ونبات الخلة وشوك القرطم ، وعلى كل حال الزراعة هنا شتوية أكثر منها صيفية : أعنى انها تنحصر فى القمح والفول وما اليهما ، وهى بوجه عام أشبه شىء بزراعة الحيضان عندنا قبل أن يدخل عليها النظام الصيفى . وتربة هذه الجهة جيدة وأرضها مسطحة ولا بد أنه كان فيها مدة العرب نظام للرى أهمل بعدهم وبقيت زراعتها لا تسقى الا مرة واحدة قبيل الزرع ، وهى أشبه بما يسمونه عندنا الزراعة البعلية . ويختلف أمامك معدن الارض فطورا تراه حديديا ويزرعون فيه كروم العنب ، وطورا تراه طفليا ويزرعون فيه الفاكهة ، وكلما قربت الى الشرق كثرت أنواعها من مشمش وكمثرى ورمان وخوخ وتفاح ، وترى معدنها اسود ويزرعون فيه الخضر والبطيخ والقاوون وهما من أحلى شىء فى نوعهما .

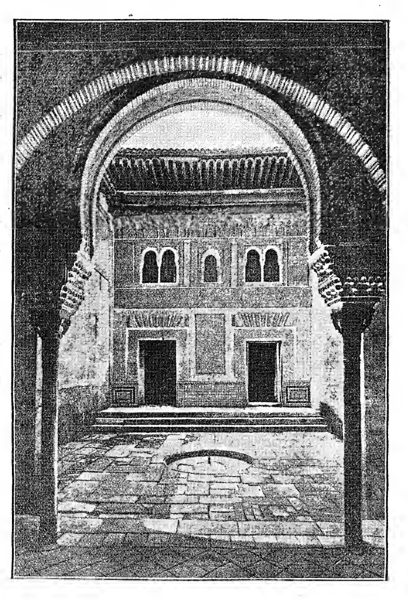
والسفر من اشبيلية إلى غرناطة صعب جداً بالسكة الحديدية من كل وجه : لأن عرباتها قديمة وهى أشبه شىء بعربات خطوط الشركات الضيقة عندنا . ومع ان المسافة بينهما ٢٨٨ كيلو متر يقطعها القطار فى أكثر من عشر ساعات ، وليس فيه عربة للأكل ، وقد يقف القطار

كثيراً فى بعض المحطات انتظاراً لقطار ثان آت من طريقه أو من طريق آخر ، ولا ترى فى المحطات إلا باعة الماء فى الغالب . وكلما اتجهت إلى الشرق وجدت من يبيع شيئا من الفاكهة خارج سياج المحطة . وبالجملة الماء هنا هو أول شىء يحتاج اليه الأنسان فى كل وقت لشدة الحرارة . وقد كنت أحسبنى قليل الشرب جداً حتى فى مدة الصيف، ولكنى هنا أرانى أكثر من الشرب فى كل وقت مدفوعاً بشدة العطش. وقد تحدث شدة الحرارة هنا تهيجاً فى الحلق والحنجرة ، فترى الناس يبصقون كثيراً فى الطريق وغير الطريق من غير مبالاة ، مما لا تراه إلا نادراً فى البلاد المتمدينة ، بل قد يكون سبباً فى تهيج الشعب فيكثر السعال .

وفى الساعة الثالثة بعدالظهر تقابل قطارنا بالقطار الذى قام من غرناطة فى محطة اسمها روضةالأندلس LA RODA DE L'ANDALOUSIE ولهذه نصيب من اسمها ، لأن النظر اذا اتجه فيها الى جهة لايرى غير غابات الزيتون ومروج الفاكهة والخضر ، ولاشك أنهذه الجهة هى أخصب أرض اسبانيا الوسطى الجنوبية : لذلك تكثر فيها المدن ويظهر العمران .

وفى الساعة الرابعة وصلنا الى مدينة BOBADELE ولعلها « أبى عبد الله » ومنها يتفرع خطان آخران : واحد الى مالقة والآخر الى الجزيرة الخضراء وجبل طارق .

وما زلنا سائرين حتى اذا كنا على بعد ساعة من غرناطة ابتدأت الزراعة تكسو أرض الوادى كله ، وبدت لنا جداول الماء تظهر بكثرة بعضها مبنى وبعضها محفور ، يغذيها نهر شنيل من اليمين ونهر دارو (حدارّه كما كانت تسميه العرب) من اليسار : بحيث لا تقع العين إلا



وجهة المسجد الخارجي بالحمراء



على مروج ناضرة ورياض زاهرة ترى فيها الذرة والبنجر والخضر وأشجار الفاكهة والدخان الهافانى بشكله الجميل وهو رخيص جداً فى هذه البلاد: وهنا خطر ببالى كيف ان الحكومة المصرية الدستورية لا تزال تحجر على حرية الناس بمصر فى زراعة الدخان . فان قيل ان زراعته تقلل من ايراد المكوس (الجمارك) قلنا بامكان فرض ضريبة على زراعته تعوض على الحكومة ما تخسره من عدم وروده من الخارج وتعود على الأهالى وخصوصاً أصحاب الجزائر التى لاتصلح إلا لزراعته بالفائدة التى لا يزالون يرجونها من انتاجه . وفى الساعة الثامنة مساء وصل القطار الى غرناطة

غرناطة

هى مدينة واقعة فى الشمال الغربى من جبل شلير أحد حلقات جبال سيرا نوفادا ، وعدد أهلها الآن ٨٠ الف نفس . ويقطعها نهر دارو الذى ساقه اليها العرب من هذا الجبل . وفى جنوبها نهر شنيل الذى يروى مادونها من الأراضى الواسعة الجميلة التى يسمونها بالمرج : وذلك بواسطة الترع التى سيرتها بها العرب ، ونظام الرى الذى أنشأوه فيها . وهو قائم الى الآن بوظيفته فى هذه الجهة التى لاتزال من أخصب بلاد اسبانيا . وأبنية المدينة القديمة على الشكل القوطى فى شوارعها الضيقة . أما شوارعها الكبرى فقد دخل عليها مسحة من نظام البناء الأفرنكى ، ويظهر أن سبب ذلك هو أن درجة الحرارة فيها أقل منها فى اشبيلية وقرطبة كثيراً وذلك لكثرة مايتخللها من مجارى المياه ويحيط بها من كثير الغابات والمزارع ومراقد الثلوج المستديمة التى تراها على قمم

سيرا نوفادا . ومع هذا ترى شوارع المدينة غير نظيفة ويكثر فيها التراب . وبالجملة ليس فيها ماهو جدير بأن أحدثك عنه لأنها ليست بالشرقية ولا بالغربية اللهم إلا تلك الجهة الواقعة على منحدر الجبل إلى القصر ويسمونها قسم البيازين . وهذا القسم هو الباقى من مدة العرب وهو الذى ترى عليه صورة عربية جافة تكثر فيها المنافذ وليس فيها شيء من الفن ولا من جمال الشكل ، ويظهر أن حركة التجارة والصناعة في المدينة حركة لا بأس بها وخصوصاً فى تجارة المحصولات الزراعية .

ولقد كانت هذه المدينة مدة العرب غاية فى الجمال والجلال والفخامة . وكان سكانها مدة بنى الأحمر لا يقلون عن نصف مليون من النفوس لأن سواد البلاد الاسلامية بالأندلس هرع اليها بعد سقوطها فى يد الأسبان ، وكان منهم عدد كبير من اليهود ، وكان العرب يسمونها دمشق لكثرة مائها ومزارعها ، وكان فيها كثير من البساتين بحيث كان للغنى بالله وحده بها مائة بستان . وفيها يقول لسان الدين ابن الخطيب :

بلد تحف به الرياض كأنه   وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة   ومن الجسور المحكمات سواره

وكان يحيط بها مدة بنى الأحمر سور فيه الف وثلاثون برجا للمقاتلة . وكان داخل الصور مائة وثلاثون طاحونة لطحن الغلال بقوة التيارات المائية .

والآن أذكر كلمتى عن القصر وهو كل شيء فى المدينة .

القصر

وهو يشمل تلك الدائرة الكبرى التى فى شرق المدينة وفى حضن جبل شلير : وهى سور كبير داخله بستان واسع فى أعلاه من الشرق قصر جنر اليف Generalif وهو لفظ لا معنى له وضع محرفا لهذا القصر العالى الذى كان يسمى جنة الريف وبعضهم يسميه جنة العريف . وكانت ملوك غرناطة تقضى فيه فصل الصيف . ويتخلل هـذا البستان غدران الماء التى تنزل اليه من الجبل وتسمع لهـا خريراً هنا وهناك كأنه نغمات الموسيقى حتى إنّه ليخيل للانسان أنه فى إحدى رياض سويسرا الجميلة .

وقد قام على منحدرات هذا الجبل المتعرجة سور مرتفع طوله ٧٢٦ مترا فيه ٢٤ برجا على طوله حول قصر الحمراء . وفى الزاوية الغربيـة من بناء القصر يميل إلى الجنوب القصبة : وهى القلعة العظيمة التى هى أقدم بناء فى هذه الدائرة . بناها محمد بن الأحمر الأول . وأهم هـذه الأبراج برج فالا وارتفاعه ٢٦ مترا . وفى أقصى القصبة منارة وضع فى أعلاها جرس زنته ١٢٠٠ كيلو جرام يضرب كل ساعات الليل فى أيام السنة كلها . وفى يوم ٢ يناير وهو اليوم الذى استولى فيه القوط على غرناطة من العرب يضرب هذا الجرس باستمرار ٢٤ ساعة احتفاء بهذا اليوم الذى هو من أكبر أعيادهم إن لم يكن أكبرها .

دخلت الى هذا البستان من باب كبير وهو من بناء العرب وضع عليه من جهتيه كرة من الحجر على شكل الرمانة : وهى أشارة لطيفة لاسم المدينة . ولقد أصلح هذا الباب الملك شارلكان ووضع عليه (رنكه) وما زلنا سائرين فى طريق صاعد وسط هذا البستان الجميل إلى أن وصلنا

الى بناء على جهتيه هو فندق واشنجتون . ويقال أنها بنيت على المقبرة الاسلامية لملوك غرناطة . وما زلنا صاعدين والى يسارنا سور عال من الطوب الأحمر هو سور قصر الحمراء حتى وصلنا الى باب قصر جنراليف .

وهذا القصر يتدرج بستانه الى ثلاث مناطق : كل واحدة فوق الأخرى ببضعة أمتار يصعد اليها بوساطة سلالم من الرخام وكل بستان منها زهرية مستطيلة فى وسطها بحيرة كبيرة مستطيلة وهى من الرخام وفى جوانبها نافورات الماء التى اذا فتحت ينفجر منها الماء على هيئة أقواس من البلّور تنتهى الى وسط البحيرة بنغمات مشجية ، واذا انعكست فيها أشعة الشمس رأيت أقواس قزح هنا وهناك على البحيرة بشكل بديع جداً وينتهى البستان الأول الى ايوان جميل فيه شيء كبير من الفن ويشرف من جهة الشمال على قسم البيازين (المدينة القديمة) ومن جهة الغرب على قصر الحمراء ، أما البستان العالى فيتصل بقصر الحرم ، وأما الوسط فبينه وبين الايوان . وفى هذا البستان شجرة من الأرز يسمونها أرزة الملكة ويقولون ان عمرها يرجع الى سنة ١٤٠٠ ميلادية .

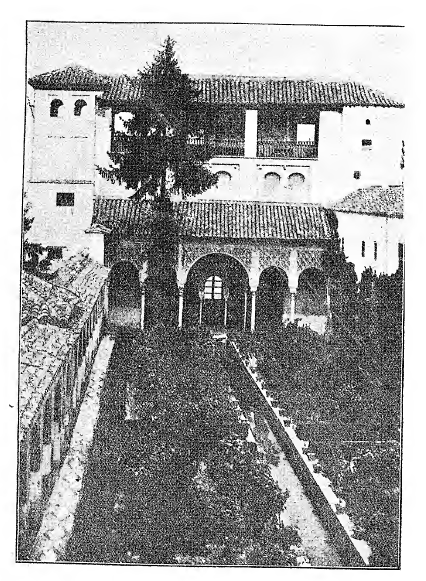
وبالجملة هذا القصر فى وضعه ونظامه ونضارة جنانه آية فى الابداع وكمال الذوق مما لا يتيسر وصفه الالشاعر أو مصور ، وهنا أرجو حضرات القراء أن يسمحوا لى بأن أحدثهم بكلمة عن قصر الحمراء .

قصر الحمراء (١)

عم يتساءلون ? عن النبأ العظيم الذى منه تدهشون وله تعجبون ?

---

(١) وقد سمى بالحمراء لان الجبل الذى بنى عليه تربته حمراء ، وقد يكون ذلك لنسبة هذه القصور الى بنى الاحمر وهو أوجه . وبنيت الحمراء فى منحدر جبل شلير على ارتفاع ١٥٠ متر من أرضية المدينة .



منظر قصر جنراليف أو جنة الريف



هذا بناء الحمراء الذى أبقت عليه الأيام ليكون فخراً لنا على ممر الأيام .
وهل لنا من شىء نفخر به غير عمل الآباء والأجداد ؟؟ ثم هـذا هو ذلك القصر التاريخى الذى سأحدثكم عنـه كثيراً ولا أرانى حدثتكم عنه بشىء ، لأنى لم أفهم غير إعجابى بفخامته وحسن صناعته ، ولـكن على كل حال أقر به الى أذهانكم بوصف المهم من أبنيته : وهى قاعة الحـكم ، وحوش السباع وحوش الريحان وقاعة الاسـتقبال ويسمونها قاعة السفراء ، ثم مسجد الملك وحمام الملك . وكانت كلها تنتهى إلى قصر الحرم من جهتها القبلية ، فأزاله شارلـكان وبنى مكانه قصره على النظام القوطىّ : وهو فى وسطه دائرة سماوية قام على محيطها ٣٢ عمودا من الجرانيت ، وعلى خمسة أمتار منها تقريباً حائط يرتكز عليها وعلى الأعمدة سقف محدب الشكل وعلى هذه الدائرة طبقة ثانية تشبه الأولى فى شكلها ولم يكمل هذا القصر فى مدة صاحبه وهم يعملون فى إتمامه الآن

وهنا نبدأ بشرح مابقى من الآثار العربية التى تتصل بحال مباشرة أو غير مباشرة من جهتها القبلية بقصر شارلـكان : الذى ليس فيه شىء من الجمال وإن كان شكله الداخلى لايخلو من العظمة والفخامة .

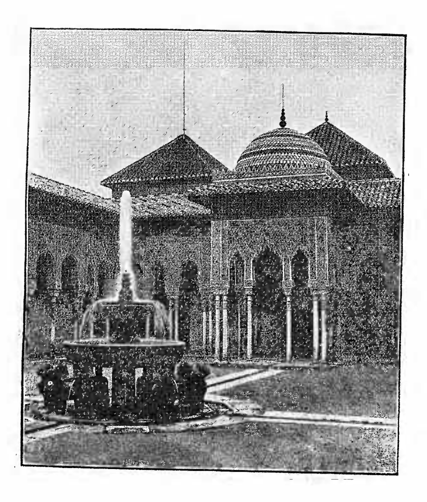
وأبنية هذا القصر ليست لشخص واحـد من بنى الأحمر بل هى لجملة منهم

وأول ما يشاهد الانسان منها مسجدها الخارجى وهو على صغره غاية فى الفخامة ، ونقوشه فى منتهى الجمال . وقد حوله القوم إلى كنيسة مدة شارلـكان ، ولـكن من غير أن يبدلوا شيئاً من نقوشه ولا من الـكتابة التى على حوائطه . وهذا المسجد من بناء محمد الثانى ، وقال بعض

المؤرخين انه كان بحائط محرابه أحجار ياقوت مرصعة فى جملة ماغق به من الذهب والفضة . ومحرابه من العاج والأبنوس (ولكنى لم أر شيئاً من ذلك)

أما قاعة الحكم أو قاعة العدل فقد بناها السلطان يوسف الأول فى أواخر القرن الرابع عشر : وهى مربعة الشكل ، طول كل طلع منها ١٥ مترا وارتفاعها عشرون مترا ونصف متر وحوائطها جميعا منقوشة بنقوش جصية بديعة جداً . وفيها صورة يد مرفوعة الى السماء وبجوارها مفتاح اشارة إلى أن العدل مفتاح السعادة فى الدنيا والآخرة . وفيها كتابات عربية يكثر فيها « عز لمولانا أبى عبد الله » « لا غالب إلا الله » ومن خارجها بهو طويل من جهته اليسرى أعمدة رخامية على طوله وبه من النقوش العربية شيء يدهش الأنظار ويأخذ بالأبصار ، وقد وضع فيه القوم أخيراً كلمة بالاسبانية على قطعة من الرخام تشير الى استيلائهم على غرناطة .

والى غربى قاعة الحكم حوش السباع : وهو أهم أثر عربي فى أسبانيا ، ابتدءوا فى عمله سنة ١٣٧٧ م ، وطوله ٥٠ ، ٢٨ متراً وعرضه ٧٠ و ١٥ متراً ، وأرضيته من الرخام ، وتحيط به حنايا قامت على ١٢٨ عمود من المرمر ، وضعت بتناسب جميل جداً مثنى ، أو ثلاث ، أو رباع وقد نقشت حناياها وسقفها والحوائط التى من دونها بنقوش جصية مذهبة آية فى الابداع والجمال . وفى وسط هذا الحوش بركة من الرخام الأزرق صحنها مسدس الشكل وقطره متر ونصف متر فيه فوارة ماء ، ويحمله ١٢ سبعاً من الرخام الأزرق ينقصها الاتقان فى صناعتها . وربما كان



منظر قاعة الحكم من جهة حوش السباع



ذلك مقصوداً لتحريم التمثيل عندهم . وينزل الماء من البركة الى مجار رخامية على سطح الأرض تسير الى أربع برك أرضية فى زواياه الأربع من خارج الحنايا .

وفى وسط هذا الحوش مما يلى البركة قاعتان متقابلتان واحدة تسمى قاعة بنى سراج [1] . وكانوا من وزراء الدولة وكان بها مركزهم لجوارها من قاعة الحكم . ويقال إنه كان بها مصرعهم على يد السلطان

---

(١) كان بنو سراج من أكبر الأسرات النبيلة فى غرناطة وكان منهم القضاة والوزراء والقواد وكان أصلهم من قرطبة ، وهاجروا منها بعد استيلاء الأسبان عليها . ويزعم الأسبان أن بنت أحد ملوك بنى الاحمر واسمها فاطمة أو فهيمة قد أحبت أحد بنى سراج ، وكانا يجتمعان خفيه فى زاوية من بستان قصر جنراليف ، ويتبادلان لوعة الحب تحت شجرة صنوبر لا تزال موجودة بحديقة هذا القصر ، والى يومنا هذا يسمونها بشجرة الملكة . وبلغ السلطان أمرها فغضب على بنى سراج واستقدمهم واحدا واحدا الى قصر الحمراء وضرب أعناقهم في القاعة التى سميت باسمهم . ومن خرافات الأسبان أن أرواحهم الى هذه الساعة لا تزال تصرخ بعد سكينة من الليل مما أصابهم من الظلم ! !

ولكن اذا عرفت أن هذا البستان بستان رياحين كما وصفناه لك ، وأنه يتدرج الى ثلاث مناطق وأنه كله مكشوف الى عين الناظر وخصوصاً من منافذ القصر الذى يشرف عليه عرفت أنها رواية سقيمة لا أثر لها من الصحة ولا وجود لها البتة فى التواريخ العربية . وهذه القصة أشبه شيء بقصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكى مما ينسب القصاصون اليها نكبة الرشيد للبرامكة ، فى حين أن نكبته لهم انما كانت خوفا على ملكه منهم ، لما كان لهم من عظيم السلطان خصوصا فى بلاد فارس لأن أصلهم منها .

وحقيقة بنى سراج كما يؤخذ من كتاب ترجمة العالم الكاتب الكبير الامير شكيب ارسلان (آخر بنى سراج تأليف الفيكونت دو شاتوبريان الكاتب الفرنسى الشهير) انهم كانوا وزراء لبنى الاحمر وكانوا من شيعة محمد بن يوسف الشهير بالاعسر ، ونصروه على ابن أخيه محمد الصغير . فلما تولى هذا الملك فى نحو سنة ١٤٢٧ م نكبهم وأخذ يفتك بهم ، ففر بعضهم الى ملك قشتالة وأقاموا فى خدمته .

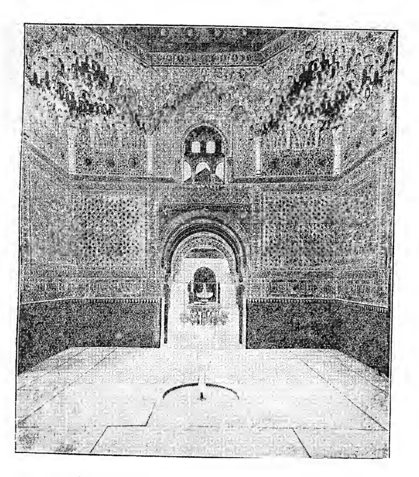
وآخر ما ذكر عن بنى سراج ان محمد بن يوسف بن سراج كان قائداً لحصن قيبل والذى بجواره فحاصرهما ملك الأسبان بمدافعه الجديدة ذات المرمى البعيد وأخذ يرسل عليهما نيرانها الشديدة ، فرأى ابن سراج أن لا فائدة فى المقاومة ، وسلم الحصنين على شرط الخروج الى غرناطة ، وذلك فى زمن أبى عبد الله بن الاحمر . وربما كان تسليمه للحصنين سببا فى نكبته لاتهامه بأن ذلك كان لممالأته للعدو .

أبى عبد الله آخر ملوك بنى الأحمر لاتهامهم بموالاة الفرنجة سراً .

وهذه القاعة مربعة طول كل ضلع منها ٢٥ ، ٦ أمتار ، وفى وسطها بركة من الرخام ، وحوائطها كلها بالنقوش الغريبة عليها كتابات عربية من أعلاها الى أدناها ، وسقفها قطعة واحدة من القرنصات الهائلة ، من دونها ١٦ مناراً تحملها مقرنصات تنزل بميل حتى تتصل بالحائط على طول مترين ونصف متر وفيها من النقوش ما هو غاية فى الابداع مما لا يمكن أن يصفه اليراع . ويقال إن المقرنصات التى بها فيها أكثر من خمسة آلاف شكل لا يشبه بعضها الآخر .

أما القاعة التى تجاهها فتسمى بقاعة الأختين وهى على شكل قاعة بنى سراج فى صناعتها وبهجتها إلا أن هـذه تتصل بها من داخلها قاعة جميلة فى صناعتها وهيئتها تسمى قاعة الملكة ، وتشرف من جهتها الشمالية على بستان واطىء عنها ببضعة أمتار يسمونه بستان الملكة . ويقولون إن تسميتها بقاعة الأختين لأن فيها رخامتين كبيرتين شكلها واحد وهى تسمية سخيفة ، لا أظنها تتفق مع أبهـة المكان ، ولعلها كانت لأختين لأحد ملوك بنى الأحمر .

أما حوش الريحان ، والافرنج يكتبونه « ALRAGNANE » وهو خطأ ، فهو فى غرب حوش السباع وطوله ٣٦،٦٠ متراً وعرضه ٢٣،٤٠ مترا وأرضيته من الرخام ، وفى وسطه بحيرة رخامية يسمونها البركة طولها ٣٣،٥٠ متراً وعرضها ٧،٤٠ أمتار وعمقها متر ونصف متر يحيط بها سياج من نبات الفصيلة الريحانية مقصوص على شبه حائط ارتفاعه نحو متر ، وعلى طرفيه صفان من أعمدة الرمر ترتكز عليها وعلى الحائط



أحد مناظر حوش السباع بالحمراء من جهة قاعة الحكم



الذى يليها قباب صغيرة غاية فى حسن الذوق وجمال المنظر .

ومن دون حوش الريحان الى الجنوب الشرقى الحمام : وهو شيء من الاعجاب بمكان . وهو على النظام الرومانى : يدخل اليه أولا من غرفة جميلة فيها مصطبتان رخاميتان للاستراحة ، احداهما قبالة الأخرى ، واحدة للملك والثانية للملكة ، وفى وسطها بركة رخامية يحيط بها أربعة أعمدة من المرمر ترتكز عليها سقف يحيط به اطناف من طبقته العليا ، ويقال أنه كان مكان الغوانى اللواتى كن يضربن الموسيقى وقت استحمام الملك ، وعلى كل حال إن النقوش التى بهذا المكان من جصية وذهبية تتناسب مع جلال الملكية ومن داخل هذا المكان الحمام وفيه قبة من الجص فيها فتحات للنور ثبتت عليها قطع زجاجية . وفيه حوضان يسير اليهما الماء بتدبير فى أقنية تتصل بالجبل ، وليس فى غرفة الحمام الداخلية شيء من الجمال وخصوصا القبة ، فان خشونة منظرها لا تتفق مع جمال المكان الخارجى (بيت أول) ، ولعل القبة هدمت فيما هدم من الحمامات والمساجد أيام شارلكان ثم أقاموا هذه فى مكانها . وفى وسط الحنايا التى من جهة الشمال من حوش الريحان مسجد القصر الخصوصى وقد نقشت حوائطه بنقوش بديعة يتخللها كتابات كثيرة بالخط العربى الجميل فى طولها . وقد قرأت منها مما يلى باب المسجد هذين البيتين وربما كانا أول القصيدة :

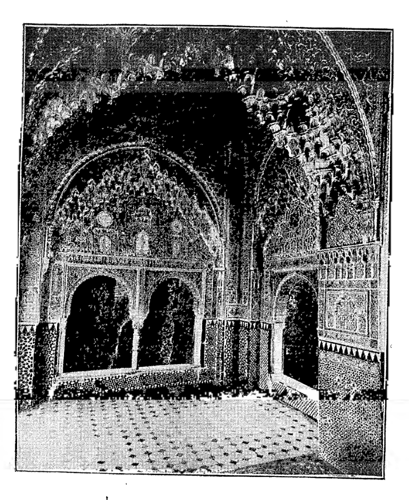
تبارك من ولاك أمر عباده   فأولى بك الاسلام فضلا وأنعما

ولو خير الاسلام فيما يريده   لما اختار الا أن تعيش وتسلما

ومكتوب فوقها « عز لمولانا السلطان عبد الله » والداخل الى المسجد يرى على يمينه ويساره فتحة فى الحائط طولها نحو ثلاثين سنتيمترا

وعرضها أربعون سنتيمترا ويقولون أنها مكان لنعال الملك وقت دخوله الى المسجد. ولكن مايحيط بهذه الفتحة من تكرار اسم الجلالة يمنعنا من تصديق القوم، ونضيفها الى حلى الصناعة التى فيه، أو أنها مكان كان يوضع فيه شيء من الورود والأزهار والرياحين. وهذا المسجد قاعة فيها محراب كان فيه المصحف العثمانى الذى أهداه بنو الأحمر الى السلطان يوسف بن يعقوب المرينى سنة ٦٩٢ هـ. وهذا المحراب آية فى نقوشه التى تتخللها كتابات عربية تبتدىء بهذه الالفاظ: «بسم الله» «القدرة لله» «العزة لله» «الملك لله» «ولا غالب الا الله». الخ، ووجهة المسجد من الشمال كلها مكونة من مقاصير قامت على أعمدة رخامية صغيرة وهى تشرف على قسم البيازين.

أما قاعة الاستقبال ويسمونها قاعة السفراء فهى أكبر وأفخم قاعة فى القصر بناها السلطان أبو الحجاج يوسف بن الأحمر. وقد أشكل على مؤرخى الافرنج نطق الجيم العربية فقلبوها شينا وكتبوها: ALHA-CHACHE «الحشاش» وهو خطأ بين. وهذه القاعة مربعة الشكل كل ضلع منها ١١ مترا وارتفاع حوائطها ١٨ مترا تعلوها قبة خشبية فيها نقوش ذهبية يحار العقل فى جمالها، ومن دونها ٢٠ منارا، من دونها ثلاثة شبابيك على هيئة طنوف بديعة الشكل. وقد نقشت حوائط هذه القاعة كلها بنقوش غاية فى الابداع وجلال الفن مما لا يمكن واصفا وصفه. وانما أقول للقارىء أن بها ١٦٢ نقشا يخالف الواحد منها الآخر ولا يمكن رائيها ملاحظة ذلك لحسن تناسقها وتناسبها حتى كأنها نقش واحد. وفيها كتابات عربية قرأت منها فى أعلاها «عز ونصر لمولانا الملك العادل



قاعة السفراء المشهورة بقاعة السفراء بالحمراء



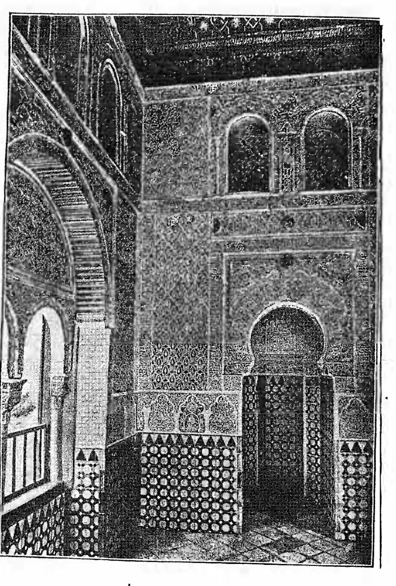
المجاهد ابى الحجاج » ،وعلى يمين الداخل الى هذه القاعة على ارتفاع مترين فوق الازار القاشانى « النصر المسكين والفتح المبين لمولانا أبى الحجاج أمير المسلمين » .

وعلى كل حال إن قصر الحمراء آية الآيات فى الاعجاب والاغراب فى كل باب من أبواب العظمة الفنية والجلال الهندسى مما لا يمكن انسانا وصفه . وانى أتصور انك لو جئت بألف واصف لكان وصف كل واحد مخالفا لوصف الآخر : ذلك لأن عواطف كل شخص منهم تتغلب عليه بمؤثرات كثيرة متغايرة : فهذا يصفها من حيث جلالها ، والآخر يصفها من حيث جمالها ، والثالث من حيث ما فيها من العظمة الفنية ، والرابع من الجهة التاريخية ، والخامس من الهيئة الطبيعية ، والسادس من العبرة الزمانية ، وهكذا . ولا أحسبنى فى شىء من هذا كله : لأن شدة اعجابى بهذا المكان قد طاش معها الجنان وجمد البيان . خصوصا بعد أن تجلت أمامى تلك الصحيفة التاريخية الرائعة التى انتهى بها حكم بنى الأحمر فى غرناطة ، أو بعبارة أخرى حكم العرب بالأندلس : تلك الصحيفة التى كتبت بدماء قلوب المسلمين التى أسالتها عوامل الظلم ومعاول النكبات التى سقطت عليهم من قساوسة النصرانية وملوكها بأسبانيا . وكأنى كنت اذا نظرت من أعلى القصر الى قسم البيازين سمعت أنين المقتولين، وصراخ المصلوبين ، وعويل المشردين من النساء والشيوخ والأطفال !! والملك لله وحده ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وهنا أرجو القارىء أن يعذرنى اذا قصرت فى وصف هذا القصر الذى لم أفهم منه شيئاً غير دهشتى لفخامته !! ذلك لأن جلال هـذا المكان الحقيقى فى

صنعته الفنية . ولم يحدثنا مؤرخو العرب عنها بشيء بل كان وصفهم له يحوم حول فخامة البنيان وما يحيط به من ذهب براق وثروة واسعة هي نتيجة لازمة لضخامة الملك وعظمته . وما تراه فى كتب الافرنج لايخرج عن ذلك سوى ما فيه من الاغلاط التاريخية التى أساسها الجهل والتعصب الدينى والجنسى . لذلك أطلب الى حكومتنا الموقرة ان توفد الى اسبانيا بعثة من رجال الفن العربى بمصر ممن يلتحقون بدار الآثار العربيـة على الخصوص ، وهذه بعثاتها قد جاوزت الحد ممن يشتغل بالمهم وغير المهم، فهل نراها تبخل على العلم والفن والتاريخ ببعثة كهذه تزيح اللثام عن شيء يتحدث جميع الناس قديما وحديثا بجلاله وجماله وهم لا يعرفون شيئا مما فيه من الفن العربى العجيب والذى كله آيات بينات مدهشات ، وخاصة هذا الفن قد انمحى أثره من الشرق ، فليس منه شيء فى بغداد ، والبقية الصالحة التى كانت منه بدمشق قد أحرقها الفرنسيون أخيراً باطلاقهم النيران على بيت العظم الذى انتهت اليه عظمة الفن العربى فى الشام وسـورية !!

وقد يقول قائل : ان عندنا منها بمصر شيئاً كثيراً : فعندنا مسجد المنصور قلاوون ، والناصر حسن ، والسلطان قايتباى ، وقانجـاس ، والبرديني ، والسلطان الغورى الذى انتهت به عظمة مصر الفنية والاستقلالية . وقد يشيرون الى آثار الناصر محمد بن قلاوون الفخمة التى توجد بدار الآثار العربية بباب الخلق ، فنقول لهم نعم : ولـكن هذا شيء وذلك شيء آخر .

وفى اسبانيا الآن رجال يعملون فى الصناعة الخشبية الدقيقة بالتنزيل



المنظر الداخلي لمسجد قصر الحمراء



والتطعيم على أشكال مختلفة فيها رسوم جميلة من آثار الصناعة القديمة .
وكذلك عندهم رجال يعملون فى النقوش الجصية التى يستعيرونها من
الأشكال القديمة ويدخلونها فى مبانيهم الحديثة الفخمة . وقد ترى ذلك
مجتمعا فى ذلك المعرض الذى يقيمونه فى أشبيلية لسنة ١٩٢٨ وقد مر بك
ذكره ، وفيه أحسن صناعاتهم هنا. وفى أشبيلية وقرطبة على الخصوص
صناعة القاشانى العجيبة اللطيفة الشكل الكثيرة الالوان ،ولا شك أنها
من أثر الصناعة القديمة وان كانت لا تصل اليها فى جودتها وجمال منظرها .

للعبرة والتاريخ

بنو الأحمر

بنو الأحمر من العرب الذين أجازوا الى الاندلس ويسمون بنى
نصر. وأصلهم يتصل بسعد بن عبادة الأنصارى الصحابى سيد الخزرج.
وكانوا من جند أرجونة « من حصون قرطبة » . وكان كبيرهم لآخر
دولة الموحدين محمد بن يوسف بن نصر ويعرف بالشيخ . فلما ضعف أمر
الموحدين وكثر الثوار بالأندلس ، وقام منهم محمد بن هود بمرسية
واستولى على شرق الاندلس تصدى له محمد بن الأحمر وانتهى أمره بأن
تغلب على غرناطة سنة ٦٣٥ . وما زال حتى غلب عليه الاذيفونش
فاستصرخ يعقوب بن عبد الحق سلطان المغرب من بنى مرين ،فأجاز له
جيشاً دفع به عدوه . ومات محمد بن يوسف سنة ٦٧١ . وقام بالأمر بعده
ابنه محمد وكان يعرف بالفقيه ، فاستولى على جنوب أسبانيا الى الجزيرة
الخضراء وأصبح له السلطان فيها حتى مات سنة ٧٠١ . وكان من خيرة

بنى الأحمر سياسة وكياسة وهمة . وتولى بعده ابنه محمد الملقب بالمخلوع ثم أخوه أبو الجيوش نصر ولم تطل مدة حكمهما . وأتى بعدهما أبو الوليد ابن أبي سعيد بن اسماعيل بن نصر وكان من أحسن ملوكهم سيرة وأبعدهم همة وأكبرهم قوة وأعظمهم سلطانا ، ومات سنة ٧٢٧ : قتله أحد قرابته غدراً في داره . وتولى بعده محمد بن أبي سعيد ، ومات مقتولا سنة ٧٣٢ فولى الأمر بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الذى مات قتيلا سنة ٧٥٥ : بطعنة رجل من السوقة ، وكان من خيرة بنى نصر ، فقام بالأمر بعده ابنه محمد ، فاستبد به حاجبه رضوان ، وحجبه عن الناس . فثار أخوه اسماعيل ابن يوسف وقتل رضوان ، وتولى الملك سنة ٧٦٠ بعد أن نفى أخاه محمداً الى المغرب . فقام أبو يحيى من ولد عمومتــه وقتله واستولى على الملك ، ولكنه لم يلبث أن عاد اليه محمد بن يوسف بمساعدة بنى مرين باتفاقهم مع ملك قشتاله وتلقب بالغنى بالله . ولم يلبث أن قويت شوكته وتوطدت دعائم سلطته لاختلاف ملوك الأسبان بعضهم مع بعض . ولم يضع الغنى بالله هذه الفرصة ، بل عمل بحسن سياسته على استرداد كثير من البلاد التى استولى عليها الأسبان مدة أسلافه . وهو الذى استوزر لسان الدين ابن الخطيب الذى أبلى فى خدمته بلاء عظيما وصحبه فى نفيه إلى المغرب وانتهى أمر الغنى بالله بأن قتله لوشاية به

وقد وفد ابن خلدون على الغنى بالله سنة ٧٦٣ هـ وأقام فى خدمته ، وكثيراً ما كان يستخدمه فى السفارة بينه وبين ملك الأسبان باشبيلية . وكان النجاح مصاحباً له فى سفاراته . ولــكنه بعــد أن أقام فى خدمته ثلاث سنوات استقال خوفا من السعايات والوشايات التى راجت سوقها

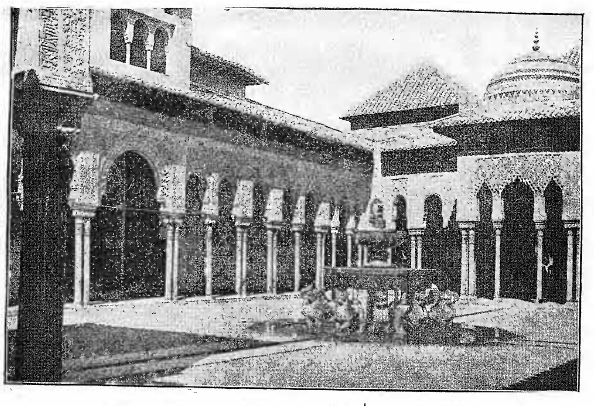
فى البلاد ، وسافر الى بجاية ومنها الى المغرب ثم الى مصر زمن الظاهر برقوق الذى ولاه قضاء المالكية ثم استقال من هذه الوظيفة واشتغل بالتدريس والتأليف حتى مات بالقاهرة سنة ٨٠٨

وجاء من بعد الغنى بالله ابنه يوسف . ثم سعد بن يوسف ثم أبو الحسن بن سعد وكان ضعيف الرأى كثير الميل إلى اللهو وغير مهتم بأمر الدولة ، وهو والد أبى عبد الله محمد من حظيته الأسبانية السيدة ثريا [١] . وكان هائما بحبها لا يكاد يفارق سماءها . وكان له ولدان من السيدة عائشة زوجه الأخرى : هما محمد ويوسف . وكان يقدم ولده من الأسبانية عليهما فدبت الغيرة بين طرفى الأسرة وهرب محمد ويوسف الى القشتاليين . وبمساعدتهم شنا الغارة على أبيهما فكانت له الغلبة عليهما وانقطع بعد ذلك خبرهما . وقد أسر ولده أبو عبد الله فى بعض وقائعه مع الأسبان ، وكان أبو الحسن قد أسنّ وانهزمت صحته وضعف عقله بالاسترسال فى شهواته ، وصار لا يخرج من داره ولا يهتم بأمر الدولة التى كان يديرها وزراؤه كما شاءت أهواؤهم فساءت حال البلاد وكانت فى أوائل ولايته سنة ١٤٧٠ تتكون من أكثر من مائة مدينة بين كبيرة وصغيرة، وضعف ذلك من الأبراج والحصون ومالا يقل عن ذلك من القرى وكان أهلها يقدرون بأربعة ملايين من النفوس ، فأخذ العدو ينقصها من أطرافها ، وانتهى أمر أبى الحسن بان أصيب بالصرع وبفقد بصره ، فتنازل عن الملك إلى أخيه أبى عبد الله الزغل وسافر الى المنكب وبقى فيه الى أن مات

(١) هناك خلاف فى كون أبى عبد الله بن أبى الحسن بن الاحمر أمه حظيته ثريا أو أنه ابن زوجه عائشة . وعلى كل حال كانت ثريا سبباً للفشل فى هذه الاسرة ففرقت بين الاخ وأخيه ثم بين الولد وأبيه مما كانت نتيجته زوال ملكهم والقضاء على دولتهم .

ولقد أطلق الأسبان أبا عبد الله من أسرهم لمناوأة عمه الزغل فأخذ يشن عليه الغارة بمساعدتهم وكانوا ينتهزون فرصة اشتغال المسلمين بأنفسهم ويستولون على أطراف البلاد . وفى هذه الأثناء استولوا على كثير من البلاد الحصينة المهمة مثل مالقه والمرية ، وانتهى أمر المسلمين بأن عرضوا على الزغل وابن أخيه أن يقتسما ما بقى لهم فى البلاد حتى لا يكون خلافهما سببا فى نكاية العدو بالمسلمين . فخرج الزغل الى وادى آش ، واستولى ابو عبد الله حليف القشتاليين على غرناطة ، وكان الاسبانيون يرسلون الى الزغل من يزيد فى الفتنة بينه وبين ابن أخيه صاحب غرناطة حتى سار معهم لحربه : لأن فرديناند غضب عليه اذ لم يقبل أن يسلمه حصن الحمراء . وبعد أن استولى القشتاليون على أغلب الحصون التى حول غرناطة سلطوا على الزغل رجلا من بنى الأحمر اسمه يحيى كان قد تنصر وكان يعيش فى اشبيلية ، فأخذ يخوف الزغل من الاسبان ويحسن له أن يتنازل عن وادى آش لفرديناند ازاء مبلغ كبير من المال ثم يجيز الى بلاد المغرب حتى يكون فى أمن منهم فعمل الزغل بنصحه أو بخديعته وأجاز الى فاس بأموال جمة ، ولكن سلطانها نقم منه مؤازرته للنصارى على المسلمين بما كان سببا فى خذلانهم وضعفهم وضياع ملكهم فصادره فى ماله وسمل عينيه وما زال فى سجنه حتى مات فى أشنع حالات البؤس.

أما أبو عبد الله محمد (والاسبان يسمونه « بوباديل ») فانه ما زال يدفع جيوش النصرانية عن غرناطة حتى صارحه أهلها بأنهم أصبحوا لا قدرة لهم على الدفاع ، وأنهم يقبلون شروط الصلح التى أرسل بها اليهم الملك فرديناند . هنالك سلم أبو عبد الله مفاتيح غرناطة الى فرديناند فى ٢ ربيع



أحد مناظر حوش السباع بقصر الحمراء



الأول سنة ٨٩٧ ! ! ثم هاجر إلى المغرب واستوطن فاسا كاحد أفراد الناس حتى مات بها سنة ٩٤٠ هـ وبقى نسله فيها إلى سنة ١٠٣٧ يعيشون من أوقاف المسلمين المرصودة على الفقراء والمنقطعين ! ! نعوذ بالله من شر نقمته.

ومن هذا تعلم أن ملك بنى الأحمر بعد القرن السابع للهجرة كان مضطرباً لفساد الاخلاق، ولشيوع السعايات والوشايات بين طبقات الناس وخصوصاً الطبقة العالية منهم، مما كان سبباً لكثرة نكبة الملوك لوزرائهم لأية ريبة، ولكثرة الأيدى التى كانت تمتدى على الملوك من ذوى قرابتهم فى الغالب طمعاً فى الملك، ورغبة فى التمتع بتلك الشهوات واللذائذ التى استسلم لها بنو الأحمر فى آخر أيامهم خاصة مدة يوسف ابن الغنى بالله، لضعف رأيه وسوء سيرته وعلى الاخص لخلافهم على الملك، ذلك الخلاف الذى كان يجر إلى حروبهم بعضهم لبعض، واستنصارهم بعدوهم الذى كان ينتهز فرصة هذه الحروب الداخلية فيستولى على بلادهم وحصونهم واحداً بعد الآخر.

وما زالت هذه الفوضى تنتاب كيان البلاد بما أصبح له فساد القلوب عاماً بين العظماء والرؤساء، والناس فيما بينهم كالقطيع لا عقل يقوده ولا رأى يدبره، حتى اذا ضرب الدهر ضربته كان تأثيرها شديدا بحيث انهار لها فى ساعة واحدة هذا البنيان الشامخ الذى أقامه العرب فى ثمانية قرون!!

ولقد كانت محنة مسلمى غرناطة فى مدة السلطان بايزيد الثانى العثمانى، فاتفق مع السلطان قايتباى ملك مصر على مساعدتهم، بأن يرسل بايزيد أسطولا الى أراضى أسبانيا، وأن يرسل قايتباى جيشا من جهة أفريقية،

الا ان بايزيد شغل بفتنة أولاده ، كركود ، وأحمد ، وسليم ووقوع الحرب فيما بينهم حتى آل الأمر بتنازله عن الملك لولده سليم . أما ملك مصر فان فرديناند وايزابلا أرسلا اليه (المسيو بطرهمارتير) سفيراً فأبدى من المهارة ما أقنع به قايتباى بان الاسبانيين انما يدافعون عن أنفسهم هؤلاء العرب الذين غصبوا ديارهم ونهبوا أموالهم وعاثوا فى أرضهم فساداً . وبذلك اكتفى كل من بايزيد وقايتباى بان أرسلا كتبا الى فرديناند وايزابلا ، والى البابا ، والى ملك نابولى ، بعدم ارهاق مسلمى الاندلس ، ولكن صوتهما لم يعمل عملا لان الذى يسمع فى مثل هذه الأحوال انما هو صوت المدافع وصلصلة السيوف .

ولقد كانت ملوك الأندلس كلما وجدوا من الأسبانيين ضغطاً عليهم طلبوا معونة ملوك العدوة ، فيرسلون اليهم بالغزاة من الرجال والفرسان على أساطيلهم فيكشفون عنهم ما نزل بهم . كما كان من المرابطين والموحدين الذين آل اليهم ملك الأندلس ، حتى اذا ضعف الموحدون استولى ملوك الاسبان على أغلب حصون البلاد ومدنها الشهيرة فى القرن السابع الهجرى الذى كان شؤما على مسلمى الأندلس فاستولوا على لَوْشَة ومارِدَة وبطليوس سنة ٦٢٢ وعلى جزيرة مَيُورْقة سنة ٦٢٧ ، وعلى قرطبة سنة ٦٣٣ ، وعلى شاطبة سنة ٦٣٥ ، وعلى بلنسية سنة ٦٣٦ ، وعلى مُرْسية وإشبيلية سنة ٦٤٥ ، وعلى شِلْب وطَلَبيرة سنة ٦٥٩ ، ولم يبق فى يد مسلمى الجزيرة غير غرناطة وضواحيها تحت سلطان بنى الأحمر .

ولما كانت سنة ٦٧٤ ورأى محمد الثانى « الفقيه » أن الأسبانيين يهاجمون بلاد مخشى تغلبهم عليها ، فبعث رسله الى السلطان يعقوب بن



منظر عام لحوش السباع بقصر الحمراء



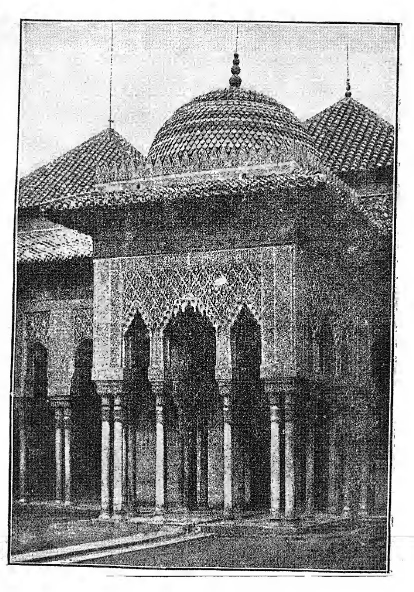
عبد الحق المرينى يستعطفه ويطلب غوثه . فأجاز الى الأندلس بجيوش جرارة ونازل الأسبانيين وهزمهم فى جملة مواقع ، وطلب ملوك الاسبان صلحه فاشترط عليهم ألا يرهقوا المسلمين وأن يبتعدوا عن كل مايؤذيهم، فعاهدوه على ذلك ورجع إلى المغرب بالغنائم التى لاحصر لها . وقد أجاز بعد ذلك جيوشه الى الجزيرة ، وبلغت غزاته الى مجريط . ولكن ابن الأحمر فى هذه المرة خافه على ملكه وتجسمت فى مخيلته صورة ما عمله ابن تاشفين مع بنى عباد ، فاتحد مع ملك قشتاله على حربه ، ولكنه لم يلبث أن رجع عن هذا الرأى الفاسد . وكان الأمير يوسف بن يعقوب سلطان بنى مرين أميرا على الغزاة بالأندلس فأراد أن يقتص من ابن الأحمر فاتفق مع الاذيفونش على الهجوم على غرناطة ، وأرسل ملك قشتالة رسله الى السلطان يعقوب بالمغرب ليقرهم على ذلك ، فلم يرق هذا فى نظره ، وأرسل الى ولده يوبخه على ما أراد من ممالأة النصارى على المسلمين ، ولما علم ابن الأحمر بذلك استغفر يعقوب لذنبه واستقاله من زلته ، فقبل ذلك منه احتفاظا بالرابطة الاسلامية . واجاز ابن الأحمر الى العدوة لتمكين صلته بالسلطان يعقوب فى سنة ٦٩٢ فأكرم وفادته وأعاده الى غرناطة مكرما معظما .

ولم يزل أمر مسلمى الأندلس فى عزة ومنعة الى زمن السلطان ابى الحسن المرينى الذى استنفر مسلمى المغرب الى غزو الاسبان ، وجاز الى طريف بجيش هائل سنة ٧٤٠ . فقصده ملك قشتالة بجيوشه من البر ، وحاصره ملك البورتغال بأساطيله من البحر ، وضيقوا عليه الحصار من كل جهة حتى نفدت الأقوات ، وصار هو وجيشه فى أسوأ الحالات ،

ثم أهجم عليهم الاسبان وهم فى غفلتهم فقتل منهم عدد لا يحصى ، وفر السلطان أبو الحسن الى سَبْتة . وكانت هذه الموقعة من أشأم ما نكب به المسلمون ، وهى ثانية واقعة العقاب ، ولم تقم للمسلمين بعدها قائمة فى الأندلس !!

بعد ذلك ضربت ملوك النصرانية الجزية على مسلمى الجزيرة ، وما زالوا حتى آنسوا من ملوك المغرب وقوع الشقاق بينهم وشيوع الثورات فى داخليتهم ، واشتغالهم بأنفسهم ، وشبوب نيران الفتنة بينهم وبين بنى حفص ملوك تونس وتخاطب الاسبانيون البابا فى طرد المسلمين من غرناطة ، فأقرهم على ذلك . وهنالك فكروا فى الحيلولة بين مسلمى المغرب والأندلس وذلك باحتلالهم ثغور العدوة : فاستولى البورتغاليون على سبتة فى سنة ٨١٨ ، واستولى الاسبانيون على جبل طارق فى سنة ٨٦٩ ، ثم على مدينة بونه سنة ٨٦٧ ، وأعقب ذلك استيلاء البورتغاليين على قصر المجاز فى سنة ٨٦٢ ، وعلى طنجة فى سنة ٨٦٩ ، وعلى أصيله فى سنة ٨٧٦ هـ .

وكانت حالة المغرب فى هذه الآونة فى شدة الاضطراب لاستمرار الحروب بين أفخاذ بنى مرين ، وعلى الخصوص أيام السلطان عبد الحق ابن سعيد ، فانه لضعفه وصل اليهود فى زمنه الى منصة الوزارة وأصبحت لهم الكلمة النافذة : فأرهقوا المسلمين وأوقعوا عليهم كثيراً من المظالم والمغارم ، وحسنوا لابن سعيد الوقيعة ببنى وطاس وهم فرع من بنى مرين وكان منهم وزراؤه وعظماء دولته ، فقبض عليهم وقتلهم ، وفر منهم الشيخ محمد الوطاسى إلى الصحراء فالتفت به قبائل البربر وساروا إلى فاس فاستولى عليها سنة ٨٧٦ ، وبقى سلطانا على المغرب الأقصى إلى أن



منظر قاعة الحكم بقصر الحمراء



مات فى سنة ٩٦٠ . وفى مدته وفد عليه السلطان ابو عبد الله بن الأحمر مع أسرته بعد تسليمه غرناطة فأكرم وفادته وأحسن مثواه

ومن هذا تعلم أن استيلاء الاسبانيين على ثغور المغرب جعل مسلمى الأندلس فى عزلة عن كل معين ، وأصبحت دولة غرناطة محصورة بأساطيل العدو من جهة الجنوب والشرق ، وبجيوشه البرية من جهة الشمال والغرب . وما زالوا يضيقون عليه دائرة الحصار حتى استولوا على غرناطة سنة ٨٩٧ .

ولقد كان عقلاء المسلمين بغرناطة قبل سقوطها بأكثر من قرن يتوقعون لها هذا المصير : فان ابن خلدون كان يتوقع سقوطها من يوم الى آخر فى يد العدو لفساد أخلاق أهلها ولتقاطع الرؤساء وتنابذ الأمراء . وكان ابن الخطيب يقول لأولاده انها أصبحت دار غربة ويوصيهم بعدم التوسع فى شراء العقار بها .

وكان بعض شعرائهم ينصحون لهم بالهجرة من الأندلس لتوقع نكبة الأسبان لهم فيها ومن قولهم فى ذلك :

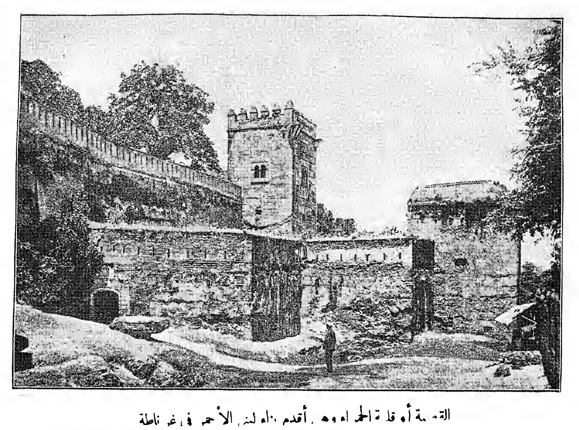
حثوا رواحلكم يا أهل أندلس   فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى   سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لايأمن عواقبه   كيف الحياة مع الحيّات فى سفط

ولقد تحققت نبوتهم . ولما استولى ملوك الاسبان على غرناطة أوقعوا بالمسلمين ثم ما زالوا حتى طردوهم من ديارهم ، وأصبحوا ينطبق عليهم قول عمرو بن الحارث شيخ جرهم :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالى والجدود العواثر

ولما استولى الاسبانيون على غرناطة ووافق هذا الوقت استكشاف كولمب لامريكا، اهتموا بقوتهم البحرية وعنوا عناية شديدة بانشاء الأساطيل وتعزيزها بالرجال الذين لهم دراية بالحرب، وأخذت بحريتهم مدة شرلكان تخرج من جنوة ومن ثغور اسبانيا الشرقية والجنوبية، وتقطع الطريق على مراكب المسلمين التجارية. وفى سنة ٩٢٠ استولت على بجاية ووهران ومدينة الجزائر، وأنشأ الأسبان على سواحل المغرب حصونا ومعاقل كثيرة:

وكان لاربعة أخوة من تجار الاتراك بعض السفن، وكانت مراكب الأسبان تعبث بها فضاقت صدورهم واتفقوا مع محمد الحفصى سلطان تونس على أن يعطيهم ثغراً من ثغوره يلجأون اليه بسفنهم، ويتعقبون سفن الاسبانيين ويمنعونهم من التطاول إلى بلاده، ويعطونه خمس ما يغنمونه منهم، وكان أحد هؤلاء الاخوة واسمه خضر فى منتهى الشجاعة ويسميه الافرنج بارباروس (ذا اللحية الحمراء)، وكانت له معرفة تامة بالطرق البحرية، فأخذ يتعقب سفن الاسبانيين حتى استولى منهم على بجايه ثم على ثغر الجزائر سنة ٩٢٢، وبعث بمفاتيحها مع هدية ثمينة إلى السلطان سليم الأول العثمانى. فأرسل اليه السلطان بتوليته وزيرا على الجزائر، وبعث اليه بأسطول من أساطيله وبفرقة من العساكر العثمانية، فاستولى بمساعدتهم على أقليم الجزائر جميعه، وأخذ أسطوله يجوب مياه البحر الأبيض فألقى الرعب فى قلوب الأوربيين. ثم سار



القصبة أو قلعة الحمراء وهي أقدم بناء لبني الأحمر في غرناطة



إلى سواحل اسبانيا وأنقذ كثيرا من المسلمين الذين كانوا يرزحون تحت عبوديتهم للأسبان . فانضم إلى أسطوله كثير منهم وأبلوا بلاء حسناً فى حروبهم مع الأسطول الأسبانى الذى كان تحت قيادة أميرم البحرى الشهير اندريا دوريا .

وباربارورس هـذا هو الذى تسمى أخيراً باسم خير الدين باشا الذى ولاه السلطان سليمان القانونى رياسـة البحرية العثمانية . واشتهرت فى مدته بحروبها وانتصاراتها على اساطيل أوربا المتحدة . ولولاه لكانت اسبانيا تغلبت على جميع ممالك الغرب مدة الملك شارلكان الذى جمع كلمة أوربا على حرب المسـلمين براً وبحراً . فانتصر عليهم السلطان سليمان فى الأولى ، وخير الدين فى الثانيـة . وأعقب ذلك استيلاء العثمانيين على طرابلس سـنة ٩٥٠ ، ثم على تونس فى سنة ٩٨١ هـ ، ولم يزل العثمانيون مستولين عليها حتى تم استيلاء فرنسا على الجزائر سـنة ١٢٥٤ هـ ، ثم احتلت جيوشها تونس سـنة ١٢٩٨ . وأعقب ذلك استيلاء ايطاليا على طرابلس فى سـنة ١٩١٢ م والله تعالى يرث الأرض ومن عليها بيده الأمر يعز من يشاء ويذل من يشـاء ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

الرسالة السادسة

دخول العرب اسبانيا

لما ثبتت قدم موسى بن نصير فى ولايته على طنجة أرسل طريفاً مولاه ومعه ثلثمائة رجل من العرب ، فنزل بالمكان الذى تسمى باسمه فى الجنوب الغربى من الجزيرة ، فغزوا البلاد القريبة من الشاطىء ، ورجع غانما من غير أن يعترضه أحد من الاسبانيين ، وسهل على ابن نصير أمر الفتح فأمر مولاه طارقا سنة ٩٢ هـ بالجواز الى بلاد الاندلس فركب البحر لوقته ومعه ثلثمائة من العرب وتبعهم عشرة آلاف من البربر ، وطلع على لسان الجبل الذى تسمى باسمه وزحف على الاندلس ، فقابله الملك لذريق بجيوش القوط ، فهزمهم طارق فى واقعة شريش ، ومات لذريق بها من جراحه . وما زال طارق يتقدم فى الفتح حتى وصل إلى طُلَيْطلَة وكتب الى مولاه موسى بذلك . فاجتاز هو ايضاً لوقته بجيش من البربر ، وطلع على الجبل الذى تسمى باسمه (جبل موسى) بجوار الجزيرة الخضراء ولحق بطارق ، وما زال يتقدم فى فتوحاته حتى وصل الى برشلونه ، ثم رجع الى المغرب ومعه طارق بعد أن رتب أمور البلاد وعين حاميتها على ثغورها ، وجعل ابنه عبد العزيز واليا عليها تابعاً لولاية المغرب وجعل مركزه قرطبة ، وكانت ولاية المغرب تابعة لولاية مصر .

وجبل طارق هو تلك الصخرة التى تمتد الى البحر فى جنوب أوربة الغربى وطولها ٤٥٠٠ متر ، وعرضها ١٤٠٠ متر ، وتكون مع اللسان الذى يمتد من الشمال الغربى لافريقية خليج الزقاق الذى اشتهر أيضا بمضيق

جبل طارق ، وهو يفصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والاقيانوس الاطلانطى ، ومسافته فيما بين سبتة وجبل طارق ٢١ كيلو متراً : وهى التى عبر منها طارق الى اسبانيا

وترى على الدوام تيارا شديداً يدخل من المحيط الى البحر الأبيض وفى غالب أيام السنة يتكاثف فى جوه الضباب الذى هو من لوازم هذا الاقيانوس بحيث لا تمر فيه المراكب الا على حذر شديد ، ويكاد صفيرها لا ينقطع خوفا من مصادمتها بما عسى أن يكون أمامها من مراكب أخرى . ولقد ركبت هذا الاقيانوس فى سفرى الى بلاد الانكليز من طريق البحر غير مرة . وكثيراً ما كان يخيم الضباب على مركبنا حتى كنت اذا مددت يدى الى عينى لا أرى منها الا خيالا أشبه شىء بأثر أشعة رنتجن : وهنالك تحقق لى معنى المثل المشهور « ظلام لا ترى كفك فيه » وقوله تعالى « ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها » وخطر ببالى أن هذا هو علة تسمية العرب للاقيانوس الاطلانطى ببحر الظلمات . وقد يستمر هذا الضباب أياما متوالية وهناك يكون الخطر على المراكب التى تقطع البحر الى امريكا . وحسبك انه كان سبب غرق السفينة تيتانيك قبيل الحرب العالمية وهى تلك السفينة الهائلة التاريخية التى يعد غرقها من أكبر الخسائر على الانسانية بما كانت تحمل من رجال علم وعمل، وما كان فى جوفها من الأموال والتحف التى تقدر بملايين الملايين.

ومن ذلك ترى ماعاناه طارق فى جوازه مع رجاله خليج الزقاق ومعهم خيلهم وأداة حربهم ومؤنتهم ، خصوصا انهم كانوا يجوزون الى عدوهم فى فلك لم تكن موافقة ولا واقية . ولكن الله تعالى وقاهم شر

البحر والبر لبسالتهم وقوة عزائمهم وحسن يقينهم سبحانه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

من يقول ان شرذمة قليلة من العرب تقطع البحر من افريقية الى اوربا سنة ٧١١ وتستولى على الاندلس ، ثم على اسبانيا والبرتغال ، وتجتاز جبال (البرينيه) على مناعتها وما فيها من قمم عاليات ومفاوز وهاويات ومثالج ومعارج لا يقطعها غير العارفين بمساربها ومنافذها ، ثم يدخلون أرض فرنسا ويكتسحونها الى بواتييه وهى على بعد ٣٣٠ كيلو متر من الجنوب الغربى لباريس وكل ذلك فى عشرين سنة ؟ ؟

ولولا أنهم شغلوا فى ذلك الوقت بما نالت أيديهم من الغنائم والأسلاب وما وقع فى حوزتهم من الأموال التى نلءت بها كواهلهم ماهزمهم شارل مارتيل الذى نادى فى أوربا بالحرب الصليبية سنة ٧٣٢ فى هذه الواقعة التى مزقت جيوشهم فى فرنسا وألجأتهم الى العودة الى أسبانيا ، فأناخوا بها وجعلوها وطناً جديداً وأنشأوا فيها ملكاً مجيداً بقى أكثر من ثمانية قرون انتهت بخلافهم على الملك واستنصار بعضهم بعدوهم على بعض ! ! حتى خارت قواهم وضعفت عزائمهم وأصبحوا من المستضعفين ! ! وانتهى أمرهم بأن طردهم الافرنج من جزيرة الأندلس ومزقوهم كل ممزق ! !

أتى على الكل أمر لا مرد له   حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

واذا كان للأفراد جراثيم مرض تدخل جسومهم فتقودها الى الموت فالخلاف هو جرثومة فساد الأمم اذا دخلها قادها الى الضعف ثم الى الفناء .

وأظن أننا جربنا ذلك فى أنفسنا أخيراً حتى كادت تمحى به صحيفة قوميتنا من عالم الوجود . والأمم على كل حال فريسة ضحية اختلاف الرؤساء فى كل وقت وفى كل حين ! ! وليست للتاريخ من عبرة ولا للأيام من موعظة بل التاريخ يعيد نفسه . وغدك أشبه شىء بيومك ويومك أشبه الأيام بأمسك : سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

اذا ما أراد الله إذلال أمة رماها بتشتيت الهوى والتخاذل

ومن باب زيادة الفائدة أقول لك شيئاً عن تاريخ جبل طارق الذى تمتد عليه الآن الاستحكامات الانجليزية فى طول ثلاثة كيلو مترات ، ثم تنتهى بمنطقة حرة قدرها ٥٠٠ متر قبل اتصالها بأراضى اسبانيا ، ومن دون هذه الاستحكامات مدينة جبل طارق التى بناها وشيد حصونها عبد المؤمن بن على أمير الموحدين سنة ٥٥٥ · وعدد أهلها الآن ٢٠ الف نفس وأبنيتها متدرجة على البحر وعلى مسافة ٨٠٠ متر من الشمال الغربى للاستحكامات الانجليزية . وأهل المدينة غالبهم من الاسبان ومنهم كثير من اليهود ، وهى كثيرة الحرارة فى الصيف بما لا يقل عن ٤٠ درجة سنتجراد ، لذلك ترى أهلها يكثرون من شراب الليمون كما يكثر أهل مدن أسبانيا عامة من شراب البرتقال ويسمونه نارنجا .

وهذه المدينة على الدوام مغطاة بالضباب وفى حالة حصار . وهى فى يد الانجليز من سنة ١٧٠٤ م حين استولى عليها السير جورج روك الذى كان يقود الأساطيل الانجليزية من غير أن يطلق عليها طلقاً واحداً . وكان ذلك بأشارة الرئيس كرامويل الذى كان يرى حصانة هذا الموقع وتحكمه فى البحرين . وفى سنة ١٧٨٣ حاصرت فرنسا وأسبانيا جبل طارق

ولكن الانجليز تغلبوا على جنودهما وطردوهم من هذه المنطقة . وهم من ذلك الوقت متسلطون على البحرين بل على سواحل القارات الثلاث مما يلى البحر الأبيض المتوسط .

ولهذه المدينة ذكرى مؤلمة فى نفس كل مصرى منذ نفى الانجليز اليها المغفور له سعد زغلول باشا زعيم الحركة القومية فى مصر لغير سبب اللهم الا قيامه للدفاع عن حقوق وطنه .

للعبرة والتاريخ

بعد أن ترك موسى بن نصير الأندلس الى المغرب بالغنائم والأسلاب التى لا يحصيها العد ، وصل اليه أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بالاسراع اليه بما فى يده من الغنائم . وكان المرض قد اشتد به حتى أصبح لا أمل فى شفائه . ولكن أخاه سليمان وهو ولى الأمر من بعده أرسل الى موسى يستبطئه فى سيره رجاء أن تصير الغنائم التى معه لنظره وأمره . غير أن موسى لم يكن أمامه غير الأذعان لأمر خليفته الذى تجب طاعته اذعانا يأمر به الدين والعقل جميعاً قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . وأسرع موسى فى سيره حتى وصل الى دمشق قبل موت الوليد بثلاثة أيام . فلما ولى سليمان الخلافة ، أمر بالقبض عليه وبحسابه حساباً عسيراً كان من ورائه نكبته ، [1]

---

(١) يظهر أن سليمان كان مريضاً بنكبته لكل نابغ من قومه : فانه ما كاد يجلس على كرسى الخلافة حتى نكب ابن نصير وهو الذى مهد للأموية بلاد المغرب والاندلس ، ولم ينصف طارقا صاحب الفتوحات العظيمة باسبانيا ثم قضى على آل الحجاج بن يوسف وهم الذين مهدوا للأمويين الحجاز والعراق وخراسان وليس لهؤلاء من ذنب إلا كونهم من رجال أخيه الوليد بن عبد الملك ولقد كانت نكبتهم سبباً لخروج قتيبة بن مسلم الباهلى والى خراسان على سليمان لخوفه منه وما زال فى ثورته حتى قتل .

لا لشيء الا أنه أطاع أمر من كان له الأمر إذ ذاك ، وأعقب هـذا مصادرته فى كل شيء : مصادرته فى ماله ، وفى حريته ، وفى نتائج انتصاراته الباهرة التى إن نسيها له سليمان فان التاريخ لا يستطيع أن ينساها وبعد هذا كله أقسم سليمان بأنه لا يخرج من محبسه الا اذا اشترى نفسه بخمسين الف دينار لم يكن يملك منها قليلا ولا كثيراً !! وما زال فى سجنه حتى دفعها عنه يزيد بن المهلب ليد كانت له عنده . ومات موسى منفياً فى المدينة سنة ٩٨ هـ وهو فى محنته بائساً فقيراً بعد أن مات قبل موته ما كان له من مواهب جليلات، وصفات ساميات، حرم الاسلام الانتفاع بها ثلاث سنوات أو تزيد !!

ولم تقف نقمة سليمان عند شخص موسى بل تعدته الى ولده عبد العزيز والى الأندلس ، فقد دس عليه من قتله فى شوارع قرطبة ، على ما كان فيه من دين وعلم وشجاعة وبعد نظر وحسن ادارة : وذلك خشية أثآره لوالده . بل تعدتهما نكبة سليمان الى كل بنى نصير ! !

وبالجملة قد كان قيام موسى بهذا الواجب سبباً فى نزوله من سماء المجد والعز الى حضيض الذلة والهوان . وما كان أحراه لو كان أطاع

ولقد كان سليمان فى نكبته لأعاظم دولته مثالا رديئا للخلفاء من بعده . فقد قتل يزيد بن عبد الملك يزيد بن المهلب . ونكب الوليد بن يزيد خالد بن عبد الله القسرى . وكل هؤلاء من الافذاذ الذين لم تنجب أمهات العرب أمثالهم . وهم الذين لهم اليد الطولى فى فتوحات الامويين وتوطيد دعائم ملكهم . وبموتهم ماتت الدولة الاموية فى الشرق ولم تقم لها بعدهم قائمة .

وقد حذا العباسيون حذو الامويين فى محنتهم للرؤساء وأعاظم القواد . فعمل السفاح لقتل أبى سلمة الخلال ، وقتل المنصور أبا مسلم الخراسانى بعد أن قامت على رأسيهما وبايديهما الدولة العباسية . ثم نكب يزيد بن هبيرة بعد أمانه له : ونكب المهدى وزيره يعقوب بن داود . ونكب الرشيد البرامكة . ونكب المعتصم وزيره الفضل بن مروان . ونكب المتوكل الوزير ابن الزيات ونكب الراضى وزيره ابن مقلة : وكلهم من خيرة رجال الدولة العباسية الذين كان على أيديهم رقيها وعظمتها .

سليمان أن يكون خائنا لمولاه مخالفا لأمر الله ،بائعاً محمدة يومه بمنقصة غده . ولو كان موسى يعرف غير الطاعة فى حقيقتها لكان أمكنه أن يعتذر بأىّ عذر عن السير الى المشرق . ولو وصل بعد نظره الى ما آل اليه أمره لكان أعلن استقلاله بالبلاد التى افتتحها بسيفه وهو فى أمن من نقمة الخليفة لبعد الشقة وصعوبة المواصلات . ولكن اذا كان سليمان ابن عبد الملك قد ظلم موسى فى نكبته اياه ظلماً لا يغتفره له التاريخ،فهل أنصف موسى مولاه طارقا بعد فتحه للأندلس ؟ أم نكبه هو أيضاً حتى خفى أثره وانقطع خبره لحسده له على ما آتاه الله من فتح مبين ظهرت فيه مواهبه السامية ، وعبقريته النادرة ، وبلاؤه الحسن ، مما سجلته له الأيام ونقشت اسمه بمادة الجلال والفخار على صفحة ذلك الجبل الذى يشرف شمالا وجنوبا على القارتين أوربا وأفريقية ، وشرقاً وغرباً على البحرين الأبيض والاطلانطى

الرسالة السابعة

الأندلس مدة الأمويين

استولى العرب على اسبانيا وهم لا يملكون شيئاً . وكانت وجهتهم الفتح ، وفكرتهم ممتلئة بعظمة الدين وفضيلته ، ونفوسهم تترفع عن الدنايا ، وأيديهم تعف عن أموال المغلوبين ، وقلوبهم كلها رحمة بهم : لهذا كله كانت أقوى الجيوش لا يمكن أن تقف أمام قلوبهم الحديدية التي كانت متى اتجهت الى شيء فتتته مهما كانت قوته وصلابته ، بل كانت البلاد تفتح لهم أبوابها لما عرفته فيهم من العدالة والابتعاد عن كل مظلمة ، ولأن الجزية التي كانوا يضربونها عليها كانت أقل من الضرائب التي كانت تأخذها ملوكهم منهم . ولما اتسعت فتوحاتهم وعظم ملكهم وضخمت ثروتهم وضربوا بجرانهم في الأندلس (وكانوا يطلقونه على أملاكهم باسبانيا والبرتغال) عنوا بكل أسباب الحضارة : فاهتموا بالزراعة وشقوا الترع وحفروا الخلجان وغرسوا الأشجار ومهدوا المزارع ونظموا المروج ورتبوا الرياض وتسابقوا في تشييد الدور وتعلية القصور حتى أصبحت هذه البلاد بهم جنة قطوفها دانية ، وثمراتها جانية . وكان الناس على اختلاف طبقاتهم ينعمون في مهاد الثروة وما يحيط بها عادة من اللذائذ المتباينة . ووصلت الخلافة الأموية الغربية في ذلك الوقت الى مالم تكن تحلم به العرب من عظيم السلطان وجسيم الثروة ووافر الحرمة وواسع العمران وبارق الحضارة ، الى حد جعل العربي الذي وصلها وليس في وفاضه غير لقيمات من الشعير يسد بها جوعته ، وعلى جسمه لباس

خشن يسترعورته ، أصبح يرفل فى الدمقس والحرير ، ويأ كل الحلوى والفطير ، ونسى ما كان يسمع عنه فى الكتب من فالوذ الدولة الشرقية (بالألماسية) الغربية .

وقد بلغت عظمة السلطان فى اسبانيا أوجها فى مدة عبدالرحمن الناصر الأمويّ ، وهو السابع من أمرائهم وأول من سمى بأمير المؤمنين فى هذه البلاد، وكانوا يشبهونه بالرشيد لضخامة ملكه وفخامة دولته وعظيم ارادته وكبير سياسته وواسع علمه وكرمه. كما كانوا يشبهون ولده الحكم بالمأمون لما كان له من ذهن حاضر وعلم وافر ونظر ثاقب ورأى ناضج وعقل راسخ ومجد باذخ ولاهتمامه بالشؤون العلمية وعنايته بنشرها فى بلاده باكثاره من معاهدها واستقدامه لكتبها المختلفة من كل جهة من جهات الشرق،حتى كون داركتبه التىكان فيها مئات الألوف من الكتب الثمينة النادرة . وبحكمها قامت العظمة الاسلامية فى هذه البلاد بكل مظاهرها ،من فتوحات موفقة،وثروة متدفقة، وعلوم جمة، وفنون مهمة، وأملاك شاسعة ، وتجارة واسعة ، وصناعة باهرة، وزراعة ناضرة،وحضارة ومدنية لم ير مثلها فى الأندلس فى أيامها السابقة ولا اللاحقة . وكانت ملوك الفرنجة المتاخمين لأرضهم يدفعون لهما الجزية عن يد وهم صاغرون.

ولقد كانت مدنية قرطبة عاصمة الأندلس زهرة البلدان فى الغرب ، كما كانت بغداد زهرتها فى الشرق ، وكانت شمسها تنبعث منها أشعة العلوم والعرفان والمدنية بجميع مظاهرها وظواهرها الى كل نقطة من المسكونة شرقية أو غربية . وكانت بغداد ودمشق وخراسان والاستانة ومصر وغيرها من العواصم المشهورة تحمل اليها ما اكتمل من صناعاتها

ونادر كتبها ومختلف تحفها لبيعها فى أسواقها الفنيـة التى كانت تكتظ بالأموال والهواة من النساء والرجال . لذلك كانت مدنية القوم تأخذ بطرف من مدنيات هذه البلاد ، وهى اذا ظهرت لك شرقية من جهة ، بانت عليها مسحة تتفق مع الذوق الأوربى من جهة أخرى : سواء اكان ذلك فى صناعتها أم فيما فيها من فن ونقش ورسم وتصوير .

ولو نظرت الى شعرائهم وكتابهم لوجدت لهم صيغا خاصة بهم ألبسوها معانى جديدة جمعت بين حسن الصنيع ولطف البديع . ولو نظرت الى علمائهم لرأيتهم بعيدين عن الجمود الذى تراه فى غيرهم . ولو نظرت الى فلاسفتهم لوجدتهم قد صاغوا من فلسفة أرسطو وأفلاطون ما كان أساساً للفلسفة الجديدة التى بنى كانت وديكارت وبيكون واسبنسر عليهـا فلسفتهم التى تتألق أشعتها الآن فى أوربة . ولو نظرت الى موسـيقاها وأغانيها التى يسمونها بالاندلسيات تراها تتملك اللب وتأخـذ بالقلب وتستهوى العقول بنغماتها الشجية . وإذا سمعت نغماتها الحالية خصوصاً تلك القطعة التى يسمونها (ڤلنسيا) التى لها كبير التأثير حتى فى عظماء علماء هذا الفن فى أوربة عرف أنها أثر من تلك الأغانى العربية القديمة التى وضع قواعدها زرياب .

وكان زرياب من أعلام المغنين بالشرق أخـذ الغناء عن اسحاق الموصلى وتفوق تفوقاً كبيراً خاف على أثره من معلمه اسحاق لقربه من الخليفة الرشيد ، فهاجر الى الأندلس سنة ١٣٦ ووصل اليها مدة عبد الرحمن بن الحكم فبالغ فى اكرامه وأفاض عليه من أنعامه ، بما كان يقدر دخله بأربعة آلاف دينار ، وجعله عمدة المغنين . وقد رقى زرياب صناعة

الغناء بالأندلس واخترع للموسيقى نظاماً جديداً وأضاف الى العود وتراً خامساً وكان قبله على أربعة أوتار فقط ، ووضع طرقاً للغناء أصبحت علماً خاصاً اشتهرت به الأندلس لتفوقها فيه ولا يزال أثره فيها الى الآن.

والرقص الاسبانى الحالى هو ذلك الرقص العربى اتصلت به خفة الراقصات ورشاقتهن وتفننهن فى حركاته ، فى جيئاته وروحاته . وبالجملة قد انتهى القرن العاشر المسيحىّ بعظمة الحكم الأموىّ بالأندلس ، بعد أن استمر ثلاثة قرون مصدرا لكل أنواع المدنية ، ومظهراً لعظمة الحضارة الأندلسية ، فى كل طرف من أطراف المسكونة . ولقد كانت المكاتب العمومية والخصوصية مدة حكمهم غاصة بنفائس الكتب ، ولولا ما صادف كتب الأندلس من نكبات التحريق والتمزيق من العامة فى أواخر الحكم الأموى وخصوصا مدة المرابطين والموحدين بدعوى أن فيها فروعا تخالف الأصول فى جوهرها ، وأن ما فيها من قواعد الفلسفة يخالف قواعد الدين ، لكان ما وصل الينا منها أكبر برهان على أن القوم قد وصلوا الى سنام مجد العرفان ، فى ذلك الزمان . وأكبر النكبات التى صادفت الكتب فى الغرب هى تحريق النصرانية لها بعد استيلائهم على غرناطة : فقد أحرق فى هذه المدينة وحدها بأمر الكاردينال اكشمنيس ٨٠ الف مخطوط عربىّ وهى نكبة أشبه شىء بنكبة الكتب فى الشرق فى منتصف القرن السابع الهجرى حيث أمر هولاكو بعد استيلائه على بغداد بأن يعمل منها جسر فى الدجلة لجواز جيوشه عليه من شاطىء الى آخر.

وكانت المدارس فى عهدهم عامرة بالتلاميذ ، والمعاهد العلمية مكتظة

بالطلبة من سائر الأقطار . وكم قد تخرج فى هذه المعاهد من فحول علماء المسلمين فى كل فن وفى كل علم : أمثال ابن رشد فى الفلسفة وابن زهر فى الطب وابن فرناس فى الرياضيات وابن زيدون فى الأدب وابن أبى عامر فى الانشاء وابن حزم وابن باجه فى الفقه والشاطبى فى القراءات وغيرهم وغيرهم ممن يضيق المقام عن ذكرهم . ولا زلنا الى اليوم نقرأ أسماء من انتسب منهم الى مدينته كالقرطبى والاشبيلى والمالقىّ والبطليوسى والمجريطى وغيرهم من العلماء الأعلام الذين لهم قدم صدق فى الاسلام .

وكان البابا سلفستر الثانى وليون الثمين أحد ملوك الاسبان من خريجى جامعة قرطبة . وبالجملة كان أمر هذه المدرسة فى الغرب كما كانت مدرسة الاسكندرية فى الشرق وهى فى أبان عظمتها : يؤمها الطلبة من كل فج حتى من الرومان واليونان ، وكما هو الحال اليوم فى مدارس أوربا التى يقصدها الناس من كل جهات العالم للتعلم فيها . تلك سنة الخليقة : يقلد الضعيف القوىّ حتى فى مأكله ومشربه ولباسه . وقد يذهب بعض من لا خلاق لهم الى تقليده فى الضار لا فى النافع ولله فى خلقه شؤون .

وكانت ملوك أوربا تستقدم الأطباء من العرب وتستشيرهم سواء أكانوا من المسلمين أم من اليهود . والعرب أول من نظم البساتين لدراسة النبات فى أوربا . وهم أول من وضع جامعة سالرن بايطاليا وهى أول جامعة نشأت بأوربا كما يعترف به العلامة الامرليون كشيانى المؤرخ الايطالى كما تنسب اليهم جامعة مونبليه الطبية بجنوب فرنسا وهى لا تزال شهرتها معروفة فى مصر ، ويقصدها الآن كثير من الطلبة المصريين .

وقد بنى الخلفاء الأمويون قصور الزهراء خارج قرطبة ، وكانت آية من آيات الزمان ، بل جنة من جنات الخلد ، وصل التأنق فى مبانيها ونقوشها وفروشها وأثاثها ورياشها الى ما ذكره مؤرخو العرب بما يعسر على العقل تصوره . ومن عجيب ما كان فيها بحيرات من المرمر يتفجر ماؤها من أفواه طيور من الذهب ، وكان يحيط بالبحيرات تماثيل أسود من الذهب ينزل الماء من أفواهها الى بساتينها التى كانت فى نظامها تدهش الأبصار وتبهر الأنظار .

وكان فى أبهائها الكبرى صور ورسوم كثيرة للجمال النسائى فى جملة أوضاع تلفت الساجد وتفتن العابد ، والى جانبها كثير من مناظر الصيد من حمر وحش وسباع وغزلان وطيور فى صور مختلفة . وبالجملة كانت الزهراء مما لا يتيسر لواصف وصفه : ولقد أتى الحريق على أغلب مبانيها زمن المهدى بن هشام بن الحكم ، وقضى على باقيها الجهل ثم القشتاليون بعد استيلائهم على المدينة ، ولم يبق منها الآن غير اطلال تنعى ما كان فيها من عظمة وجلال ، وما كان بين جدرانها من فخامة وجمال . ولقد بنى المنصور بن أبى عامر بقرطبة قصر الزاهرة وكان آية فى عظمته وحسنه ، وقد محته يد الزمان وسبحان من تفرد بالبقاء .

وقد عثروا سنة ١٩١٠ فى أطلال الزهراء على آجر مكسو بطبقة من الذهب وعلى أشياء كثيرة عليها صور طيور وسباع وصور نساء عاريات مما يثبت ما جاء فى التاريخ عن مدنية (١) الأمويين بالأندلس .

---

(١) جاء فى خطبة المسيو لاجيير دو مستيم LEGIERE DE MISTEYME فى مؤتمر المستشرقين بمرسليا سنة ١٨٧٦ : « أن القوط فى هجومهم على فرنسا تحت قيادة ألاريك فى مبدأ القرن الخامس المسيحى لم يتركوا أثرا فى البلاد التى افتتحوها . أما العرب فقد تركوا فى

ولما تجاوزت الرفاهية فيهم حدودها استسلم الخلفاء الأمويين فى آخر أمرهم الى ملاذهم وأخذوا يحتجبون عن الناس فى قصورهم ، وكان اذا حضر المنشدون أوالسفراء تكلموا من وراء حجاب، ويقف الحاجب من دون الستر فيكرر ما يقولونه ، ثم يجيبهم بما يقول الخليفة .

البلاد التى احتلوها أثراً لايزالون يذكرون به الى الآن . لأنهم لم يقتصروا على ادارة شؤون هذه البلاد التى وضعوا يدهم عليها مثل ناربون ، وبروفانس وغيرها . بل قاموا بعمارتها فى وقت كانت فيه دولتهم قائمة على أساس متين من الحضارة والمدنية . ولقد كان شانسو (شانجه) أمير ليون يذهب الى بلادهم لاستشارة أطبائهم بالذات . كما أن الراهب جربير GERBERE تعلم فى مدارسهم قبل أن ينتخب لكرسي البابوية باسم سلفستر الثانى . وكذلك بطرس فنرابل PIERRE LE VENÈRABLE وقسيس كولونى L'ABBÈ DECLUNY تعلما فى مدارس قرطبة .

والى القرن الخامس عشر ما كانت فرنسا تعرف أسماء المؤلفين اليونانيين الا من طريق ترجمة كتبهم فى أسبانيا الاسلامية . وقد أخذت فرنسا عنهم العلوم المختلفة ، وأسالب الزراعة وتعلمنا منهم حفر الترع والخلجان ، ونظام الرى ، وأخذنا منهم حاصلات الشرق من الحبوب والأشجار والنبات التى زاولوا زراعتها فى الأندلس وعالجوها حتى صارت صالحة للزراعة فى أوربا .

والى الآن بين أيدينا من أعمالهم منسوجات ثمينة جدا فى كنيسة سان تروفيم S.TROPHIME بأرل . وفى سانت سيزير . وسانت آن فى مدينة آن ، الى أن قال — وفى القرن العاشر دخلت النقوش الرومانية الى بلادنا بوساطتهم . وأن العالم مسيو ريقوال استكشف فى كنيسة القديس بطرس قرب أرل نقوشا عربية جميلة جداً ، ثم قال — ان الدم العربى لايزال فى جنوب فرنسا خاصة فى سيرست SERESTE وفى بلاد أخرى من جبال الالب . وقد وجد العالم الدكتور جوس D. GOSSE فى ألسفوا وفى سويسرا وعلى بحيرة كونستنزا أناسا كثيرين صورهم شرقية وسحنتهم عربية صرفة ولهم لغة خاصة بهم ولا يزال أهل تلك الجهات يسمونهم الشرقيين أو أبناء الوثنيين .FILS DEPAÏNS

وقد جاء بتفال فى السياسة الاسبوعية فى أول يناير سنة ١٩٢٦ بامضاء م . ج . يس ما ملخصه :

« ومدينة كوزيليه القريبة من كونتر اكسفيل لا يزال أهلها فى عزلة عن الفرنسيين ولا يتزاوج بعضهم الا من بعض ولهم لغة خاصة بهم ومن عاداتهم أنهم لايقيمون المراقص فى احتفالاتهم ومعظم نسائهم محتجبات ولا يزال فى كثير من أسمائهم لفظ « الله » كعبد الله وفتح الله . وهم يحفظون نسبهم ويفتخرون بأنهم من سلالة الفاتحين — الى أن قال : « والعرب هم الذين أدخلوا صناعة البسط والسجاجيد الى مدينة أوبسون واقتبس الفرنسيون منهم انشاء السفن » .

وانا لو عرفنا أن مدينة كوزيليه بجبال الفوج ، وأن العرب وصلوا فى فتوحاتهم الى اقليم بروفانس وهو يشمل المنطقة التى بين نيس ومرسيليا الى الدوفينيه شمالا ولنجدوك غربا وكان مستقلا ولم ينضم الى حكم فرنسا الا فى زمن شارل الثامن ، ثم نهضوا الى الشمال واستولوا على

ومن ذلك ان ابن مقانا الاشبونى ألقى قصيدة له على مسمع من الخليفة المحتجب ادريس بن يحيى الحمودى قال فى آخرها :

انظرونا نقتبس من نوركم — انه من نور رب العالمين

فرفع الخليفة الستر وقابل وجهه بوجهه وأجازه جائزة حسنة .

ويظهر أن هذه الحالة بقيت مستمرة فى ملوك المغرب الى زمن قريب : سمعت أستاذنا المرحوم الامام الشيخ محمدا عبده يقول : أنه فى زيارته الى تونس ذهب لمقابلة سمو الباى ، فوقف بينهما ترجمان فكان اذا قال الشيخ جملة كررها الترجمان الى الباى ، واذا قال الباى شيئاً كرره الترجمان للشيخ ، حتى انتهى الحديث بهذه الوساطة وكل ذلك باللغة العربية . ومع أنى لا أفهم معنى لوجود الترجمان هنا وهناك قد تكون الحال فى الأمرين ليست بواحدة : لأنه كان فى عهد الخلفاء مظهرا للضعف المبرقع ، أما فى هذا العهد فهو أثر من آثار الضغط الفرنسى الذى يقيد على البايات حريتهم ويعد عليهم أنفاسهم حتى فى كلمات تخرج من أفواههم خصوصاً مع الغرباء ولا سيما أمثال الشيخ عبده .

مدينة نيزانسون ، عرفنا أن هؤلاء الفاتحين قد انقطع عليهم خط رجعتهم بعد هزيمة اخوانهم فى پواتييه ، فاقاموا فى هذه الجهات الجبلية فى منطقة دفاع حتى انتهى أمرهم بالصلح مع أهل البلاد على أن يقيموا فى المدينة التى كانت فى أيديهم . ومن ثم اشتغلوا بالزراعة التى لم تكن معروفة فى تلك الجهات واندمجوا فى أهلها على مر الايام وان كانت لا تزال عليهم مسحة شرقية صرفة فى سحنتهم ولغتهم وعاداتهم تكاد تميزهم عن غيرهم . والذى يدعونا الى هذا الفرض هو كونهم لا يزالون يسمون أبناء الفاتحين .

وقد يكون هؤلاء العرب وصلوا الى تلك الجهة بعد طردهم من أسبانيا لأن فرنسا فتحت لهم أبوابها فى أواخر القرن السادس عشر مدة الملكة مارى دومسيس ، فانتفعت بهم انتفاعا ماديا وأدبيا .

للعبرة والتاريخ

كان أمراء العرب بالأندلس فى أول أمرهم قائمين بأمر الفتح ، فلما جاء الأمويون وكانت البلاد قد تمهدت لهم وضعوا أساس الدولة، ونظموا داخليتها ، ورتبوا أنظمتها ،وجعلوها مصدر الحضارة الاسلامية الغربية، ومحل ازدهار المدنية الغربية .وكانت سياستهم مبنية على التسامح ،بعيدة عن الجور والظلم ، وبذلك انتشر الدين الاسلامى فى مدتهم بين الاسبانيين من غير مبشرين ولا منذرين ، بل كانت سماحة الشريعة الاسلامية هى السبب فى انتشاره فى أنحاء البلاد المفتوحة ، فأسلم كثير من نصارى الاسبان واندمجوا فى المسلمين، وتكلموا لغتهم وتأدبوا بآدبهم، حتى أصبح أبناؤهم ولا فرق بينهم وبين العرب فى شىء . وظهر منهم كثيرون فى الهيئات العلمية ، ومنهم من بقى على اسم أبيه كابن بشكوال، وابن بونه ، وابن برال ، وابن سلبطور وابن غرسية . بل وصل اندماج الغالبين بالمغلوبين الى أن العرب كانوا يزيدون على أسمائهم نهايات لاطينية أو افرنجية صرفة : فمنهم من أضاف الى اسمه الواو والنون فقالوا: زيدون فى زيد . وعمرون فى عمرو . وخلدون . وبدرون . ووهبون . وحفصون . وزرقون . وعبدون . وهكذا . ومنهم من زاد فى آخر الكلمة الواو والسين أو الياء والسين . فقالوا : عمروس ، وعبدوس ، وحيوس ، وحمديس وهكذا . (راجع كتاب السفر الى المؤتمر للعلامة زكى باشا) .

وربما أضافوا الى أسمائهم اللقب الأجنبي كما قالوا «ابراهيم الصانتو» يعنون ولى الله ابراهيم الذى أبلى بلاء عظيما فى حصار الاسبان لمالقة قبل فتح غرناطة : كما تقول النصارى سانت بطرس وسانت بولس .

وفى مدة الأمويين نهضت الأندلس فى كل جميع شئونها، وازدهر فيها العلم ، وانتشرت فنون الصناعة فى كل جهاتها ، وظهرت الثروة بين الأهلين. ولما أمر الناصر برسوم الخلافة فى أواخر العقد الثانى من القرن الرابع ، بعد أن رتب أمور دولته ،ونظم جبايتها ، وكثرت عليه الأموال من الضرائب والغنائم ، رأى أن يبنى له قصراً يليق بجلال الخلافة .فأمر سنة ٣٢٥ بالزهراء فبنيت على هضبة تبعد عن قرطبة غرباً بنحو أربعة أميال وثلثى ميل . ومما قاله مؤرخو العرب فيها أنه كان بها ٤٣٠٠ سارية، وعدد أبوابها يزيد على خمسة عشر ألف باب ، وأنه كان يعمل فى عمارتها كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة ، وجلب اليها الرخام الأبيض من المدينة، والمجزع من رَيَّه ، والوردى والأخضر من افريقية ومن سَفَاقُس وقَرْطَاجَنة ، والحوض المنقوش المذهب من القسطنطينية، وكان فيه نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان، فأمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ، ونصب عليه اثنى عشر تمثالا ، ثم بنى فيها المجلس المسمى بقصر الخلافة ، وكان سمكه من الرخام الغليظ الصافى فى لونه المتلونة أجناسه والموشى بالذهب ، وجعلت فى وسطه اليتيمة التى أتحف الناصر بها ليون ملك القسطنطينية وكانت قراميد هذا القصر من الذهب والفضة ، وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر ، قامت على سوار من الرخام الملون والبلور الصافى . وكانت الشمس تدخل على هذه الأبواب فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ، وأحاط هذا

القصر بالبساتين وأجرى اليه المياه من جبال قرطبة ، واتخذ فيه مسارح للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك. وحاطه بسور جعل فيه ٣٠٠ برج لاقامة الحرس . ولما تم بناؤه نقل اليه مركز الخلافة ، وكان بعض أبنيته خاصاً بالخليفة ، وبعضها بدواوين الخلافة ، و بعضها بالخدم والحشم ، وبعضها بالحرس من الجنـد . وقد قدروا ما أنفق على الزهراء كل عام بثلثمائة ألف دينار فى مدة خمس وعشرين سنة .

ولما مات الناصر زاد فى الزهراء ابنه الحكم . وما زالت مركزاً للخلافة الى أن أحرقها البربر سنة ٤٠٠ هـ فى فتنة سليمان بن الحكم بعد أن نهبوها . وقد يزعم كثير من المؤرخين ان هذا كان آخر العهد بها ، ولكن ابن خلكان ذكر فى ترجمة المعتمد بن عباد أنه كتب الى بعض خاصته بقرطبة بهذين البيتين :

حسد القصر فيكم الزهراء ولعمرى وعمـركم ما أساء
قد طلعتم بها شموسا نهارا فاطلعوا عندنا بدورا مساء

وكان المعتمد قد اصطبح معهم فى الزهراء ، ودعاهم الى الاغتباق معه فى قصر قرطبة . ولو عرفت أن المعتمد لم يملك قرطبة الا بعد سنة ٤٦٠ هـ عرفت أن حريق سنة ٤٠٠ لم يكن عاما بها ، وأنها أصلحت من بعده حتى أصبحت تليق بأن تكون محل سكن أو نزهة ابن عباد ملك البلاد . وعلى كل حال ان خرابها الكامل لم يتأخر عن هذا الوقت كثيرا وأظن انه كان فى وقت الانقلابات التى انمحى بها أثر ملوك الطوائف مدة المرابطين لبعدهم عن التأنق فى كل مظهر من مظاهر الحياة . ولما

استولى الاسبانيون عليها أتموا هدمها حتى لا يلجأ اليها المسلمون اذا عنّ لهم محاصرة قرطبة .

وكان بقرطبة غير الزهراء قصر الزاهرة الذى أمر المنصور بن أبى عامر فى سنة ٣٦٠ ببنائه على نهر الوادى الكبير شرقى هذه المدينة . وانتقل اليه فى سنة ٣٧٠ . وكان من أكبر القصور فخامة ، وأحسنها نظاما ، وأعلاها أسوارا ، وأوسعها أسواقا . وقد جعل فى قسم منه حكومته ، وبنى الناس فى الفراغ الذى بينه وبين قرطبة حتى صار البنيان متصلا بينه وبينها الى الزهراء .

وكان بقرطبة غير هذين القصرين البديعين قصور فخمة كثيرة للخلفاء وغيرهم من الوزراء والأمراء والقواد والسراة : فكان فيها القصر الكامل والمجدد . والحائر . والروضة . والزاهر . والمعشوق . والمبارك . والرستق والتاج . والبديع . وقصر السرور . وقصر الشراحيب . والبهور . والمنيف . وقصر الناعورة . ومتنزهاتهم خارج قرطبة : قصر الرصافة . وقصر ابن عبد المؤمن . والقصر الفارسى . والسد . وقصر الحاجب . والسرادق . ومنية الزبير .

وكانوا يتسامحون فى تشييد هذه القصور بما كانوا يقيمونه فيها من التماثيل فى أوضاع مختلفة . وفى نفح الطيب وصف كثير منها شعرا ونثرا وقد وصل بهم التسامح فى التماثيل ان كانوا يقيمونها فى ميادينهم العامة وكان منها ثمانية على باب الزهراء

وقد قال بعضهم فى تمثال أقيم فى ساحة من ساحات شاطبة :

كأنه واعظ طال الوقوف به　　مما يحدث عن عاد وعن أرما
فانظر الى حجر صلد يكلمنا　　أشجى وأوعظ من قس لمن فهما

وكان بقرطبة وحدها من الدور العامة ١٠٣٠٠٠، ومن الدور الخاصة ٦٣٠، ومن الحمامات ٧٠٠، ومن المساجد ٣٨٣٧.

وأكثر أهل الأندلس فى البناء حتى كان المسافر على الوادى الكبير لا يكاد ينقطع نظره عن العمران والبساتين التى كان بعضها يتصل ببعض على طول النهر من جهتيه. وكان نور السرج ليلا يكاد يكون متصلا فى طوله. وقد قال ابن خفاجة الذى توفى سنة ٥٣٣ سامحه الله فى وصف هذه البلاد:

يا أهل أندلس لله دركمو　　ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا فى دياركمو　　ولو تخيرت هذا كنت أختار
لاتحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً　　فليس تدخل بعد الجنة النار

وقد قال المقرى: «اتصلت العمارة بقرطبة أيام بنى أمية ثمانية فراسخ طولا فى فرسخين عرضاً تقدر بأربعة وعشرين ميلا طولا وستة عرضاً. وكان عدد أرباضها أحدا وعشرين فى كل ربض من المساجد والأسواق ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره. وكان بخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا فى الأحكام والشرائع له وكان لا يجعل القالص منهم على رأسه الا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وحفظ المدونة. وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة ويسلمون عليه ويطالعونه بأحوال بلادهم».

ولقد كان الخلفاء يرسلون بأشخاص عدول إلى الجهات البعيدة ليستقصوا لهم أخبار عمالهم وحال رعيتهم . وكان كثير منهم يمشى فى أسواق قرطبة لاستطلاع حال الناس بنفسه . ويجلس على باب قصره بدون حجاب . فيقصده المظلومون ويبثون اليه شكواهم من غير وساطة

وكانوا مع عزة سلطانهم وجلال ملكهم يطأطئون رءوسهم أمام الحق . ومن ذلك : ان الناصر أيام عمارته للزهراء وانهماكه فى بنيانها لم يشهد الجمعة بالمسجد الجامع فلم يطق قاضى الجماعة منذر بن سعيد ذلك وصعد المنبر وبدأ خطبته بقوله تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ثم نوه بالزهراء وقال : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين » لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم »

فأقسم الخليفة ألا يصلى خلف ابن سعيد أبدا . — فقال له ولده الحكم : وما يمنعك من عزله والاستبدال به ؟ — فقال الناصر : أمثل منذر بن سعيد فى فضله وورعه لا أم لك يعزل فى إرضاء نفس ناكبة عن الرشد ؟!

ومن ذلك أن أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان الموحدين بلغه أن أحد الشعراء قد نال منه وأخذ الحاضرون يكبرون أمره

ويحركون من سخط الخليفة عليه !! ولكنه رحمه الله أجابهم بما يدل على عظمة نفسه وسمو أخلاقه بقوله « نحن نعاقبه بالحلم » . وهل قامت عظمة خلفاء العرب وملوكهم إلا على هذه الأخلاق السامية؟ وهل شيد بنيان مجدهم إلا على العدل والاذعان إلى الحق ولو على أنفسهم؟ وكم من رجال منهم وقفوا فى دائرة القضاء بجوار خصومهم من رعاياهم حتى اذا صدر حكم القاضى لهم أو عليهم نفذوه فى الحال ، ثم عادوا إلى دائرة سلطانهم المحفوفة بسياج الجلال والعظمة .

ولقد كانت الأندلس مدة الأمويين رافلة فى الثروة ،عامرة بالسكان الذين وصل عددهم مدة حكمهم فى الاندلس الى أربعين مليونا من النفوس

وبالجملة ان العرب هم الذين نقلوا علوم المشرق وفنونه وهندسته الى الغرب فشاعت فيه أبنيته وأصبح لها فى أوربا علم ونظام خاص بها STYLE MAURESQUE ولقد كانت فخامة القصور التى بنوها تستدعى أن يكون بها من الأثاث والرياش ما يتناسب مع رونقها وجلالها : فكانوا يأتون بفرشها وما يلزمها من أثاث ثمين ورياش نادر من جهات المشرق . ومن هذا شاعت فى الأندلس مع هندسة البناء وما اليها من رسم وتزويق وتلوين جميع الصناعات التى تلزمها من نسيج وتطريز وتنجيد وغير ذلك من صناعات المدنية الراقية التى انتشرت فى الأندلس على عهدهم .

وقد اشتهرت قرطبة بدباغة الجلود، ومالقة بعمل الفخار والزجاج . والمرية بعمل الأجواخ والحديد والنحاس وبناء السفن . وسرقسطة بعمل السمور وأنواع النسيج الحريرية والكتانية . وشاطبة بعمل الورق . وكانت أشبيلية مشهورة بنسج الحرير وكان فيها مدة العرب ١٣٠ الف

نير (نول) فأصبحت بعد استيلاء الاسبان عليها وليس فيها غير أربعين نيرا . وكانت للعرب بالأندلس أندية يجتمعون فيها لمذاكرة العلم والأدب وأخبار العرب وغيرهم. وكان للخلفاء والأمراء أوقات مخصوصة يجتمع اليهم فيها العلماء والشعراء والأدباء . وكان للمنصور بن أبي عامر مجلس خاص بأهل العلم يجتمع فيه معهم كل أسبوع للمذاكرة فى مختلف العلوم . وكان بالأندلس أربع جامعات للطب بقرطبة وأشبيلية ومرسية وطليطلة . وكان بها من المعاهد العلمية والأدبية ما لا يحصيه العدد .

وكانت عندهم مدارس لتعليم الفقراء. وكان فى قرطبة وحدها مدة الحكم بن الناصر عشرات من المدارس لتعليم الأيتام. وكان التعليم مدة حكمه منتشراً جداً فى الأندلس حتى قال أحد مؤرخى الفرنجة : « أن التعليم يكاد يكون عاما بين جميع طبقات عرب الأندلس فى حين أن الطبقة العليا بأوربا كانت من الأمية بمكان. وكان بالأندلس ستون مكتبة عامة متفرقة فى بلادها الكبرى . وكان الناس يكلفون باقتناء الكتب للاشتهار باقتنائها أو للانتفاع بها ، حتى كاد يكون فى بيت كل سرى مكتبة خاصة به ، وكانوا يعيرون كتبها من يريد الاشتغال بها .

وقد وصلت بلاغة العرب فى اسبانيا فى شعرهم ونثرهم الى أوجها . وكانت تدور حول السهل الممتنع مع جزالة اللفظ وحلاوة الأسلوب . وكان كتابهم يبتعدون عن الغريب فى أقوالهم ، ومنهم من كان يطيل فى الكلام ويكثر من المترادفات خصوصاً فى أيام دولتهم بغرناطة. وكانت كتاباتهم على العموم تمتاز بكثرة السجع .

وأكثر من ظهر منهم من الشعراء والكتاب فى القرن الخامس

مدة ملوك الطوائف : لأنهم كانوا فى أول أمرهم يحتاجون الى تعزيز مراكزهم بنشر عبارات الحمد والثناء وآيات التعظيم والتفخيم التى كانت تذاع بوساطة من كان يفد عليهم من الشعراء . لهذا كثر الشعراء فى زمنهم . وكان يساعد على ذلك ما كان فى مجالسهم من موجبات الأنس والسرور التى كانت تنبسط فيها النفوس وتشحذ القرائح . (وأصبح أغلب شعرائهم نواسيين يهيمون فى جمال الرقيق وأباريق الرحيق .

ومع أن ملوك الأندلس وخصوصاً مدة عبد الرحمن الثالث كانوا يهتمون بنظام جندهم وتعزيز جيوشهم البرية التى وصلت زمن الخليفة الحكم إلى سان سباستيان (شانت اشتانى) وزمن ابن أبى عامر الى ثغر شانت ياقوب كانوا يهتمون برقى بحريتهم وانشاء ما يلزمها من المراكب الحربية والتجارية التى كانت تحمل تجارة بلادهم الى الشرق وتجارة الشرق الى الأندلس . وكانت لهم فى ثغورهم البحرية دور لصناعة السفن لا يزالون يسمونها (الترسانة) (ATTARSANA) أشهرها فى زمن المنصور بن أبى عامر وكانت فى قصر أبى دانس بالساحل الغربى للاندلس . وكانت دور الصناعات هذه مشغولة على الدوام بتجديد ما يلزمهم من السفن وانشائها وكانت أساطيلهم تربض فى ثغور البلاد ، والأسطول الأكبر يقيم فى المرية . وسفنهم الحربية فى ذلك الوقت كانت تتركب مما يسمونه البوارج والشوانى والحراقات والطرائد البطى والقراقير والمشاريات والشلنديات وما يتبعها من الزوارق . وكان ثغر المرية حافلا بتجارة الشرق كما كانت مالقة حافلة بتجارة الغرب ، لذلك كانت هاتان المدينتان أغنى بلاد الأندلس وأضخمها ثروة .

وكانت ملوك الأندلس تخصص الجوائز للنابغين والمخترعين . وقد اخترع الوزير بن بدر مدة الناصر طريقة للطباعة كان يطبع بها الأوامر والمنشورات التى كان يرسل بها الى أطراف المملكة . وهل كان اختراعه هذا قاعدة لغوتمبرج بنى عليها اختراعه لحروف الطبع فى سنة ١٤٣٦ ؟ وخاصة أن لاروس يقول فى دائرة معارفه أن الطباعة كانت معروفة فى أوربا فى أوائل القرن الثانى عشر . ولعله كان يريد أن يقول إنها كانت موجودة بالأندلس فى ذلك العهد .

وبالجملة قد كانت مدنية الأندلس فى غاية الرقى فى جميع مرافقها . وكانت أشعة شموسها تتصل باوربا بحكم الجوار فتفيض عليها من أنوارها التى صاغ الافرنج منها مدنيتهم وقامت عليها عظمتهم العلميـة والفنية والصناعيـة . وحتى الشعر الذى هو وحى النفوس الى الرءوس لم يرتق عند الفرنجة الا بفضل عرب الأندلس ، وعنهم أخذوا استعمال القافية عندهم . وشعراء فرنسا العظام لم تجد بهم الأيام الا من القرن السـابع عشر أمثال موليير ، وفولتير ، وبوالو ، ولافونتين ، وراسـين ، وكورنى . (يراجع تاريخ علم الأدب للخالدى) وكلهم كان فى النصف الأول من القرن السابع عشر . وأما لامارتين ، وشاتوبريان فكانا فى أواخر القرن الثامن عشر . وأما أكبر شعرائهم فيكتور هيجو فانه كان يعيش فى نصف القرن التاسع عشر . وقد سار بعضهم فى صياغة شعره على النهج العربى سواء فى مبانيه أو معانيـه . وكان يلبسها من روعة النسيب والتشبيب ماتحلو به عبارته . بل قد يكون غزله دائراً حول أسماء عربية كعائشة وفاطمة فيزيد ذلك فى شعره حلاوة وطلاوة . وأشهر من كتب فى هذا

السياق غوطا أكبر شعراء الالمان الذى كان يعيش فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ومن تأليفه ديوان الشرق والغرب . أما شكسبير أكبر شعراء الانجليز فقد كان يعيش فى أوائل القرن السابع عشر . ويذهب الأمير كيتانى الكاتب الطليانى الشهير فى رسالة « نصيب الاسلام فى تدرج المدنية » الى أن الطب فى مدرسة سالرن — وقواعد العلم الطبيعى فى الجامعة الايطالية الأولى — وما كان لدانتى الشاعر الايطالى مولور (سنة ١٢٦٥ وصاحب اللاميدى الآلهية المشهورة من واسع الخيال وجمال التصوير فى شعره انما كان أثراً لما كان فى قرطبة وبغداد من علم زاهر وفلسفة رائعة أيام كانت أوربا تخبط فى جهالتها .

ولما كثرت الثروة فى الأندلس كان أهل البلاد يرتعون فى بحبوحتها ، حتى اذا توافرت فيهم أسباب العمران وكثرت أمامهم موجبات الحضارة والرفه أخذوا بجميع أطرافها ، فكانوا فى أول أمرهم مع اشتغالهم بالعلوم والفنون والزراعة والصناعة والتجارة لا يحرمون أنفسهم ملاذها فى أوقات راحتهم وكانوا يخرجون فيها الى النزهة فى البساتين التى كانت خارج مدنهم ومعهم المغنون والضاربون على آلات الموسيقا الوترية فيقضون يومهم بين كل ما لذ وطاب ، مع صفوة أحباب ، وجمال أتراب ويمكنك أن تتخيل وصف هذه المجتمعات من العبارة الآتية : قال المقرى :

« كتب أبو عامر بن نيق الى هند جارية ابن مسلمة الشاطبى وكانت أديبة شاعرة ولها صوت جميل ومعرفة بالموسيقا :

ياهنـد هل لك فى زيارة فتية ... نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا ... نغمات عودك فى الثقيل الأول

فكتبت اليه فى ظهر رقعته :

ياسيداً حاز العلا عن سادة ... شم الأنوف من الطراز الأول
حسبي من الاسراع نحوك أننى ... كنت الجواب مع الرسول المقبل

وممن اشتهر من المغنيات فى الأمويين حمـدونة بنت زرياب ، وهندية ، وغزالات . وكان يصل من المشرق منهن عدد ليس بقليل كان فى مقدمتهن جاريتان اشتهرتا بجمالهما وحسن غنائهما وهما فضل المدنيـة وعلم المدنية . وكان للخاصة نصيب من هذا الفن اشتهر منهم عبد الوهاب ابن حسين الحاجب وكان أحذق أهل زمنه بضرب العود .

ولقد كان لمجالس الغناء فى كل دور الأندلس أثر كبير فى الأدب بسبب ما كان يقوم بالنفوس من التبسط بعوامل السرور والتوسع فى عالم الخيال فتجيش بالشعر . وجر ذلك الى وضع الأغانى فى أشكال مختلفة كان أهمها عندهم الموشحات التى وضع أساسها فى آخر القرن الثالث الهجرى . وأول واضع لها مقدم بن معافر من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى فى أواخر القرن الثالث وأخذها عن أديب الأندلس أحمد ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد (ولكن لم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما حتى نبغ عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية المتوفى سنة ٤٣٣ فأجاد فى نظم الموشحات ، وما زالت ترق حتى وصلت فى مدة الحكم بن الناصر الى درجة عالية ، وشاعت فى أغنية القوم لما كان لها من التأثير فى النفوس . ثم جاء على أثرها اختراع

الأزجال والمواليا [1] . وكثر استعمالها فى العامة وما زالت حتى جادت وتهذبت فى أوائل القرن السادس ونبغ فيها أبو بكر ابن قزمان الذى يدعونه بإمام الزجالين (وكان لعهد الملثمين)

وكان من جملة ملاهيهم مايسمونه بالخيال (خيال الظل) وهو تماثيل من ورق يحركونها بخيوط من وراء ستارة من نسيج أبيض ، ويشعلون من ورائها ناراً فترتسم صورها على الستارة بحركاتها التى تمثل لك بلسان محركها رواية مضحكة يتخللها شىء من الشعر والفكاهة . وقد كان خيال الظل معروفا بالقاهرة الى أواخر القرن التاسع عشر . وأظن أن بعض الأحياء القديمة بها لا يزالون يذكرون من أبطاله الراهب منشا ، ودعادير ولا أدرى أوصل هذا الخيال الى الغرب من الشرق أو وصل الينا من الأندلس ؟ ؟ وهل كان هذا الخيال مقدمة لاختراع (الخيالة السينما) الذى أصبح الآن ملهى جميع الأمم المتمدينة ؟

وكانت مجالس الغناء لا تخلو من الشراب وكانوا لا يجهرون به فى أول أمرهم لأن الأمراء والخلفاء الأمويين كانوا يقيمون فيه حدود الله ، حتى وصل الحال بالحكم بن الناصر فى محاربته للخمر أن أراد استئصال شجرة الكرم لولا انهم أخبروه بامكان عمله من غيرها . ولكن الحال بعد الأمويين قد تغيرت وأصبحت الخمر شائعة فى مجالسهم وربما كان

---

(١) كثر استعمال المواليا والازجال بين عامة الاندلسيين حتى كانوا يقولونها ارتجالا . وقد ترى هذا الى اليوم فى أرياف مصر . فان بعض الفلاحين يحفظ عن ظهر قلب بضعة مئات من المواويل خصوصاً فى الوجه البحرى ، كما يكثر ما يسمونه بالواوات (وهى نوع من المواويل) فى الوجه القبلى . وترى فى عامتهم الى الآن من يرتجل منها ما لا يقل فى جودة معناه ورقة لفظه عما تراه فى أرق الشعر وأمتنه .

لبرودة جو البلاد أثر كبير فى ذلك خصوصا مع ضعف الوازع الدينى فكثرت فيها أقوالهم وأشعارهم .

ومن قول أحد القادمين من العرب على غرناطة :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضهم ... وشرب الحميا وهو شيء محرم
فراراً الى نار الجحيم فانها ... أخف علينا[1] من شلير وأرحم

ومن قول عامر بن هاشم القرطبي فى نونيته البديعة :

ياليت لى عمر نوح فى إقامتها ... وان مالى فيه كنز قارون
كلاهما كنت أفنيه على نشوا ... ت الراح نهبا ووصل الحور والعين
وانما أسفى أنى أهيم بها ... وان حظى فيها حظ مغبون

ومن قولهم .

يارب ليل قد هتكت حجابه ... بمدامة وقادة كالكوكب

ومن قولهم :

سل الهموم اذا نبا زمن ... بمدامة صفراء كالذهب
مزجت فمن در على ذهب ... طاف ومن حبب على لهب
وكأن ساقيها يثير شذا ... مسك على الأقوام منتهب

ومن قولهم :

يسعى بها أحوى الجفون كأنها ... من خده ورضاب فيه الأشنب
بدران بدر قد أمنت غروبه ... يسعى ببدر جانح للمغرب

ومن أبدع ماقيل فى الخمر وساقيها قول المعتمد بن عباد :

---

(١) وشلير جبل من أعمال البيرة لايفارقه الثلج شتاء ولا صيفاً

لله ساق مهفهف غنج قام ليسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكمته فى جامد الماء ذائب الذهب

ومن قول ابن حمديس فى وصف مجالس الرقص على نغمات الموسيقا :

وعدنا إلى هالة أطلعت على قضب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم تثور فيقتل ثوارها
وقد سكّنت حركات الأسى قيان تحرك أوتارها
فهذى تعانق لى عودها وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها حساب يد نقرت طارها

وكان بعضهم يشكل الغانيات بشكل الفتيان قال الوزير بن شهيد :
ظبية دون الظباء قصصت فأتت غيداء فى شكل[1] صبى
فتح الورد على صفحتها وحماه صدغها بالعقرب

ومن هذا ترى أن القوم بعد دولة الأمويين استسلموا للشهوات ، وشاعت فيهم مجالس الخمر والسماع ورقص الراقصات على نغمات الأوتار فى كل شكل من أشكال الخلاعة !! حتى أن المرابطين أنفسهم فى آخر دولتهم قد سكنوا القصور فى الأندلس وأكثر ولاتهم من مجالس اللهو والأنس بما ضعفت به عصبيتهم الدينية والخلقية حتى تغلب عليهم الموحدون ونزعوا منهم هذه البلاد بعد استيلائهم عليها مدة اثنتين وستين سنة (من سنة ٤٨١ الى سنة ٥٤١) .

---

(١) لا أدرى أهذا ما يسمونه الآن لاجرسون(LAGARCONE) فاذا كان هو بعينه فقد سبق الأندلسيون الفرنجة حتى فى هذا بتسعة قرون .

الرسالة الثامنة

سبب تفرق كلمة العرب فى اسبانيا وضعفهم

استكثر الأمويون فى الأندلس من البربر وهم شيعتهم الذين قاموا بنصرة عبد الرحمن الداخل فى أول أمره على مناوئيه من شيعة العباسيين الذين كان لهم الحكم قبله ، بل نصروه على جيوش شارلمان التى أرسلها لحربه تزلفاً لصديقه الخليفة العباسى فى الظاهر ، وخوفاً من تطاول ملك العرب الى أرض فرنسا فى حقيقة الأمر .

ولما ثبتت قدم الأمويين فى الملك ، أخذوا يقلدون العباسيين فى استكثارهم من المماليك الصقالبة وغيرهم، وخاصة فى أيام عبد الرحمن الناصر، حتى أصبحت لهم الكلمة النافذة فى البلاد وصار حكمها من بعده فى أيديهم . وأصبح حالهم هنا حالهم فى الشرق شبراً بشبر وقدماً بقدم . وكانت نفوس كثير منهم تحدث فى قرارتها بتخطى الرقاب وطرق كل باب للوصول الى منصة الحكم . ولم يكن يقعد بهم عنها الا ما كان يحيط بها من رمح مشروع ، وسيف مسلول ، وعظمة قائمة ، وسلطان قدمه فى الأرض ورأسه فى السماء . وعلى كل حال كان لهم التصرف المطلق في داخلية الدولة . وخالف الأمويون فى الاندلس آباءهم فى دمشق فى محافظتهم على عصبيتهم العربية ، فضعفت بذلك شوكة العرب ونقموا على حكومتهم وما زالوا يترقبون الفرصة للخروج عليها حتى قام ابن أبى عامر وزير الحكم بن الناصر ، وكان من العرب المستمسكين بعصبيتهم. فأخذ بدهائه فى التفرقة بين العناصر المتغلبة من صقالبة وأتراك

وبربر ثم بالايقاع بهم شيئاً فشيئاً . وكان فى أثناء ذلك يستقدم رجالات من بربر المغرب من قبائل زناتة ومصمودة وغيرهم ، وكان يوليهم مناصب الدولة . حتى اذا شعروا بعده بضعف الخلفاء ومن والاهم أخذوا يخرجون على دولتهم ويستقلون بأطرافها : وأول من بدأ منهم باستقلالهم بنو عباد فى أشبيلية ، ثم بنو زيرى فى غرناطة ، وبنو الأفطس فى بطليوس ، ثم بنو ذى النون فى طليطلة ، ثم بنو عامر فى بلنسية ، ثم بنو هود فى سرقسطة ، وبقيت قرطبة فى يدى بني حمود ثم بنى جهور وما زالوا حتى غلبهم على أمرهم الفرنجة من الشمال ، ثم المرابطون من الجنوب .

وكثيراً ما كان ملوك الطوائف يحارب بعضهم بعضا طمعا فى استيلاء هـذا على ما كان فى يد الآخر ، حتى انتهى أمرهم الى الضعف وصاروا يدفعون الجزية الى الاذيفونش ، غير ما كانوا يلاقونه من الهوان من الأسبانيين . وما زالوا حتى ضاقت صدورهم من غدر ملوك الأسبان بهم وسوء معاملتهم لهم . فأجمعوا أمرهم على استدعاء عرب المغرب لنصرتهم : وكان هذا رأى ابن عباد صاحب اشبيلية . وكان المغرب وقتئذ فى حكم المرابطين ، وأميرهم يوسف بن تاشفين سلطان المغرب من أقصاه الى أدناه فلما وصلت اليه دعوة ابن عباد قبلها ، وعبر الى الجزيرة سـنة ٤٤٩ هـ بجيوش جرارة على رأسها قائده العظيم داود بن عائشة . وسار هو وفى مقدمتـه وزيره الـكبير سير بن أبى بكر اللمتونى . فقابلته جيوش الأسبان متجمعة بقرب بطليوس وعلى رأسها الاذيفونش ملك قشتالة ، ووقعت بينهم موقعة تشيب لها الولدان انتصر فيها ابن تاشفين والأندلسيون انتصاراً باهراً . وهذه الواقعة يسمونها واقعة الزلاقة . وهرب الاذيفونش

بعد أن جرح في يده جرحا بليغاً . ثم طلب الصلح من ابن تاشفين فمنحه ذلك لمدة خمس سنين، أخذ فيها الاذيفونش على نفسه ألا يتعرض للمسلمين بشيء مطلقا . وخلصت بلاد الأندلس من مظالمه ، ومما كانت تدفعه اليه كل عام من الجزية ، وتسمى ابن تاشفين بعد هذه الواقعة بأمير المسلمين. وقد غنم المسلمون من هذه الموقعة شيئاً كثيرا جداً من الأموال والأنفس . فعف ابن تاشفين عنه وتركه جميعه لأهل البلاد ، وانصرف عن الأندلس إلى المغرب تاركا وراءه جمال العمل وجميل السيرة

وفي سنة ٤٦٨ هـ جاز ابن تاشفين الى الأندلس جوازه الثاني بدعوى أن أهله شكوا اليه من كثرة المكوس (الضرائب) التي كانت تأخذها منهم ملوك الطوائف . فلما وصل إلى الجزيرة الخضراء خافه ملوك العرب وقطعوا الميرة عن جيوشه بعد أن اتفقوا مع ملوك الفرنجة عليه ، فقصد بلادهم واستولى عليها واحدة بعد واحدة . وبعث ببني زيري أصحاب غرناطة إلى المغرب فقضوا فيه بقية حياتهم . ثم قصد اشبيلية وحارب ابن عباد حتى اذا تغلب عليه اعتقله وأرسل به إلى أغمات من أعمال مراكش ، وما زال في اعتقاله بها حتى مات سنة ٤٩١هـ . ثم قصد بطليوس وقبض على ملكها ابن الأفطس وقتله . وبذلك أصبحت الأندلس من أقصاها الى أدناها في حوزته إلا سرقسطة (وهي في شمال اسبانيا) فانها بقيت في يد بني هود لاعتصامهم بالاذيفونش ولبعدها عن مركز القوة الاسلامية .

ولما خلص ابن تاشفين من استيلائه على الأندلس فوض أمره إلى وزيره سير اللمتوني ورجع إلى بلاده . ومن ثم أصبحت الأندلس في يد

المرابطين . وما زالت فى أيديهم إلى أن دب الشقاق بين أحفاد ابن تاشفين طلبا للملك فى أواخر القرن الخامس الهجرىّ بما كان سبباً لضعفهم ، وقيام بلاد المغرب عليهم ، حتى سقطت دولتهم بقيام دولة الموحدين .

ودولة الموحدين قامت على يد المهدى محمد بن تومرت ، وما زال حتى مات سنة ٥٢٤ . فاتفقت رجالات المغرب على مبايعة عبد المؤمن ابن على ، وكان فى مقدمة رجال المهدى علما وفضلا ودهاء ، وهو أول من تسمى فى المغرب بأمير المؤمنين .

وفى سنة ٥٤٦ أجاز عبد المؤمن إلى الأندلس جيشاً من الموحدين للفتح فتغلب على غربيه ثم حاصر المريّة فاستغاث من كان فيها بالاذيفونش الذى أرسل اليهم حليفه محمد بن مردنيش على جيش من النصارى والمسلمين ، فكسره عبد المؤمن ، وتم استيلاء الموحدين على الأندلس فى مدة أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن ، وله اصلاحات كثيرة فى اشبيلية : وهو الذى بنى جامعها وأقام جسرها ، وأتى من بعده ولده المنصور يعقوب فأكمل الجامع بحيث أصبح لا يضاهيه شئ فى الدنيا ، وقد حارب المنصور يعقوب الاذيفونش ومعه ملوك النصرانية فانتصر عليهم انتصارا باهراً فى واقعة الكرك الشهيرة ALARCOS وفتح كثيراً من الحصون والبلاد التى كانت فى أيديهم . وما زال يتقدم فى الفتح حتى طلبوا اليه الصلح . فصالحهم على خمس سنين وذلك فى سنة ٥٩٢ هـ .

وقد ذكر مؤرخو العرب ان من قتل فى هذه الموقعة من النصارى أكثر من مائة الف . أما ما غنمه المسلمون فيها فهو شئ لا يحصيه العد ولا يحيط به الحصر : حتى أصبحت العرب تبيع الأسير بدرهم، والسيف

بنصف درهم ، والحمار بدرهم ، والفرس بخمسة دراهم . وبعد هذه الواقعة استولى المنصور على طَلَمَنْكَة . ثم قصد طليطلة وهى عاصمة الاذيفونش وحاصرها ، ولما لم يبق غير نزول من فيها على ارادته نزلت والدة الاذيفونش وبناته وحرمه واستغثن به وبمروءته ، فأكرم مثواهن وأعادهن الى مقرهن معززات مكرمات . وعاد هو الى بلاده بالغنائم التى لا حصر لها .

ولما مات يعقوب المنصور سنة ٥٩٥ﻫ استولى بعده ولده أبو عبدالله محمد الناصر . فجاز الى الاندلس عام ٦٠٩ ﻫ بجيوش من العرب يقدرونها بستمائة الف . هنا لك أعلن البابا الحرب المقدسة ، فهرعت جيوش النصرانية من ايطاليا وفرنسا والمانيا واتحدت قواتها فى اسبانيا واستعدوا لملاقاة الناصر بسهول (نافا دوتولوزا) : وهى قرية تبعد عن قرطبة شمالا بمائة وأربعين كيلو مترا .

وكان الناصر قد أعجبته كثرة جيوشه فأخذ يفتك فى طريقه برجالات الاندلس بايعاز وزيره ابن جامع الذى أراد أن تكون الكلمة له وحده وأهمل رؤساء البلاد وقادتها ولم يستشرهم فى أمر عدوه ، وهم أدرى الناس بالجهة التى يأخذونه منها . وما زال حتى التحمت جيوشه بجيوش النصرانية فى هذه السهول التى يسميها العرب العِقَاب : لكثرة ما كان فيها من العقبات التى كانت سبباً فى خذلانهم وانتصار جيوش النصرانية عليهم انتصاراً باهراً تمزقت معه جيوش المسلمين على كثرتها بحيث لم ينج منهم غير القليل . ومن هذا الوقت ظهر كوكب نحس المسلمين فى الأندلس وغربت شمس سعودهم !! والله تعالى غالب على أمره .

وعلى أثر هذه الموقعة مات الناصر ، فبايع أهل المغرب ولده يحيى، فلجأ أخوه المأمون بن الناصر الى ملك قشتالة يستنصره على اخيه وعلى الموحدين ، فاشترط عليه شروطا جمة : منها أن يعطيه عشرة حصون يختارها هو مما فى يد المسلمين مما يلى بلاده، وأن تبنى له كنيسة فى مراكش فلما قبلها جهز له جيشا من الأسبان دخل به أرض المغرب ، وهنالك جمع المأمون شيوخ الموحدين وقتلهم صبراً ، وكان عددهم أكثر من أربعة آلاف نفس . ومن هذا الوقت أخذت الأطراف تثور عليه فى المغرب وأخذ حكم الموحدين فى الضعف .

وفى هذه الأثناء استولى الفرنجة على قرطبة ثم على جزر البليار وبلنسية ، واستولى اسطولهم على سبتة وغيرها من سواحل المغرب ، ثم استولوا على اشبيلية . وما زالوا يستولون على بلاد الاندلس وحصونه حتى لم يبق مع المسلمين غير غرناطة التى بقيت فى يد بنى الأحمر لمنعتها وكثرة أهلها : لأن سواد البلاد التى كان يفتحها الفرنج كان يلجأ اليها . ومع هذا كانت تدفع الجزية فى غالب أيامها لملوك قشتالة

ولما استولى بنو مرين على المغرب كان بنو الأحمر يساعدون الفرنجة عليهم . كما كان بنو مرين يتحدون أحيانا مع ملك قشتالة على بنى الأحمر وما زال ملك بنى الأحمر قائما بغرناطة حتى دب الخلاف بين أبى عبد الله ابن أبى الحسن وعمه الزغل على الملك وانتهى بتغلب الفرنجة على غرناطة فى سنة ٨٩٢هالموافقة لسنة ١٤٩٢م وبه انقضى ملك المسلمين فى الاندلس وانطوت صحيفتها . وسبحان من له الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء .

وقبل أن نختم هذه الرسالة نذكر كلمة عن الاذيفونش[١] (ألفونس) الذى استمر العرب فى تواريخهم يتحدثون عنه فى الأندلس حتى يخيل للقارىء ان الاذيفونش هذا عمر طويلا ومارس فى حربه معهم أجيالا عديدة فالافرنج يقولون ألفنس الاول . والثانى . والثالث . وهكذا . وقد اقتصر العرب على الاسم دون الوصف الذى يمينه : وعلى ذلك فألفونس السادس ملك قشتالة وليون واشتوريا هو الذى كان له شأن كبير معهم ، وهو الذى استولى منهم على طليطلة فى سنة ١٠٨٥ م وجعلها عاصمة ملكه . وبعد ذلك أخذ يستولى على أطراف بلادهم حتى امتلك منهم نصف اسبانيا الشمالىّ : وهو مايسمونه بقشتالة الجديدة. وألفونس السادس هو الذى انكسرت جيوشه أمام ابن تاشفين فى واقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦ ومات بجراحه منها سنة ١١٠٩ م .

اما ألفونس الثامن ملك أراغون فهو الذى كان له شأن مع ملوك الطوائف وجيوش الموحدين ،وانكسرت جيوشه أمام جيوش يعقوب ابن عبد المؤمن فى واقعة الـكرك سنة ١١٩٥ ، ومات سنة ١٢١٤م بعد سنتين من انتصاره مع جيوش النصرانية على محمـد الناصر فى واقعة العقاب المشؤومة .

أما ألفونس أمير البورتغال الذى انتهى أمره بانتخابه ملكا لهذه المملكة فهو الذى أخذ من العرب لشبونه وشنترين .

---

(١) وسماه ياقوت الأذفنش وذكره ابن خلكان الأذفونش بضم الهمزة وسكون الدال المعجمة وضم الفاء وسكون الواو وبعدها نون ثم شين معجمة وسماه ابن الاثير الفونش وهو أقربها الى كلمة (الفونس) ويظهر أن القوم كانوا يعتبرونه لقبا لا اسما كقيصر وكسرى اذ يقول ابن خلكان انه اسم لاكبر ملوك الفرنجة وهو صاحب طليطلة .

وفرديناند الثالث ملك قشتالة المسمى بسان فردناند (القديس فرديناند) هو الذى أخذ قرطبة من العرب سنة ١٢٣٦ ثم استولى على اشبيلية سنة ١٢٤٩ م .

أما فرديناند الثانى ملك نافاريا واراغون والذى تزوج بايزابلا ملكة قشتالة فهو الذى أخذ غرناطة من العرب سنة ١٤٩٢ وأخرجهم من أرض اسبانا .

فاذا علمت ذلك وفقك الله فلا تعط لأحدهم ما ليس للآخر من مركزه التاريخى .

للعبرة والتاريخ

العلة الأولى لضعف العرب فى اسبانيا هى تفرق الجماعة وانقسام الدولة الأموية بعد أن طويت صحيفة بنى عامر الى عشرين دولة صغيرة استقل بها ولاتها وهى : اشبيلية . جيان . سرقسطة . الثغر (ما كان فى شمال طليطلة) . طليطلة . غرناطة . قَرْمُونة . الجزيرة الخضراء . مرسية . بلنسية دانية طرطوشة . لاردة . باجة . المرية . مالقة . بطليوس . لشبونة . جزائر البليار . وقرطبة .

وكان هذا الانقسام ولا بد داعيا الى كثرة الخلاف بين رؤساء هذه الدول وطمع كل منهم فيما فى يد الآخر ، واشتعال نيران حرب كل منهم بين جيرانه ، ووثوب القوى على الضعيف . ومن قول ابن حزم باختصار : « فضيحة لم يأت الدهر بمثلها : أربعة رجال يسمى كل واحد منهم أمير المؤمنين ! واحد باشبيلية ، والثانى بالجزيرة الخضراء ، والثالث بمالقة والرابع

بسبتة ، وأصبح العرب والبربر فى خلاف مستديم،والجميع فى خلاف مع أهل المغرب الأقصى وفى حروب مع الأمم الاسبانية والبرتغالية »

ثم آل أمر هذه الدول الى خمس : سرقسطة وما والاها شرقا الى البحر فى يد ابن هود . وطليطلة وما والاها شمالا وجنوبا فى يد ابن ذى النون . واشبيلية وما والاها جنوبا فى يد ابن عباد . وبطليوس وما والاها غربا فى يد ابن الافطس . وآلت قرطبة الى يد الوزير ابن جهور ثم دخلت فى حكم ابن عباد .

وكانت أمهات الأولاد من الاسبانيات لا يزال الدم الأجنبي يجرى فى عروقهن ، ولا يزال أثر النصرانية ماثلا فى قلوبهن ، فكن مسلمات فى حالة ضعفهن حتى اذا وجدن الفرصة غير سانحة للآثار بقومهن أرضعن أولادهن خور العزيمة وأضعفن فيهم دماء قوميتهم ودياناتهم : فكان هذا من أكبر الأسباب فى خمود حميتهم وخصوصاً فى الطبقة العالية منهم .

ولا بد للأخلاق العامة من التأثير فى هذا التغير الذى طرأ على حالة العرب فى اسبانيا ، فنزل بهم من المستوى الذى كانوا فيه مدة الأمويين ،وكانت كثرة الثروة من العلل التى جرت بهم الى الدعة والرفه فمالوا إلى اللهو بجميع أنواعه . ومع أن منتدياتهم كانت مدة عزتهم وقوتهم كلها علمية وأدبية وفنية يتخللها أحيانا ما يبيحه الدين والحضارة من موجبات السرور كالأغانى والموسيقا مما نهضت به عزيمتهم وظهرت ثقافتهم وتجلت بطولتهم فى سلمهم وحربهم ، فانهم لما استرسلوا فى ملاذهم ، واستسلموا الى شهواتهم ، واستناموا الى الراحة ، ضعفت فيهم الحمية الدينية والعصبية : فأهملوا شئون بلادهم ، وتقوية

ثغورهم ، وقعد كل مصر عن الدفاع عن حوزته . وكان عدوهم فيما بين ذلك يعمل وهم نيام، ويتقدم كل يوم الى الأمام. وبعد أن كان يخنع الى سلطانهم ويستكين الى قوتهم ، ويدفع لهم الجزية وهو صاغر ، وصل حالهم بتفرق جامعتهم وانقسام دولتهم الى طوائف ، ان كانوا يستنصرون به بعضهم على بعض . ولم يكن هذا فى دولة منهم ضد أخرى فحسب ، بل كثيرا ما كان يستظهر الابن على أبيه والأخ على أخيه بملوك النصرانية : كما كان من المنذر والمؤتمن ابنى المقتدر سلطان سرقسطة ، حتى ضعفوا جميعا، واستولى العدو على بلادهم سنة ١١١٨ م . وكما كان من ولدى عبد العزيز ابن أبى عامر صاحب بلنسية . وكما كان من استنصار المأمون بن الناصر من بنى عبد المؤمن ملك قشتالة على أخيه يحيى . ولقد كثر استنصار بنى الأحمر ملوك النصرانية بعضهم على بعض فى آخر دولتهم حتى ضعفوا وذهبت ريحهم وسقطت بلادهم فى يد عدوهم. ولو عرفت أن طليطلة وهى أول حجر انهار من هيكل عظمة الإسلام بأسبانيا إنما أضاعها صاحبها القادر بالله بن المأمون بن يحيى بن ذى النون لشهوته فى الاستيلاء على بلنسية ، واستنصاره ملك قشتالة ألفونس السادس لمساعدته فى ذلك ، وكان ألفونس لا يبرح يورطه فى حربه لبنى عامر حتى أضعفه واستولى هو على بلاده فى سنة ١٠٨٥ م بعد أن مكثت مستقلة فى أيدى بنى ذى النون ٧٣ سنة — لو عرفت ذلك كله لعرفت أن ملوك النصرانية كانوا ينشطون لمساعدة ملوك الاسلام بعضهم على بعض لأمرين : الأول أن ينتفعوا من وراء حرب فئة من المسلمين ضد أخرى منهم وهم بذلك يضعفون جميعاً ،وهو كل أمنيتهم: لأن الدولتين النصرانية والإسلامية

كانتا فى كفتى ميزان اذا خفت موازين واحـدة منهما ثقلت موازين الأخرى . والثانى أن يكون لهم السلطان التام على من كان من المسلمين فى حمايتهم وتحت رعايتهم فيستخدموه ما شاءوا ويثمروه ما أرادوا .
وبهذه السياسة وصلوا الى غايتهم من اضعاف دول العرب فى الأندلس بما مكنهم من الوثوب عليهاواحدة بعد أخرى حتى استولوا عليها جميعا
ومن هذا تعلم أن العرب لما انحطت أخلاقهم ضعفوا وتلاشى أمرهم :

وإنما الأمم الاخلاق ما بقيت   فان همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولقد كانت ملوك العرب وأمراؤهم فى أول أمرهم يخرجون الى معمعة الحروب بأنفسهم فيثيرون الحمية فى قلوب جيوشهم فتظهر بطولتهم التى كان يلازمها النصر والظفر . فلما استناموا الى الرفه ضعف فيهم الخلق الحربى فقعدوا عن القتـال . ومشى على سننهم عظماء دولهم فاستجاشوا الصقالبة والمدجنين والعبيـد . بل وصل بهم الحال أن كانوا يستأجرون مرتزقة من الأسبان ممن لا يهمهم النصر ولم تكن للهزيمة وقع فى أنفسهم.
ولعل أول من عمل ذلك المنصور[1] بن أبى عامر فى زحفه على (شانت ياقو).
وكان بنو هود بسرقسطة يستأجرون البطل سـيد[2] ورجاله فى حروبهم ضد إخوانهم المسلمين .

---

(١) وشتان ما بين عمل المنصور فى استخدامه لمرتزقة الأسبانيين وبين استخدام غيره لهم : فان المنصور كان يستعملهم فى حربه ضد نصارى الشمال فكانوا سلاحا في نحور بنى جنسهم وملتهم أما بنو هود وغيرهم فانهم كانوا يعملهم هـذا يساعدون النصرانية بأموالهم وبرجالهم على أضعاف اخوانهم المسلمين : وهم بهذا مهدوا السبيل الى اسـتيلاء الاسبانيين على دول العرب بالجزيرة واحدة بعد أخرى !

(٢) كان رودريك الذى اشتهر عند العرب باسم السيد قنبطور LECID CAMPIADOR مشهورا بفروسيته . ولقد ساعد الامير شانجه بن الملك فرديناند الأول على أخيه ألفونس . فلما تولى الفونس عرش البلاد نكب رودريك وصادره فى ماله . فهاجر الى صخرة قريبـة من

وكان الاسبانيون بعكس ذلك يحاربونهم أمة مجتمعة يسير تحت لوائها الملك والأمير بجوار الجندىّ الصغير ، وكل منهم لا يعرف أمامه غرضاً غير مجد الانتصار على خصمه ، وهو ولا شك واصل اليه بجالدته ومثابرته .

ومن ذلك أن الاسبان لما قصدوا بلنسيه سنة ٤٥٦ هـ خرج اليهم أهلها علابسهم الحريرية فانكسروا أمامهم فى واقعة طبرنة وفى ذلك يقول الشاعر :

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستمو حلل الحرير عليكم ألوانا

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن بطبرنة ما كانا

سرقسطة وبنى بها مسكنا اجتمع عليه فيه نحو ٣٠٠ من المعجبين به ، واشتهر مع شيعته هذه بشجاعتهم . وكثيرا ما كان بنو هود ملوك سرقسطة يستأجرونهم فى حروبهم .

وقد حاصر السيد على رأس جيوش يوسف بن احمد بن هود بلنسية . ومع أنه دخلها صلحا فقد حرق قاضيها ابن الجحاف لزعمه أنه أبى أن يدله على خزائن المقتدر بن هود صاحب بلنسية ، ثم أشعل النيران فى المدينة حتى أتلفها ، وهو مالا يتفق مع الصلح الذى دخل به المدينة وفى ذلك يقول ابن خفاجة :

عاثت بساحتك الظبا يادار ومحا محاسنك البلا والنار

فاذا تردد فى جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان فى عرصاتها (لا أنت أنت ولا الديار ديار)

ومات السيد فى سنة ١٠٩٩ وفيها استولى المرابطون على بلنسية . وقد وضع الأسبان روايات البطولة فى السيد ، وأبلغ ما كتب منها رواية كورنى CORNEILLE الكاتب الروائى الفرنسى الشهير التى وضعها سنة ١٦٣٦ وترجمت الى العربية . الا أن ستانلى ودياز ينكران عليه ذلك ويذهبان الى أن بطولته من تنميق القصاصين .

ولا أدرى لعل قصص هذه البطولة كانت سببا فى وضع عرب المغرب قصصهم فى بطولة أبى زيد الهلالى ودياب الزغبى وخليفة الزناتى حتى تكون لهم بها تعزية عن بطولتهم الميتة . لأنا اذا تأملنا ما فيها من الشعر نجده مثل شعر عرب المغرب وهم فى شيخوخة نهضتهم ، هذا الشعر الذى تأثر بتلك الموشحات التى ذاع أمرها فيهم وكانت خليطا من العربى الفصيح والكلام العامى (راجع الكلام على الموشحات فى كتاب بلاغة العرب للاستاذ ضيف وفى تاريخ الأدب الأندلسى للاستاذ الكيلانى) .

وقد وصف لسان الدين بن الخطيب الاسبان في حربهم في زمنه وما كان لهم من حسن النظام في هجومهم أميرهم ومأمورهم راجلهم وفارسهم ومن قوله : «وحال هذه الأمة غريب في الحماية المدزوجة بالوفاء والرقة والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمية ، عادة العرب الأول » . ومن كلمته الأخيرة تعلم أن العرب في شيخوخة دولتهم لم يكونوا على شيء من الثقافة الحربية في عامتهم ، وان ظهر منهم افراد سجل التاريخ لهم بطولتهم مثل موسى بن غزان بطل غرناطة[١] وعلى ابن الفخار[٢] وحامد الزغبي بطل مالقة ، وهو الذي أبلى في دفاعه عنها بلاء سجل فخره له التاريخ .

ولقد كانت حالة عرب الأندلس تتبع حالة القائمين بأمر الحكم فيها قوة وضعفا . وكذلك حال الاسبان كانت تتبعها انقباضاً ونشاطاً . لذلك اختلف المؤرخون من العرب في تصويب ابن تاشفين فيما عمل مع ملوك الأندلس في جوازه الثاني وفي تخطئته : فبعضهم يقول انما سار

---

(١) لابن غزان في حروبه مع الاسبان وقائع كثيرة اشتهر فيها بشجاعته الخارقة للعادة . وكان يخالف رأي الغرناطيين في اقرار الصلح الذي قدمه اليهم فرديناند وكان يرى الاستمرار في الحرب حتى يقضي الله أمراً . فلما خالفوه خرج مجاهدا للمحاصرين وحده ، ومات في جهاده بعد أن فتك بعشرات منهم .

(٢) كان ابن الفخار من القواد العظام وكان في يده عدة حصون فلما سقطت بسطة في يد الاسبان حضر في جملة القواد الذين سلموا مفاتيح حصونهم الى فرديناند ورجعوا بالجوائز ، فلما وصلت النوبة اليه قال للملك فرديناند : « انني رجل مسلم قائد لحصون طبرنة وبرشنة . (ذكرها ياقوت برشانة) وقد تسلمتها للمحافظة عليها ولكني فقدت حاميتها ومن بقي منهم لا يطيقون الاستمرار في الحرب ، وبهذا أصبحت لكم . وها هي هذه مفاتيحها » . فأمر فرديناند باعطائه مبلغاً كبيراً . فأبى أخذه بكل كبرياء قائلا : أني لم آت لأبيع ما ليس من ملكي وليكن في علمكم أنه لو بقي معي من يسعفني في قتالكم لكان الموت ثمن هذه الحصون بدلا من هذا الذهب الذي تنعمون به علي . فأعجب الملك بشهامته وطلبه في خدمته ، فأبى الا أجازته ومن كان معه الى أفريقية وهم في أمان على أموالهم ودينهم وأعراضهم .

الى الأندلس بدعوة من مسلميها يستصرخونه فيما كان ينزل بهم من ملوكهم من المظالم وكثرة المكوس والضرائب وخيرا فعل. وبعضهم الآخر يقول انما بهره كثرة ما شاهده بها فى جوازه الأول من عظيم الثروة وضخامة الملك وبارق العمران وتألق الحضارة فقصدها بتلك الحجة، ونكل بملوكها حتى تكون له البلاد من غير شريك أو وسيط، وينااله باللائمة لأنه بعمله هذا هدم أول حجر من صرح حكم العرب فى البلاد، ذلك الصرح الذى أخذت حجارته تتناثر واحداً بعد الآخر الى أن تم هدمها بعد أربعة قرون (وهى قليلة فى عمر الدول).

وعلى كل حال إن ابن تاشفين ما كان له أن يقضى مرة واحدة على هؤلاء الرؤوس الذين كانوا يديرون ما كان فى أيديهم من البلاد التى كانت فى دائرة حكمهم، والذين كانوا أدرى الناس بمسالكها ومساربها وادارتها وأعرف الناس بدائها ودوائها، وأقدرهم على تشميرها والدفاع عنها لعدوها الذى كان لها بالمرصاد من جهتيها الشمالية والغربية.

على أن ابن تاشفين بعد أن بلغ شهوته من تملك البلاد من أقصاها الى أدناها كان لا بد أن يعامل ملوكها الذين أصبحوا فى أسره، من غير أن يبدأوه باعلان حرب ولا بخلاف فى رأى إن لم يكن بالحسنى التى تليق بأمثالهم فلا أقل من الشفقة والرحمة.

وأن من يطلع على بقية حياة ابن عباد فى سجنه وهو يرسف فى أغلاله وقيوده بعد ما كان له من عزة الملك ونعيم السلطان: فراشه الغبراء! وغطاؤه صفحة الهواء! وأنيسه البكاء! وقرينه الداء! وسميره كل نوع من أنواع البلاء!! يرى أن قلوب الملوك إذا كانت كبيرة فى

نعمتها فهي كبيرة في بؤسها ونقمتها . وان ابن تاشفين إذا كان خشناً في طعامه ، خشناً في لباسه، لشدة في دينه ، فقد كان سامحه الله خشناً في معاملته لكل من أوقعه سوء حظه بين براثن غضبه :

ومن يطلع على قوانين الحروب في هذا الزمن ير أن الشخص المحارب لايلبث بعد وقوعه في أسر عدوه أن تنقلب عداوة الغالب له شفقة وإحسانا إلى هذا الذي أصبح لا حول له ولا قوة . وقد يتركون للعظيم سلاحه ، ويوفرون له أسباب الراحة ، والأمثلة في هذا كثيرة تفوق الحصر .

وعلى كل حال إذا كانت الأندلس قوية الجانب مدة يوسف بن تاشفين فانها ظهرت بعد قليل بمظهر الضعف في نهاية حكم المرابطين (١) لشدة عمالهم الذين كانوا بعيدين عن المرونة السياسية ، وعن التسامح

---

(١) سموا بالمرابطين لانهم كانوا في أول أمرهم يجتمعون برباط في صحراء مراكش يعبدون الله فيه مع شيخهم عبد الله ابن ياسين ، فاجتمع عليهم أناس كثيرون أكثرهم من لمتونة احدى قبائل البربر ، وفي مقدمتهم يحيي بن عمر اللمتوني . ولما انقسم الأندلس بين ملوك الطوائف ، استبد بأطراف المغرب أمراء الأطراف ، وقامت منهم دولة مغراوة بفاس وعاملوا الناس بظلمهم. وكان أمر المرابطين قد ظهر واشتهروا بدينهم وتقشفهم . فكتب فقهاء سجلماسة الى ابن ياسين في الوفادة اليهم وكان ذلك في سنة ٤٤٧ هـ . فسار اليهم بمن كان معه من المرابطين وعلى رأسهم يحيي بن عمر اللمتوني ،وأخذوا يستولون على البلاد التي في طريقهم . ولما مات يحيي قام بأمر القيادة أخوه أبو بكر بن عمر . ولما مات ابن ياسين في سنة ٤٥١ انتهت الزعامة الى أبي بكر . وما زال في فتوحاته حتى انتهى أمر البلاد اليه . وهنالك عقد لابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب وانسحب هو الى الصحراء وقضى فيها بقية أيامه .

والمرابطون يسمون ايضا بالملثمين لانهم كانوا يغطون وجوههم بحيث لايظهر منها غير أعينهم. ويقال أن سبب ذلك شدة برد الصحراء وشدة حرها . ويقال ايضا ان سبب ذلك انهم في قلتهم خرجوا للغزو فجاء اناس وهجموا على ديارهم . فتلثم النساء وحملن السلاح ووقفن أمام بيوتهن فظنهم عدوهم رجالا ورجع من حيث اتى، ومن ثم صار اللثام من عاداتهم. وفي الملثمين يقول الشاعر

قوم لهم درك العلا من حمير ... وأن انتموا صنهاجة فهم همو

لما حووا احراز كل فضيلة ... غلب الحياء عليهم فتلثموا

الذى ألفه أهل البلاد فى حكم من كان قبلهم ، ثم لخمود عزائم أحفاد ابن تاشفين الناشىء عن اختلافهم طمعاً فى الملك . ولولا أن تغير حكمهم فى المغرب بحكم الموحدين وظهر من هؤلاء ملوك من أحسن الناس عقلا ، وأكبرهم فضلا ، وأغزرهم علماً ، وأبعدهم نظراً ، وأحسنهم سياسة ، وأكملهم رياسة ، كعبد المؤمن وولده يوسف ، ثم يعقوب بن يوسف ، لما كان قد بقى ذكر لحكم المسلمين بالأندلس . حتى إذا جاء الناصر محمد ابن يعقوب وجاز إلى الأندلس بهذا الجيش الهائل الذى أعجبته كثرته إلى درجة لم يحسن معها سياسته مع رجالات الاندلس بل عاملهم بالقهر والاذلال من غير ماسبب الا زهوه بنفسه واعجابه بكثرة خيله ورجله ، ودارت عليه الدائرة فى حربه مع ملوك الأسبان وتمزق جيشه كل ممزق ، أخذ صرح البلاد يتناثر من أطرافه بسرعة فى يد العدو ولم يبق فى يد المسلمين غير غرناطة وهى إحدى ولاياتها الشرقية . ولم تلبث أن أتى عليها دورها من السقوط فى يد الاسبان بعد أن ضعف أمر بنى مرين ملوك المغرب ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الرسالة التاسعة

بعد تسليم غرناطة

حاصر الملك فرديناند الثانى غرناطة سبعة أشهر حتى كاد الناس فيها يأكل بعضهم بعضاً . وآل أمر سلطانها أبى عبد الله بن على الى تسليمها الى فرديناند وزوجته إيزابلا بشروط جملتها سبعة وستون شرطاً : أهمها تأمين أهلها على أنفسهم ودينهم وأموالهم وأعراضهم وأملاكهم وحريتهم وإقامة شريعتهم واحترام مساجدهم ومعابدهم وشعائرهم وفك أسراهم وإجازة من يريد الهجرة منهم الى العدوة واعفاؤهم من الضرائب والمغارم سنين معلومة . وهكذا من أمثال هذه الشروط التى لم يعمل الاسبان بشىء منها . وبعد استيلائهم على المدينة رتبوا حكاماً من النصارى فأخذوا ينتحلون الأسباب لمحاكمة المسلمين ، وكانت نتيجة الحكم إما التنصر أو الإعدام . وقد تنصر كثير من الناس صورة أو حقيقة على حسب قوة يقينهم فى دينهم ، اتقاء لظلم الغالبين وعسفهم الذى لم يكن له من مسوغ غير تعصبهم الدينى . نعم كان تعصب الاسبانيين فى منتهى حدوده : من ذلك أن ترتبت فى إسبانيا من أول القرن الثانى عشر أنظمة كنسية لمحاربة المسلمين : منها نظام فرسان الهيكل ، ونظام قلعة رباح ، ونظام مارى يعقوب ، ونظام فرسان مارى جرجس ، ونظام سيدات الفأس وكان خاصاً بالنساء . وكان لكل نظام ملابس خاصة به مرسوم عليها الصليب بحال تميزه عن غيره . لذلك كان تعصبهم الدينى

تعصباً عنيفاً لا يتفق مع السماحة [1] التى كان المسلمون يعاملون بها الاسبان وهم فى ضعفهم ، بل لا يتفق مع معاملة مسلمى الشرق للنصارى فى حروبهم الصليبية .

وهـذا التعصب وان كان موجوداً فى الأسبان بطبيعته ، زاده اضطراما ما كان يصدره البابوات من المنشورات ضد المسلمين وخاصة بعد استيلاء الأتراك على الاستانة عاصمة الدولة الرومانيـة الشرقية فى سنة ٨٥٧ هـ . وفى هذا الوقت كانت أوربا كلها محتدمة بفكرة التعصب الفظيع ضد المسلمين بصفة عامة وعلى الاخص بعد أن وصلت فتوحاتهم فى أوربا مدة السلطان سليمان الأول الى أسوارفينا . واستولت أساطيلهم تحت قيادة خير الدين باشا أمير البحر (باربا روس) على كثير من سواحل

---

(١) الأمثلة العملية على سماحة الدين الاسلامى كثيرة منها أن على بن طالب كرم الله وجهه وقف وهو بمركزه من الدين والعصبية بجوار رجل يهودى أمام عمر بن الخطاب فى قضية له عليه فسأله عمر بكنيته ، فطلب اليه على العدل بينهما قائلا لاتكنى ياأمير المؤمنين وانا بجانب خصمى .

وكان الخلفاء وهم فى قوتهم وعصبيتهم الدينية يحترمون عقائد شعوبهم ولذلك تشعبت فى مدتهم المذاهب الدينية . وكانوا يحترمون المتدينين من أهل الدمة سواء أكانوا من النصارى أم من اليهود . وكانوا يوظفونهم فى حكومتهم فكان منهم الأطباء والوزراء . وكان المتوكل العباسى على صلابته فى دينه وتعصبه للسنية يؤاخذ النصارى على عدم تمسكهم بدينهم كما فعل مع طبيبه حنين ، وكان بلغه أنه تفل على صورة السيدة العذراء فحده وسجنه .

وفى أيام المعتضد بالله قامت العامة على رجل من النصارى واتهموه بأنه سب النبى وأحضروه بين يدى الوزير القاسم بن عبيد الله وطالبوه باقامة الحد عليه ولكنه صرفه لتحققه عدم صحة دعواهم .

وقد صلب الخليفة الحكم بن الناصر أحد عماله لأنه بلغه أنه ظلم أحد أهل الذمه .

وقد وصل كثيرون من أهل الذمة الى مناصب الوزارة كعيسى بن نسطورس النصرانى ، ومنشا اليهودى : وكانا من وزراء العزيز بالله الفاطمى . ومنهم اسماعيل بن نغزلة اليهودى الوزير بغرناطة

بل أن الدول النصرانية كانت تلجأ الى سماحة الاسلام وعدالته فقد أرسلت حكومة المجر فى سنة ١٦٠٥ مدة السلطان أحمد الأول سفيرا الى الأستانة يرجوه أن يجعل المجر تحت حمايته من ظلم النمسا المسيحية واسترقاقها للمجريين .

أما الأحاديث والأوامر الدينية التى توصى بأهل الذمة فهى كثيرة جدا ولكنا اقتصرنا على ذكر الوقائع العملية لتكون أمتن فى الحجة على مافعله الاسبان مع العرب من ظلم لاتسعه مغفرة التاريخ .

البحر الأبيض المتوسط من جهتيه الشمالية والجنوبيــة . وكان لهذا الأسطول يد بيضاء فى إغاثة كثير من عرب الأندلس بعــد سقوط بلادهم فى يد الاسبان وجوازهم الى تونس والجزائر .

ولما أصبحت مظالم الاسبان ومغارمهم بحيث لايحتملها إنسان ثار جماعة من البيّازين وهم قوم من عرب الاندلس بغرناطة اشتهروا بعزتهم ونخوتهم وفتكوا ببعض الحكام ، وقد يكون هذا بدافع سياسى من عدوهم ، هنالك قامت قيامة القسوس ونادوا بالثبور وعظائم الأمور . وأنشأوا محاكم التفتيش : وهنا تقشعر الأبدان وتهلع النفوس لذكرى تلك الشنائع والفظائع التى كانوا يوقعونها على أولئك الأبرياء مما سجله عليهم التاريخ فى صفحات الوحشية التى لم يكن لها مثيل فى صحيفة من صحائف المظالم من يوم خلق الله الانسان : فكم من نفوس قتلت ، ورجال صلبت ، وأعراض هتكت ، وأموال نهبت ، وكتب أحرقت ، وديار هدمت ، وجسوم مثل بها وهى على قيد الحياة !!

ولمــا وصلت نكبة الاسبان للعرب (سواء أكانوا من المسلمين أم من اليهود ، أم من الذين تنصروا منهم) الى الحد الذى لا يحتمل ،وصدر أمر الملك سنة ١٥٦٣ بأنهم يغيرون زيهم ولا يتكلمون الا الاسبانية ، ثار أحد سلالة بنى سراج واسمه فرج بن فرج ولجأ الى جبال البشرات وتبعه عدد غير قليل من غرناطة ، وكان منهم هادوناندودوفلور وهو من نسل خلفاء قرطبة فنادوا به ملكا عليهم تحت اسم محمد بن أمية .وهناك عمت الثورة كل نواحى جبال البشرات ، واستمرت هذه الفتنة سنتين وهى على منتهى شدتها ، وأبلى فيها الفريقان بلاء عظيما ، ومات منهما خلق كثير .

وقد خلع المسلمون ابن أمية لهوادته وولوا أمرهم أحد الزعماء المشهورين ببسالتهم وشجاعتهم واسمه عبد الله بن أبيه . وما زالوا فى كفاحهم حتى غلبتهم كثرة الاسبان وشتتت جموعهم وأفنتهم بين تقتيل وتحريق وتنكيل، وبعد أن قتلوا رئيسهم عبدالله علقوا رأسه على أحد أبواب قرطبة ، وبقى معلقا عليه ثلاثين سنة . وأخذ الاسبان بعد هذه الواقعة يطردون العرب من بلادهم ، وقد قدروا المطرودين منهم بعد سقوط غرناطة بثلاثة ملايين نفس ، كلهم أهل نجدة وصناعة وتجارة وزراعة . وعلى أثر ابعادهم خرجت غرناطة وضواحيها حتى أصبح مرجها قاعا بلقعا بعد أن كان جنة الله فى أرضه .

ومن ينظر الى حالة الاسبان وهم فى ضعفهم وقلتهم ير أنهم كانوا كباراً فى جهادهم لعدوهم مدة ثمانية قرون ، كباراً فى دفاعهم عن حوزتهم، كباراً فى نضالهم عن حياتهم ، كباراً فى نبذهم كل خلاف لهم تلقاء كل خطر يدهمهم ، كباراً فى مثابرتهم على دفع ذلك الخصم القوى الذى كان يتغلب على بلادهم ، حتى اذا تغلبوا عليه وانقلبت الحال بأن صار هو الضعيف بين أيديهم ، لم يكونوا كبارا معه فى شىء ! ! بل ضاعت كل محامدهم أمام التاريخ للمثالب التى ارتكبوها مع العرب بعد استيلائهم على غرناطة : فقد اخفروا عهدهم ولم يوفوا لهم بذمتهم وعاملوهم باسم النصرانية بما تبرأ منه الانسانية : ذلك بأن قرروا جمعهم بين مسلم ويهودى واستصدروا أمرا ملكيا بأن من لم يتنصر [1] منهم فجزاؤه القتل !

---

(١) لما فتح المسلمون الجزيرة (العراق) هربت قبيلة اياد ودخلت بلاد الروم فكتب عمر الى هرقل بردها ، فأخرجها هرقل من دياره وكان على الجزيرة الوليد بن عقبة فأبى أن يقبل منهم الا الاسلام ، فكتب اليه عمر « دعهم على أن لا ينصروا وليدا ولا يمنعوا احدا منهم من

ولما رأوا أن كثرة سفك الدماء تؤثر بطبيعتها فى تهييج النفوس على الخشى مغبته . شادوا محارق فى كل عاصمة من عواصم الأندلس، وكانوا يأتون بمن بقى على دينه من العرب ويلقون به فى أتون تلك الجحيم فتصعد روحه صارخة الى السماء، بعد أن يذهب جسمه بخاراً فى الهواء .

وكان قد بقى من العرب فى الاندلس عدد ممن تنصر أو تدجن وكانوا يعاملونهم أسوأ معاملة .

والمدجنون هم المسلمون الذين بقوا فى البلاد التى تغلب عليها الاسبان بسبب ضعفهم أو عدم قدرتهم على الهجرة الى بلاد اسلامية .

وقد وضع الأسبانيون لمن بقى منهم تحت حكمهم اشارة [1] فى

الاسلام » ثم عزل الوليد عنهم لسطوته وشدته . فانظر الفرق بين المعاملتين ! !

وفى مدة السلطان ابراهيم الاول العثمانى استولى الاسطول التركى سنة ١٦٤٥ م على خانية عاصمة كريد ، وكان نصارى الجزيرة يساعدون البنادقة الذين كانوا متسلطين على الجزيرة ضد جيوش الاتراك واحرقوا فى الامدينة بتراس وغيرها من الثغور، فاراد السلطان ازاء ذلك أن يقتل جميع النصارى بالجزيرة ولكن المفتى اسعد زاده عارضه فى هذا الامر معارضة شديدة قائلا انه مخالف للشرع الاسلامى وبذلك لم يقع سلطان العثمانيين فى مثل هذه الشناعة التى وقع فيها ملوك الاسبان أمام الله والتاريخ.

(١) جاء فى الجزء الأول من المقرى وصف ابن سعيد المؤرخ للقاهرة عند زيارته لها فى أوائل القرن السابع الهجرى وهو الوقت الذى كانت فيه الحروب الصليبية قائمة على ساقها بين نصارى الغرب الذين أشعلوا فى عامة أوربا جذوة الحرب الدينية ضد مسلمى الشام ومصر : « والنصارى بالقاهرة يمتازون بالزنار فى أوساطهم واليهود بعمائم صفر ويركبون البغال ويلبسون الملابس الجليلة» . ومن هذا تعلم أن تلك الحرب على شناعتها وصبغتها الدينية لم تحرك حقد المسلمين فى مصر والشام ولا فى غيرهما ضد النصارى الذين كانوا يعيشون بين أظهرهم ولم يكن تمايزهم فى زيهم الا لتمييزهم من غيرهم ، كما ميزوا الاشراف بعمائم خضر سنة ٧٧٣ هـ . زمن السلطان الاشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون وفى ذلك يقول ابن جابر الاندلسى نزيل مصر .

جعلوا لاولاد النبى علامة ان العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة فى وسيم وجوههم يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

واذا كان قد صادف النصارى أو اليهود شيء من الاضطهاد في بعض الدول الاسلامية يكون ذلك إما انتقاماً لأمر سيئ ظهر من جهتهم ليس للتعصب الدينى أثر فيه أو استبدادا من بعض الملوك الذين لم تقتصر نقمتهم على من خالفهم فى دينهم وفى مذهبهم الدينى فحسب، بل كثيراً ما كان ينال ظلمهم كل طبقة من رعاياهم لسبب أو لغير سبب وخصوصاً فى دول المماليك . ومن ذلك ما أمر به صلاح الدين ابن محمد بن قلاوون فى سنة ٧٢٤ هـ ، من ان الفلاحين بمصر لا يركبون الخيل ولا يحملون السلاح !

لباسهم تميزهم عن غيرهم سواء منهم النساء والرجال ، كما جعلوا لهم قوانين خاصة بهم : منها انه لايجوز لمسلم أو يهودى أن يستخدم مسيحياً مطلقاً، ومن خالف هـذا يستولى على أملاكه ، وليس لهم أن يقبلوا دعوة مسيحى ، أو أن يدخلوا بيته إلا اذا كان طبيباً وقد حظروا عليهم معاملة المسيحيين فى أخذ أو فى عطاء . وان من يفر منهم إلى بلاد المسلمين يعد أسير حرب وتضبط جميع أملاكه ، ويكون هو ملكاً لمن يقبض عليه من الاسبانيين . ومن يعارض من المسلمين فى تنصير ابنه يحكم عليه بغرامة فادحة . ولذلك كان كثير من المسلمين يقتلون أولادهم خشية تنصرهم . ومن كان من المسلمين له دين على أسبانى بعقد لا تكون له قيمة إن أنكره المدين إلا اذا كان مسجلا فى محكمة اسبانية . وليس لرجالهم أو نسائهم أن يلبسوا الحلل الحريرية ولا يتزينوا بحلى الذهب والفضة . وبالجملة قد كان محرما عليهم أن يركبوا الخيل وأن يحملوا السلاح وان يظهروا بأى مظهر من مظاهر الدين الاسلامى لا بالقول ولا بالفعل : كالجهر بالشهادة أو الصلاة مثلا ! !

ولقد عقد القوم النية على ألا يبقى من العرب فى البلاد مسحة من عمل أو أثر من طلل ! ! فألقوا بمن بقى منهم الى البحر فغرق من غرق ونجا من طال عمره الى بلاد المغرب أشتاتاً فى مناكبها ، عمالا يطلبون الحياة بعرق جبينهم ، بعد أن كانوا سادة فى مواطنهم ، قادة فى بلادهم . وقد ذكر بعض السياح أخيرا أنه شاهد بجوار (تمبوكتو) قبيلة اسمها (اندلوز) ولا بد أن تكون من فلول عرب الأندلس .

ولقد سعدت بلاد المغرب بمن وصل اليها من الأندلسيين ، وخاصة

تونس التي فتحت أبوابها لهم : فنهضت زراعتهـا ، وظهرت صناعتها ، وبرز عمرانها ، ونشطت حضارتها ، من بنايات على الطراز الأندلسي ، وعمارات على أحسن شكل هندسي ، مما لا يزالون يقيمونه فى المعارض المختلفة إلى الآن . كما فقدت بهم اسبانيا رجالا عاملين ، وزراعا متقنين ، وصناعا فنانين حتى أصبحت بلادهم قفرا جرداء فى كثير من جهاتها إلى الآن . ولولا أن صادف طردهم للعرب من ديارهم كشف[1] كولمب لامريكا ، وصارت لهم مصـدر رزق جديد لهلـكوا جوعاً . وبالجملة قد أجمع مؤرخو الافرنج على أن اسبانيا لم تحلم إلى اليوم وإلى الغد بمدنيـة مثل مدنيتها مدة العرب . وسبحان من يرث الأرض ومن عليها .

وقد استبقى القوم بعض الفنانين من المسلمين واليهود عبيـداً لهم وحبسوهم فى الاديار لنحت التماثيل ، وبناء الكنائس ، وتجديد بعض الآثار الفنية العربيـة مما لا يمكن غيرهم عمله ، وآثارهم كثيرة تملأ دور الآثار باسبانيا من نحاس مكفت بالذهب والفضة أو عاج منقوش وغير ذلك مما يستدعى الأعجاب والأغراب بدقة هـذه الصناعة الفخمة وقتما كانت أوربا غارقة فى بحار الهمجية والوحشية . ومع هـذا كله أنهم كانوا يدعون هؤلاء الصناع بالعبيـد ويعاملونهم بأقسى المعاملات وخاصة رجال الدين الذين هم أولى الناس بالشفقة والمرحمة وأحق الخلق بالرفق والاحسان . وقد أشار الرندى الى ذلك فى قصيدته المشهورة قال رحمه الله :

---

(١) نقل بعضهم عن الادريسى انه خرج من اشبونة ثلاثة اخوة من العرب هائمين فى بحر الظلمات جادين في الوصول الى ما وراءه ويقال انهم عثروا على جزيرة سكانها حمر ، فاذا صح هذا كان العرب أول من استكشف امريكا .

أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم ... أسرى وقتلى فما يهتز انسان
بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم ... واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان

وقد يقول قائلهم ، إن العرب كانوا أيضا يستعبدون أسراهم: فنقول له على رسلك ، فليس الأمر فى الحالين واحدا : لأن أسير الحرب ينزل بطبيعته على حكم الذى أسره ، وكانت هذه سنة سار عليها الناس من قديم الزمان . وقد ترى صور أسرى الحرب منقوشة على هيا كل المصريين وخاصة الكرنك ، وقد وضعت فى أعناقهم السلاسل والأغلال ، وقدموا واحداً واحداً الى الملك المنتصر ليقطع بسيفه رقابهم تشفيا منهم أو إرهابا لغيرهم . وتواريخ الرومان واليونان والفرس حافلة بذلك ، حتى الفرق المذهبية من دين واحد اذا نشبت بينهم حروب كانت القسوة تكون متمثلة فيها كل التمثل: انظر الى حروب اليعقوبية مع الارثذوكسية ، والسنية مع الشيعة، والكاثوليكية مع البروتستانتية ، تجدها كلها تنتهى بقسوة المنتصر . وترى هذه القسوة فى الأحزاب السياسية لاختلافهم فى رأى قد يكون صوابا وقد يكون خطأ . أما هنا فليس الحال كذلك : لأن القوم سلموا بشروط منها حقن دمائهم ، واحترام شرائعهم ، وحفظ أموالهم وأملاكهم ، والابقاء عليهم فى مواطنهم . وقد خالف الاسبان كل ذلك مع أنهم أمضوا عليه صلحهم .

ولو رجعت معى الى حرب المسلمين لبلاد الفرس لرأيت غير ذلك فقد كان العرب حاصروا مدينة جند يسابور من كل جهة وكانوا يراسلون

المحصورين من الجهة التى فيها القائد طبعاً بأنهم ينزلون على حكم الفاتح وقد كاد يتم لهم ذلك لولا ان أحد العبيد وكان على باب من أبواب المدينة خاطبهم فى تسليم البلد ولهم حريتهم فى أنفسهم وأملاكهم ، ففتحوا له الباب وطالبوا الفاتحين بشرطهم فنا كرهم المسلمون، وأرسلوا يستشيرون عمر رضى الله عنه فأمضى عمر أمان العبد قائلا : المسلمون متكافئون فيما بينهم يجيز أدناهم على أعلاهم ،وقد احترم عمر رأى عبد من العبيد لتضامنه مع بقية الجيش فى كونه معهم ، وفقد المسلمون بذلك ما كانوا يغنمونه من هذه المدينة وهو شىء كثير . أما الملك فرديناند والملكة ايزابلا وكبار قومهما فأنهم لم يرعوا لهم وعداً،ولم يحترموا عهداً مع أهل غرناطة

وبقيت فى البلاد بقية ممن تنصر من العرب (ويسمونهم مورسك) ، اندمجوا فيهم وتكلموا لغتهم ، ولكنهم حافظوا من جهة أخرى على لغتهم العربية فكتبوها بالأحرف الأسبانية ، ويسمونها الخميادو . ولا تزال فيها كتب كثيرة مكتوبة بالأحرف الأفرنجية . ولكن من يطلع عليها يجدها لغة أخرى غير العربية لما صادفها من التحريف والتصحيف . ومن هذا أن اللغة القبطية القديمة كتبها أهلها مدة الدولة الرومانية بالأحرف اليونانية وقد دخل عليها كثير من التحريف فأصبحت لا مصرية ولا يونانية .

وهنا ذكرت ما بدا لاخواننا الاتراك من نبذ قواعد الكتابة التركية وتغييرهم حروفها بالحروف اللاتينية. ولا بد أن يصادفهم ماصادف العرب من الخميادو : فتصبح اللغة التركية لا شرقية ولا غربية : و بذلك يقضون على مجدهم القديم وتاريخهم الذى كله جلال وعظمة .

ولغة الأسبان الآن وان كانت من اللغات اللاتينية ترى فيها كثيراً من الألفاظ العربية بتحريف يسير أو تصحيف قليل وكثيراً ما ترى الأسماء العربية منتشرة فى القوم بشىء من هذا التحريف مثل NASSARE نصار . RABADANE رمضان . CALAF خلف . وقد عقد الأستاذ العلامة أحمد زكى باشا باباً كثير الاهمية فى هذا الموضوع برحلته «السفر الى المؤتمر» .

وبالجملة كل كلمة عندهم مبتدأة بأداة التعريف (ال) فهى عربية مثل: القاضى « ALCALDE » . القائد . المنارة . الكرازة . الفارس . الوادى الكبير . الروضة . الأبيار « AL AVIARE » . المحراب . الانبيق . الساقية . الربض . القصر . « ALCASARE » . القنديل . الفندق . القصبة . المسجد . القميص . السروال .

ولقد كنت أود أن أكثر لك من هذه الأسماء لولا أن ذلك يستدعى تحليلا فى لغة القوم وأنا أجهلها ، وجهلى بها حال بينى وبين معرفة كثير من شؤون البلاد فى حاضرها وغابرها ، نعم كان معى دليل يعرف بعض الفرنسية ، ولكن الأدلاء هنا هم أشبه الناس فى مهنتهم بهؤلاء الذين تراهم على أبواب شبرد والكونتيننتال بمصر ، وعلى مدخل الكرنك وغيره من هيا كل الصعيد ، إلا أن الحكومة المصرية بدأت تهتم بشأن هذه الطائفة التى يسمونها تراجمة ، وأذكر أنها قررت عمل امتحان لهم فى مهنتهم الارشادية الى الآثار المصرية وحسنا فعلت . ولو أن دار الآثار تحفل بوضع كراسة صغيرة بالعربية عن آثارها بمصر حتى يمكن أن ينتفع بها أبناؤها الذين لا يعرفون البحث فى كتب الآثار التى

باللغة الأجنبية لكان لها فضل يذكر بجانب هذه الفائدة الكبرى التى تعود على البلاد من وراء هذا العمل السهل المفيد .

وبهذه المناسبة أذكر أنى كنت فى زيارتى للكرنك فى الشتاء الماضى، وكان به تلامذة صغار أتوا من بعض مديريات الصعيد لزيارته مع أستاذهم الذى كان يشرح لهم تاريخ هذه الآثار ، وكان شرحه يدور حول كلمتين « اعجابه من ضخامة الأحجار التى بنيت بها هذه الآثار ! ! » واتفق وجود حسن بك الدجوى مدير أسوان فأخذ يشرح للتلاميذ تلك الآثار شرحا دقيقا يتفق وسنهم. ولا شك أن هذا الأستاذ معذور لأنه لو كان يعلم أكثر من ذلك لما ضن به على تلاميذه . وهذا نقص كبير فى حكومتنا التى قد يذهب اهتمامها بالتافه من الأمور الى الحد الأقصى ، ويصل تقصيرها عن النافع منها الى حد لا مثيل له فى الحكومات الأخرى!!

للعبرة والتاريخ

وصل طارق بالفتح الى منحدرات جبال البيرينات التى يسكنها قوم يسمونهم الباشكنس (الباسك) واحتل العرب كل جهات الجزيرة الا جزءا يسيراً فى غربيها الشمالى قرب خليج غسقونية على نهر دافا ، كان العرب يسمونه الصخرة والأسبان يسمونه كوفادونجا ، لجأ اليه فلول من القوط [1] وغيرهم وانتخبوا للأمارة عليهم رجلا من سلالة لذريق

---

(١) انتهت دولة القوط بموت لذريق آخر ملوكهم فى حربه مع طارق . ومن بقى منهم اندمج فى البشكنس وغيرهم ممن بقى من العناصر الاسبانية فى شمال البلاد ، كما اندمج كثير منهم فى سواد الفاتحين . وكانوا لايزالون يذكرون هذا اللفظ الى مابعد الدولة الأموية . ومن ذلك ابن القوطية ذلك العالم المسلم الكبير الذى مات سنة ٣٦٧ هـ . وقد سأل الحكم بن الناصر أبا على القالى : من أنبل من رأيته فى اللغة ببلدنا ؟ — فقال محمد بن القوطية .

آخر ملوك القوط اسمه بلايو ،وكان أهلوه يعتصمون بما فيه من الحصون والمعاقل الطبيعية ، ويستميتون فيها دفاعا عن وجودهم وحياتهم .

وكان رأى طارق أن يطهر الجزيرة من سكانها الأصليين ، وأن تكون جبال البيرينات جميعها فى يد المسلمين ، حتى يكونوا فى أمن من هذه القلة التى كانت تسكن رأس البلاد ، وهى أشبه شىء بالجراثيم الضارة التى أن أهملت كثرت الى الدرجة التى ينوء الجسم بحملها .ولكن جوازه الى الشرق مع موسى بن نصير حال بينه وبين تنفيذ هذه الفكرة السديدة الثاقبة . وبقى القوم جاثمين فى أغوارهم يظهرون للعرب الطاعة والاخلاص غير مخلصين ، وقد يرشدونهم الى عورات الفرنجة فيما وراء (البيرينات) بل يساعدونهم عليهم،لا محبة فى العرب ولكن دفاعا للفرنجة عن كيانهم من الشمال ، كما كانوا يدفعون العرب عنه من جهة الجنوب.وما زال هذا شأنهم فى سياستهم الحيوية حتى كونوا لهم دولة سموها ايون وأقاموا عليها ملكا منهم.ثم أخذت أطرافها تمتد الى الجنوب الشرقى حتى تمخضت عن مولود جديد سموه قشتالة قام بتدبيره أمير منهم ، ثم آل أمره الى أن صار ملكا . واستمرت أملاكهم تمتد الى الشرق ببطء لا يظهر معه خطرهم ، حتى ظهرت مملكة ثالثة سموها نافاريا ، ثم انتهى الأمر بوجود مملكة رابعة فى الشمال الشرقى للبلاد سموها أراغون . وكانت هذه الممالك تعمل على الدوام لحرب العرب بطريق مباشر أو غير مباشر : فكانوا اذا آنسوا من العرب قوتهم التى لا قبل لهم بها ، أخذوا يدسون الدسائس بين ولاة الأطراف بكل وسيلة ممكنة ، ويحتالون للوقيعة بينهم : فتدب البغضاء فى قلوبهم ويظهر الخلاف فى دوائر حكمهم وينتهى أمرهم بأن

يشن كل قبيل حربه على الآخر لسبب تافه وهنالك تضطر الإمارة العامة الى التدخل بينهما لردع الفئة الباغية بسيفها . وفى هـذه الأثناء قد تثور فئة ثالثة ضد رابعة ، فتسير الامارة جيشاً آخر للفصل بينهما ، وقد يكون تأثير هذه العوامل المفسدة فى إشعال نار الثورات فى القبائل ضد عرش البلاد لسبب قد لا يكون وجيهاً ، فيشتغل الأمير أو الخليفة بالحرب فى داخل بلاده حتى اذا أخمد النار من جهة تأججت فى جهة أخرى . وفى هذه الحالة قد ينهض الأسبانيون لشن غاراتهم عليـه لاعتقادهم ضعفه ، فان كانت الغلبة لهم زادوا فى دائرة حكمهم الى الجنوب ، وان كانت عليهم أخذوا يتزلفون الى الأمير بعبارات الأسف والتوبة بما يحسن عليه سكوته لتفضيله للسلم ، حتى يتفرغ للنظر فى شئون بلاده التى شغلته عنها كثرة الحروب . ولقد كان هـذا حال المسلمين من منتصف القرن الثانى للهجرة الى منتصف القرن الخامس : لم يهدأ لهم بال فى حرب ولا فى سلم من فعل ملوك قشتالة وليون وأراغون . الا فى الأوقات التى كان فيها بأسهم فيما بينهم لخلافهم على الملك . وكثيراً ما كانوا فى زمن ضعفهم يؤدون الجزية لأمراء المسلمين وخلفائهم، وقد ظهرت تبعيتهم تامة واضحة لعبد الرحمن الناصر فى النصف الثانى من حكمه . ولما وفد عليه سفراء ملوك الأستانة والفرنجة لتهنئته بالخلافة ولتوطيد دعائم التقرب والمحبة بينهم وبينه ، وفد عليـه ملوك الاسبان متقدمين بطاعتهم له وولائهم اليه ، وبقوا على ذلك الى أن تمزقت الدولة الأموية الى ملوك الطوائف ، فأخذوا يتسمون فى ملـكهم ويضاعفون من قوتهم ويرمون ملوك المسلمين بعضهم ببعض ، وقد كانوا يأخذون الجزية من ضعفائهم الى

أن انقطعت بحكم المرابطين ثم الموحدين. فلما ضعف سلطانهم أخذ ملوك الاسبان يزحفون من الشرق والغرب على الأندلس، ويستولون من البلاد على أطرافها، حتى ألجأوا العرب الى الانحسار الى غرناطة التى آل أمرها الى أن كانت تدفع الجزية لملوك قشتالة زمناً طويلا. وانتهى بها الحال بأن سلمت اليهم مفاتيح البلاد بعد أن خارت عزيمتها وضعف أمرها أمام قوة هذه الفئة التى كانت فى القرن الأول لحكم العرب صغيرة ضعيفة متشردة فى سفح (البرينات) وساحل خليج غسقونية بحيث لم يعرها الفاتحون عناية ما، وما كان يخطر على بالهم أن هذا البغاث سيستنسر يوما من الأيام، وذلك الرميس سيستأسد، وتلك القسلة ستكثر الى الحد الذى استكانت أمامه قوة الفاتحين، وانهار عرش سلطانهم تحت تأثير معاولها

الرسالة العاشرة

من غرناطة الى برشلونة

كنت أود كثيراً أن أسافر من غرناطة الى برشلونة من شرقى الأندلس حتى أشاهد مالقة ، والمرية ، ومرسية ، وبلنسية ، تلك المدن التى كان لها شأن عظيم فى الدول الاسلامية . ولكن مما يؤسف له أن الطريق يكاد يكون غير مسلوك فى الصيف على الخصوص لقلة المسافرين ولكونه يستدعى تغييرات كثيرة فى فروع متعددة ليست أسباب الراحة متوفرة فيها . لذلك اضطررت الى العودة الى مدريد . ومدينة طليطلة على بعد تسعين كيلو متراً منها الى الجنوب وكانت عاصمة القوط . ففتحها طارق بن زياد سنة ٧١١ م . وما زالت تحت حكم الخلفاء حتى استقل بها سنة ١٠١٢ م اسماعيل ذو النون فيمن استقل من ملوك الطوائف . ثم استولى عليها القشتاليون سنة ١٠٨٥ م وجعلوها عاصمتهم ومكان قوتهم الحربية .

ومن آثار العرب فيها كنيسة سنتا ماريا التى كانت مسجداً فخما ، ثم كنيسة سنتا ماريا دى ترنزيتو وكانت مسجدا جميلا . وقد غير اليهود الذين كانوا يعملون فيه وقت تحويله الى كنيسة ما كان فيه من الكتابة العربية الى كتابات عبرية . ومن آثارهم أيضاً فيها القنطرة التى على نهر التاج ولا يزال اسمها « القنطرة » . وكان للمأمون ابن ذى النون بطليطلة قصر فى منتهى الجمال والفخامة وفيه يقول أبو محمد المصرى :

قصر يقصر عن مداه الفرقد عذبت مصادره وطاب المورد
نشر الصباح عليه ثوب مكارم فعليه ألوية السعادة تعقد
وكأنما المأمون فى أرجائه بدر تمام قابلته أسعد
وكأنما الأقداح فى راحاته درّجان ذاب فيه العسجد

وقبيل مدريد محطة ارانجوويز . وللملك فيها قصر جميل اسمه « دار الفلاح » ذكرتنى بدار الفلاح التى أقامتها جريدة السياسة الموقرة فى المعرض المصرى فى أوائل الربيع الماضى ، وقد كانت هذه الدار لأحد الفلاحين ، فاستحسن ملك أسبانيا مركزها فأهداها اليه ذلك الفلاح . ومع ما دخل عليها من الاصلاح الذى جعلها جديرة بسكن الملك لا يزال يطلق عليها اسم « دار الفلاح » .

وفى الساعة التاسعة صباحاً قام القطار السريع من مدريد الى برشلونة ، وسار فى طريق صحراوى كانت تكثر فيه المزارع كلما قربنا من سرقسطة : وهى مدينة عظيمة فى منتصف المسافة بين مدريد وبرشلونة ، وتبعد عن مدريد بأربعمائة وواحد وأربعين كيلو متراً . وكانت هذه المدينة من أكبر المدن العربية وأشهرها ، وما زالت فى حكم العرب من مبدأ الفتح الى سنة ١١١٨ م ، وفيها تغلب الفرنجة عليها فيما تغلبوا من شمال أسبانيا ، فتركها بنو هود الى طليطلة ، وأقاموا فيها الى أن سقطت هى أيضا فى يد القشتاليين . وفى سنة ١١١٩ هدم القوم مسجد سرقسطة وبنوا مكانه كنيستهم الجامعة (الكاتدرائية) . ولم يبق من آثار العرب فى هذه المدينة غير قصر الجعفرية الذى بظاهر المدينة . وفى جانب منه الآن ثكنة للجنود ، ولا يزال بهذا القصر قبة

جميلة كانت لمسجد القصر ويدخل اليها باذن من القائد العسكرى بهذه الجهة وقد كان لهذا القصر باب جميل من النحاس البديع الصنع وهو الآن بمتحف مدريد وكان بجوار هذا القصر قصر السرور الذى يقول فيه المقتدر بن هود

قصر السرور ومجلس الذهب ⁂ بكما بلغت نهاية الأرب

لو لم يحز ملكى خلافكما ⁂ كانت لدىّ كفاية الطلب

وعلى طول هـذا الطريق ترى تلالا عليها بعض بقايا الحصون العربية التى كان يسكن اليها حماة هذا الاقليم مدة حكمهم وأهمها قلعة أيوب.

وما زال القطار سائراً وعلى يساره الجبل ، وعلى يمينه المزارع الجميلة التى هى أثر لنظام الرى الذى عمله العرب فى هاته الجهة ، حتى وصل الى برشلونة الساعة العاشرة مساء .

برشلونة

يبلغ عدد سكانها ٥٤٤ الف نفس وهى ألطف مدينة أسبانية وأنظفها وأرقها وهى العاصمة الثانيـة بعد مدريد ، ولـكن لمركزها على البحر الأبيض المتوسط تجد درجة الحرارة فيها لا تزيد عن ٣٠ سنتجراداً فى الصيف ولا تنقص عن ٨ فى الشتاء . وبالجملة فبرشلونة لا تعد من المدن الأسبانية سواء فى ذلك مناخها ومناظرها ورقة أهلها ، مما جعلها مورداً للأجانب على اختلاف أجناسهم: هذا للنزهة ، وذاك للتجارة، والآخر للترويح عن النفس تحت سمائها الصافية وجوها المعتدل .

وتنقسم المدينة الى قسمين : المدينة القديمة وشوارعها ضيقة بعض الضيق وأبنيتها على النظام القوطى . والمدينة الجديدة وشوارعها واسعة وأبنيتها كلها على النظام الافرنجى الجميل .

وفى برشلونة ميادين كثيرة أهمها ميـدان كتالونى ، وهو مكان الحركة التجارية العمومية واليه تنتهى الفروع الكثيرة المختلفة لطريق المراكب الكهربائية والتى تخترق شوارع المدينة كلها. وهذه المراكب الكهربائية وكذلك الأنوار الكهربائية التى بالمدينة تستمد قوتها من التيار الكهربائى العظيم الذى تولده جنادل (شلالات) — ترومب — على نهر أبره ، وعلى بعد مائتين وثمانية كيلو مترات من برشلونة ، وتبلغ قوتها مائة ألف (فولت) .

وتكثر فى هذه المدينة الملاعب من كل صنف وكل نوع ، وقد عددت فى شارع واحد منها نحو عشرة يجاور بعضها بعضا مما يدل على أن مزاج أهلها ميال للسرور ميلا عظيما . ويظهر أن حركة الناس لا تنقطع فى الليل الى قبيل الصبح : لأنى استيقظت الساعة الثالثة بعد نصف الليل ونظرت من نافذة غرفتى فوجدت الناس على افريزى الطريق وهم فى ذهابهم وروحاتهم كما كانوا تقريباً بعد العشاء . ولو كان اليوم يوم أحد لقلت ذلك لهم لأنه يوم راحتهم من أعمالهم ، ولكنه كان فى وسط الأسبوع : ولا أقول إنهم يعملون ليلهم ويرتاحون نهارهم على قانون قره قوش فى عصر الأيوبيين : لأنى وجدت الحركة العمومية كعادتها غاية فى النشاط فى الساعة التاسعة صباحا . ويظهر أن مسألة السهر عادة فى بلاد أسبانيا كلها أصبح القوم معها يكتفون فى نومهم بقليل من الزمن .

وفى المدينة كنائس جميلة . وهم يبنون الآن كنيسة اسمها « سجرادا فامليا » وقد تغالوا فى تأنقهم فى مبانيها بشكل لا يمكن أن تتم معه قبل خمسين سنة . وفى شمال المدينة جبل « تاييدابو » ويصعد اليه (بالفنيكولير)

فى طريق طوله ١٥٠ متراً بين غابة جميلة من الصنوبر . وفى سطح هذا الجبل ترى فندقين وقهوات وبعض الملاهى ، منها مراكب كهربائية تسير معلقة فى سلك القوة الكهربائية فى الجو فى طريق منعرجة الى جانب الجبل بحال تقف النفس أمامها بين راغبة فى ركوبها وراهبة منها.

وفيه أيضاً أرجوحة من أراجيح الصناديق الحديدية قطر دائرتها نحو خمسين متراً فاذا صعد الانسان الى أعلاها وجد منظراً من أحسن المناظر يطل من جهة على البحر الأبيض المتوسط ومن أخرى على جبال (البيرينيه) ، والمدينة بين هذا كله كأنها صحيفة جغرافية .

والى الجنوب الشرقى متنزه (بارك) غاية فى الجمال فى منحدر الجبل بمدرجات لطيفة ، وفى وسط هذا المتنزه فندق « جراند أوتيل » . وفى وسطه أيضا قام مثال أسبانى . وهنا تذكرت عدم اهتمام بلادنا بالفنون الجميلة ولولا عناية الأمير يوسف كمال بها وبفتح مدرستها من سنوات لما كان لفنى التمثيل والتصوير ذكر فى مصر .

وبالجملة ان برشلونة مدينة افرنجية صرفة ، وليس للعرب فيها من أثر لأنهم استولوا عليها سنة ٧١٢ هـ ثم أخذها منهم شارلمان فى سنة ٧٨٠ الى أن أخذها منه الأسبان . لذلك أرجوك أن تسمح لى أن يسد باب الكلام عنها لأنها لا تهمنا فى موضوعها ولا فى مدنيتها شيئاً .

وتقرب من برشلونة معادن الزئبق ، وكيفية استخراجه أن تغلى حجارته فى آنية من الفخار فيسيل ما عليها من الزئبق ويصعد على وجه القدر ثم يسير منها فى أنابيب توصله الى خزانات يجتمع فيها . وكانت العرب تستغل هذه المعادن زمن وجود هذه المنطقة فى حكمهم . وتقرب

من هذه الجهة مناجم البوتاس وهى فى يد شركة بلجيكية .

ولقد كنت عقدت النية على زيارة بلنسية من طريق برشلونة لأنها فى الجهة التى بلغت عناية العرب بها فى مسائل الرى كل مبلغ : فقد شقوا أنهارها وحفروا ترعها وأجروا خلجانها وسيروا اليها الماء من جبال (سيرا نوفادا) التى هى مقر الثلوج المستديمة فى الجنوب الشرقى من الأندلس ، وبنوا على الترع قناطر كثيرة لحجز المياه ووصولها الى المناطق العالية ، حتى أصبحت هذه المنطقة جنة من الجنان ، وكانت دورة الزراعة فيها ثلاثية فى السنة فى مدتهم ، وهى للآن الجهة الوحيدة التى تتجلى فيها آثار العرب بكل مظهر فى إسبانيا لأن أرضها تنتج الزراعات المنتظمة فى كل أدوار السنة فتزرع فيها الفاكهة والقمح والذرة والبنجر والدخان والأرز والخضر وخصوصاً البصل الذى بوفرته فيها قد يؤثر فى حال البصل المصرى فى أسواق أوربة . والقوم الآن يجربون فيها زراعة القطن .

نعم كنت عقدت النية على زيارة بلنسية التى دخلها العرب سنة ٧١٤ م وبقوا فيها الى سنة ١٢٣٨ ، حتى استولى عليها منهم جم الأول ملك أراغون بعد حصار طويل من البر والبحر ، وهى الى الآن لا يزال فيها الأثر الحيوى للعرب ، ذلك الأثر الذى لا يمحوه الزمان ولا يمكن أن ينكره الاسبان على ممر الأيام لأنه مصدر حياتهم ومستقى ثروتهم : ولكنى عند ما حضرت الى برشلونة كنت فى شدة التعب من شدة ما عانيته فى جنوب اسبانيا من الحر ، وخاصة بعد ما سمعت بأن جو بلنسية حار جداً بل هو أشد فى حرارته مما رأيته فى قرطبة وأشبيلية ، وهو الذى قال فيه عبد الرحمن الأوسط أمير الأندلس حين سار لغزو جليقية :

فكم قد تخطيت من سبسب ولاقيت بعد دروب دروبا
ألاقى بوجهى سموم الهجيراذ كاد منه الحصى أن يذوبا

لذلك طويت صحيفة جولتى فى هذه البلاد وأنا آسف كل الأسف لهزيمة عزيمتى أمام قوة الطبيعة وشدتها ، راجياً أن يوفقنى الله تعالى الى عودتى اليها فى أحد الربيعين حتى أدرك فى غدى مافاتنى فى يومى :

والآن وأنا أكتب كلمتى الأخيرة عن اسبانيا والجرائد الفرنسية تشير الى مافيها من أثر عصيان أقسام من رجال المدفعية فى جملة من نواحيها وينسبون ذلك الى ما صادف ضباطهم من الغبن على أثر رقى الضباط الذين كانوا ولا يزالون فى الريف ، أسمح لنفسى أن أقول للقراء الحقيقة التى فهمتها وأنا فى تلك البلاد التى لا تزال تحت عبء ثقيل من الأحكام العرفية ، لهذا كنت ترى أهلها يكرهون المارشال دى ريفيرا الحاكم المطلق فيها . وقد بدءوا يتذمرون من الملك لتسليمه أمور البلاد الى هذا الطاغية ، وقام منهم جماعة يعملون لاسقاط الملكية واعلان الجمهورية . وجعلوا مركزهم مدينة سان جان دولوز الفرنسية والتى بجوار الحدود الغربية الشمالية الاسبانية ، وعملوا فعلا للقبض على الملك فى سانسباستيان فى إحدى نزهاته بها لارغامه على التنازل عن الملك . وقد مر بك فى كلامنا على هذه المدينة أنه كثيراً ما تراه يتنزه بها من غير حرس ، ولكنهم لم ينجحوا فى تدبيرهم لسفره الى مدريد . وهنالك وضع يده فى يد دوريفيرا للقضاء على هذه الفتنة التى تشير البرقيات الى انتهائها على خير ، ولا يعلم إلا الله ماتحت رمادها الذى يظهر للناس هادئاً مطمئنا .

وهنا يجمل بى أن أشير الى طرف من الأحكام العرفية وشدتها مما

لم أكن أريد التحدث به لولا هذه الحركة ، لأنه لا يهمنا نحن المصريين في شيء فانه خارج عن موضوع سياحتي التي أعلنت الشرطة الأسبانية عنها أنها تاريخية محضة : وذلك أن الشرطة الملكية والعسكرية كانت تنتشر في عربات السكة الحديدية بعد قيام القطار من كل محطة رئيسية ، ويسأل كل مسافر عن جواز مروره سواء أكان من أهل البلاد أم من الأغراب ، ذكراً كان أو أنثى . وقد يسألون الشخص عن الجهة التي يقصدها وعن سبب سفره اليها وعن مدة اقامته فيها . وقد صادفت وأنا في طريقي الى برشلونة أن شخصاً بعينه سألني عن ذلك مرات على جملة خطوط أخرى . فأردت أن ألفت نظره الى ذلك ، ولكنه أجابني بكل هدوء « نعم أعرف ذلك ولكني أؤدي واجبي في معرفة وجهة كل مسافر » فأذعنت لأمره وبعد أن اطلع على جواز السفر ، سألني عن وجهتي وعن المدة التي أقيمها فيها وعن الفندق الذي أنزل به فأجبته بما حسن سكوته عليه ، وانصرف الى غيري بسلام . وكان بجواري قسيس فطلب اليه جوازه ، فاستنكر القسيس ذلك لما للقسوس من عظيم الجاه في بلادهم ولكن رجال الشرطة يعرفونه حق المعرفة فألح الضابط في ضرورة رؤية الجواز واستمر القسيس في عناده ، وهنا لك انبرى له أحد الركاب في الديوان الذي كنا فيه بعبارات التوبيخ القارص حتى أذعن لأمر الضابط صاغراً ، وحمدنا الله على أن ترك القسيس بعدها الديوان وانصرف الى غيره ولعل ذلك من خجله ، وقد عرفت بعدها أن الشخص الذي كان معنا من كبار الحكام .

أما في الفندق فكانوا يطلبون الجواز وبعد أن يتحققوا من صورة

صاحبه يأخذون رقه واقرار المسافر بخطه على كل ما فات من البيانات ومن هنا تعرف أن شدة الأحكام العرفية هى من أسباب تلك الحركة التى لا يعلم الا الله ما وراءها

وهناك أثر آخر سيء فى نفوس الناس من الهزائم المتوالية فى حرب الريف ، سواء فى ذلك أولها مدة عبد الكريم الذى خدع بمواعيد فرنسا الطويلة العريضة حتى نزل من سنام مجده ومن منعة زعامته التى وصل بها فى أول أمره الى أسمى نخر وصل اليه الزعماء والرؤساء ، وطبق صيته ما بين الأرض والسماء ، فأسلم نفسه الى فرنسا لا بعامل الجبن والهزيمة والضعف ، ولكن بعامل الطمع فى تحقيق تلك الآمال التى فسحوا له فى دائرتها بالوصول الى سلطان أوسع ،حتى انتهى أمره بالنفى الى جزيرة صغيرة من جزر الاقيانوس هو وأسرته مقهورين غير مشكورين ، لا من الفرنسيين ولا من غيرهم ! ! وسواء فى مدة الزعيم الجديد الذى لا يزال هو والقبائل التى بقيت معه يصلى الدولتين ناراً ، ويضرم فى قلوبهم من متانة موقفه معهم جمراً وشراراً ، بما جدد اليأس فى قلوب الأسبان وتحققوا معه أن ليس لهم بالاستمرار فى الحرب مع هذا الزعيم الجديد يدان ، بعد أن كانوا قد طووا صحيفتها مع الزعيم القديم . كل هذا أثر فى الناس حربيين وغير حربيين حتى ظهر دخان ثورتهم فى وسط المدفعية ، ومع أنهم يقولون إن دى ريفيرا قبض على ناصية الحركة فى البلاد بيده الغشوم لا يدرى أحد ما لذلك من رد فعل وان الجندية تقهقرت لتهجم والأمة ربضت لتثور ، والله عليم بمصير الأمور .

للعبرة والتاريخ

قبل أن أترك أرض اسبانيا أرى من الفائدة ذكر كلمة عن تاريخها وحالة أهلها يعرف من يطلع عليها أن اسبانيا العربية غير اسبانيا الحالية سواء فى ذلك مدنيتها وقوتها المادية والمعنوية :

اسبانيا تكون مع البرتغال الجزء الممتد من جنوب أوربا الى البحر ومساحتها وحدها ٤٩٢٫٢٣٠ كيلو مترا مربعاً . واذا أضفنا اليها ممتلكاتها فى جزر البليار (ومساحتها ٤٩٩٤ كيلو متر) ، وفى جزر كناريا (ومساحتها ٧٦٢٤ كيلو متر) ، وفى مراكش (ومساحتها ٣٥ كيلو متر) كان مجموع مساحتها مع أملاكها ٥٠٤٫٩٠٣ كيلو متر مربع أما عدد أهلها فكما جاء فى احصاء سنة ١٩٠٠ « ١٨٫٦١٧٫٩٥٦ » من النفوس . وقد زاد هذا العدد نحو مليون نفس فى مدة ٢٠ سنة فتكون الزيادة فى هذه المدة خمسة ونصفا فى المائة من السكان ، وهى زيادة قليلة جداً بالنسبة لزيادة الأمم الأخرى .

واذا وازنا بين زيادة الأنفس فى اسبانيا وزيادتها فى القطر المصرى رأينا أن تعداد هذا القطر فى سنة ١٨٩٧ ، وهى المدة التى تقابل زمن تعداد اسبانيا تقريبا ، كان ٩٧١٧و٢٢٨و٩ من النفوس ، وان تعداده فى سنة ١٩١٧ كان ٢٥٥و٧١٨و١٢ من النفوس : فتكون الزيادة فى عشرين سنة هى ثلاثة ملايين نفس تقريبا ، وهى ثلاثة وثلاثون فى المائة من عدد السكان .

وعلة عدم زيادة الأهالى فى اسبانيا هى عدم عنايتهم بأطفالهم لأنهم لا يهتمون بالمسائل الصحية ويظهر أنهم ورثوا ذلك من زمن بعيد ، حين كان القسوس يحرمون عليهم الاستحمام حتى لا يتشبهوا بالمسلمين فى

تطهرهم وفى وضوئهم ، ولعلهم يشاركون بعض فلاحينا فى عدم تنظيف أولادهم خشية عيون الحاسدين ؟ ؟

وترجع العلة من جهة أخرى الى كثرة هجرتهم طلبا للعيش ، لأن أسباب الحياة تضيق بهم فى بلادهم إما لقحولة قلب البلاد لكثرة ما فيها من السلاسل الجبلية ، او لقلة الأنهر فى الشمال والغرب ،ولأن الموجود منها تجف مياهه فى أكثر أيام السنة وهذا لعدم اهتمام الحكومة بالمسائل العامة لأنها فى طول أدوار حياتها فى يد قوم لا يهتمون الا بأنفسهم وهم الأشراف والقسوس ورجال الحرب . ولا يزال فى أيدى الأشراف والقسوس أغلب الأراضى الخصبة ، وهى تلك الاقطاعات الواسعة التى كان يجود بها الملوك على كل قبيل منهما . وهذا عدا الأوقاف الكثيرة التى كان الأهالى يرصدونها للكنائس ، وكل ذلك غير ما تأخذه هاتان الطائفتان من المرتبات الشهرية التى لا تزال تبهظ ثروة الحكومة . وحسبك أن تعرف أن عدد القسوس فى إسبانيا الآن يزيد على سبعين الفا وأن فى أيديهم التعليم فى جميع طبقاته من ابتدائى وثانوى وعال ولهذا أصبح لهم النفوذ الشامل فى البلاد من أقصاها الى أقصاها .

وأول مايعرفه التاريخ من أمر اسبانيا أنها كانت مسكونة بالبسك أو الفندال قبل أن يلتجئوا إلى جبال (البرينات) ثم بالأيبيريين الذين قدموا من الجنوب .

وفى أواخر القرن الخامس قبل المسيح احتل الفينيقيون هذه البلاد . ثم أتى من بعدهم اليونانيون والروديسيون وأنشأوا الثغور التى على البحر الأبيض مثل قادس ومالقة وغيرهما ، مما كانت قواعد تجارية لهم يتبادلون

فيها مع أهل البلاد ببضائع الشرق المعادن التى كان الأهالى يستخرجونها من أراضيها . وفى سنة ٢٣٨ ق م ، بدأ القرطاجيون باحتلال النصف الجنوبى من اسبانيا ، ثم بنوا مدينة برشلونة فى شمال الساحل الشرقى ، وكانوا يسمونها مدينة برقة ، باسم القائد الفاتح BARCA الذى بناها ، وبنوا فى جنوبها قلعة قرطاجنة . وفى سنة ٢١٩ ق م . حاصر انيبال مدينة ساجونت ، وجر ذلك إلى الحروب البونيقية الثانية .

وفى سنة ٢٠٤ ق م . غزا الرومان اسبانيا وبنوا فيها مدينة اشبيلية ، وما زالت تابعة لحكمهم إلى سنة ٤١٢ م . وفيها استولى اتولف ملك القوط على برشلونة . وهو أول ملك قوطى باسبانيا . وبقى القوط بهذه البلاد تارة مستقلين وأحياناً تابعين للرومان وقد ألزموا الفندال (ومنهم أتت كلمة فاندالوس أو أندلس) أن ينحسروا إلى جبال البيرينات ولا يزالون بها إلى الآن .

وقد وصل حكم القوط من العظمة مدة ملكهم أوريك إلى أن وصلت فتوحاته إلى نهر اللوار بفرنسا . ودخلت النصرانية اسبانيا فى مدته . وبعد وفاته اضطربت أحوال المملكة إلى أن حكم الملك أتانا جيلد سنة ٥٥٤ م وجعل طليطلة عاصمة له ، واستولى بعده ولده ريكارد سنة ٥٨٦ ، ففتح أبواب مملكته للقسوس ، واعتنق المذهب الكاثوليكى ، وحارب الرومان وأجلاهم عن البلاد التى كانوا لا يزالون يحتلون منها الساحل الشرقى . ثم طرد اليهود من اسبانيا وعاملهم معاملة قاسية . وفى سنة ٧٠٩ انتخب رودريك (والعرب تسميه لذريق) ملكا على البلاد ، وفى

مدته دخل العرب اسبانيا . ولعل اليهود المطرودين هم الذين أرشـدوا العرب إلى سهولة فتحها .

وقد بقي ملك العرب بإسبانيا الى أواخر القرن الخامس عشر من الميلاد ، وفي غالب مدتهم كان السلطان العام في البلاد لهم ، وكان حكمهم في عمومه كله مجد وعظمة . وكان ملوك الأسبان في أول أمرهم في منتهى الضعف ، وكانوا يدفعون الجزية لأمراء المسلمين ، ولـكنهم كانوا على الدوام يحاربونهم بالدسائس والسعايات وهي سلاح الضعيف . ولما قويت عصبيتهم على مر الأيام كانوا يحاربون العرب كثيرا كلما آنسوا منهم خلافا أو ضعفا ، وكان نصيبهم الخذلان في جلّ حروبهم معهم . حتى اذا بلغهم زحف الناصر محمد سلطان الموحدين بجيشه الهائل على أسبانيا ، استغاث ملوك الأسـبان بأمم النصرانية في أوربا في كل جهة ، وأعلنوا الحرب المقدسة ، فهرعت اليهم جيوش النصرانية ، وبعد هزيمة الناصر صلبت شوكتهم وقويت عزيمتهم ، ولم يضيعوا فرصة هزيمة العرب بل أخذوا يتغلبون على أطراف البلاد ، حتى اذا كانت سنة ١٤٩٢ م استولى فرديناند ملك اراغون وايزابلا ملكة قشتالة على غرناطة التي كانت الملجأ الأخير للعرب ، ثم طردوا المسلمين من أرض أسبانيا كلها ، وبذلك أصبح لهما الحكم المطلق فيها . وبموتهما ورثت عرش البلاد ابنتهما جان ، وتزوجت من فيليب الأول ابن مكسيمليان الأول ملك النمسا ، وهو أول ملك أسباني من أسرة هابسبورج . ولما أصيبت جان بالجنون آل الملك لولدها شارل الأول ، الذي سمي فيما بعد بالأمبراطور شارلـكان .

وقد كان الأسبانيون يكرهون شارلكان لتوجيه اهتمامه للنمسا

وحدها . فشغلهم بالحروب ضد فرنسا وأمريكا . وفى مدة فليب الثانى (من ١٥٥٦ الى ١٥٩٨) الذى كان ملكا لأسبانيا والبلاد الواطئة والأملاك التى كانت له فى ايطاليا وأمريكا ، قضى بغشمه على الحرية الدينية والسياسية ، وظهر فى هذا الطريق بكل مظاهر الاستبداد ، ولم يكن متعصبا لدينه فحسب ، بل كان متعصبا لمذهبه الكاثوليكى تعصبا أعمى : فقد حارب البروتستانت بلا جدوى . وكانت حروبه لانكلترا وفرنسا وتركيا نتيجتها هزائمه المطلقة . وفى سنة ١٥٨٠ استولى على البرتغال عنوة ، حتى اذا مات كانت البلاد فى منتهى الضعف المادى لسوء ادارته وخرق سياسته التى جرت على أسبانيا فقد أملاكها ، وطرد من بقى فى بلادها من المسلمين واليهود الذين أصلهم من جنس عربى ، وكان عددهم يزيد على مئات الألوف ، كلهم من أرباب الصناعات والمشتغلين بالزراعة .

واستمر بيت هابسبورج إلى أوائل القرن الثامن عشر وانتهى بموت شارل الثانى من غير عقب ، بعد أن عهد بملك اسبانيا إلى حفيد أخته مارى تيريزه التى كانت زوج لويس الرابع عشر ملك فرنسا، ويسمى فليب الخامس . فاعلنت النمسا حربا على إسبانيا دامت اثنتى عشرة سنة ، وكانت نتيجتها تنازله عن نابل وسردنيا للنمسا، ثم تنازل عما كان يملكه فى البلاد الواطئة . وبعد ذلك تنازل عن صقلية للسفواى ، وعن جبل طارق وجزيرة ميورقة للانكليز .

وفى سنة ١٨٠٥ تعاقدت اسبانيا مع فرنسا واشتركت معها فى حربها مع انكلترا ، فخسرت أسطولها فى واقعة الطرف الأغر . وفى هذه السنة

قامت ثورة البلاد ضد شارل الرابع بتدبير ولى عهده فرديناند . فتدخل نابليون الأول فى الأمر ودخل بجيوشه أرض اسبانيا لتهدئة الفتنة ، وهنالك أعلن تعيين أخيه ملكا على اسبانيا . فقام الأهالى بايعاز انكلترا ومساعدتها وأعلنوا حرب الاستقلال التى انتهت بانسحاب نابليون وبتنازل أخيه عن عرش اسبانيا . وفى مدة شارل خسرت اسبانيا جميع أملاكها فى أمريكا، فاضطر إلى التنازل عن الملك،وعقبه فرديناند وتسمى بفرديناند السابع . وفى سنة ١٨٢٠ قام ضده الحزب الحر الذى تكون فى البلاد ، فاستصرخ بفرنسا فأرسلت اليه الدوق انجوليم على رأس جيش لتسكين الفتنة وتأييد عرشه ، ومات فرديناند سنة ١٨٣٣ بعد أن أوصى بالملك لابنته ايزابلا : فحرك ذلك من ضغينة أخيه الدون كارلوس فقام بالثورة ، واشتغلت الحكومة بمحاربته إلى سنة ١٨٣٩ .

وفى سنة ١٨٤٣ أعلن رشد ايزابلا ، فابتدأت الاضطرابات فى أنحاء البلاد وقامت الثورة فى جميع أطرافها إلى سنة ١٨٤٨ . ففرت ايزابلا إلى فرنسا ، وانتخب الشعب سيرانو زعيم الحركة الوطنية رئيساً للحكومة رياسة موقتة وفى أول يونيه سنة ١٨٦٩ أعلن سيرانو الدستور فى البلاد لأول مرة وأصدر قراره بالابتداء فى الانتخابات النيابية

وفى سنة ١٨٧١ تنازلت ايزابلا عن الملك الى ولدها الفونس ، فلم يقبله الشعب ، وعرض حزب الأحرار تاج البلاد على الدوق اميدا الابن الثانى لملك ايطاليا فكتور عمونايل ، فقبله ولكنه استقال للاضطرابات التى قامت ضده . وهنالك أعلن الأحرار الحكم الجمهورى . ولم تطل مدته الا من ١١ فبراير سنة ١٨٧٣ الى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٧٤ ،

لأن الجمهوريين لم يستطيعوا إقامة حكومة تسير حركة البلاد التي كانت في فوضى عامة .

وفي ٢٩ ديسمبر أعلن الجنرال كامبوس جلوس الفونس الثاني عشر (ابن ايزابلا) على عرش اسبانيا ، فقامت الثورة الكارلوسية ثانياً الى سنة ١٨٧٦ . وبعد انطفائها قام الفونس ببعض الاصلاح ، ومات في سنة ١٨٨٥ ، فخلفته الملكة ماري كرستين في الحكم ، وكانت حبلى ، فلما ولدت بقيت وصية على ولدها الفونس الثالث عشر ، وفي مدتها عطل الدستور ، وقامت الحرب بين اسبانيا والولايات المتحدة سنة ١٨٩٨ ، وبها فقدت ما بقي من مستعمراتها في أمريكا (كوبا وبورتوريكو والفيليبين) ثم باعت جزر كارولين الى المانيا .

وفي سنة ١٩٠٢ أعلن رشد الفونس الثالث عشر (الملك الحالي) وتسلم زمام الملك في وسط اضطرابات مالية وحربية ، لدخول البلاد في حرب مع الريف الذي ينازع اسبانيا الى الآن فيما بقي لها في مراكش من ذلك الجزء الذي على المحيط : ذلك الجزء الذي كلفها من الأموال والدماء ما بهظ ثروتها وأفنى شبيبتها وحرك نيران الثورة في كل ناحية من أنحائها . ولولا أن البلاد ترزح تحت عبء الأحكام العرفية لكان لهيبها قد قضى على الرطبة واليابسة !! ولولا أن سيف دورفيبرا الذي قبض على أزمة البلاد مصلت على رقاب الناس من صغير وكبير بما فيهم الملك ، وأن سواد ضباط الحرب الذين أصبحت موارد البلاد في أيديهم يشدون أزر هذا الزعيم المستبد ، لكانت اسبانيا تركت دارها البيضاء لكبير الريف منذ زمن بعيد ، ورضيت من مناوشاتها وحروبها مع عرب

مراكش ، والتى كان نصيبها منها تلك الهزائم المتوالية فى السنوات الأخيرة ، بأوبة من بقى هناك من جيوشها (بسلامتهم) ، ولكنها تخشى من عودتهم الى اسبانيا اشعالهم نيران الثورة بسبب الاستغناء عن أكثرهم ، لعجزها عن النفقة عليهم اذا وضعت الحرب أوزارها ، ووضعت للضرائب حدوداً معقولة عادلة ، وعلى الأخص إذا رفعت الأحكام العرفية .

مما تقدم تعلم أن الاسبان قد نمت فى عروقهم جراثيم الثورة لتعصبهم لرأيهم الذى هو أثر تعصبهم الدينى ، الذى كان القسوس يبثونه فيهم منذ كان العرب واليهود بين أظهرهم ، هـذا التعصب الدينى الذى لا ينطبق على عقل ولا حكمة . لذلك كانت حربهم للعرب حرباً دينية لا وطنية . وأعقب ذلك حربهم يهود وطردهم من بلادهم ، ثم حربهم للبروتستانت فى البلاد الواطئة وغيرها . وقد ورث الأبناء هذه العاطفة السقيمة عن الآباء ، وأخذها الأحفاد عن الأجداد ، ولا يزال القسوس يبثونها فى روح الناشئة لوجودها بين أيديهم فى عامة المدارس . وبذلك أصبحت العاطفة الوطنية ضعيفة فيهم جداً ، مما كان سبباً فى هزائمهم فى جميع حروبهم ، وفقدهم لجميع أملاكهم التى نالوها فى أمريكا ، وقت أن كان سكانها لافرق بينهم وبين الحيوانات التى كانت فى دائرة بلادهم . ويظهر أن استيلاءهم عليها كان بعامل المصلحة الشخصية لا الوطنية : لذلك لما قامت مستعمراتهم فى وجههم طلباً لحريتها ، لما كانوا يلاقونه من كثرة مظالمهم لعدم معرفتهم بأساليب الاستعمار ، انهزموا أمامهم لأنهم كانوا محاربين أشخاصاً لا جماعات

وليس أدل على تعصب الاسبان مما تركوه فى بلاد الارجنتين بأمريكا الجنوبية من بذور هذا التعصب الشنيع فى المدة التى ملكوها فيها من سنة ١٥٢٣ إلى سنة ١٨١٠ م التى اعلنت فيها هذه البلاد استقلالها

فقد جاء فى رحلة سمو الأمير الجليل محمد على باشا لهذه البلاد فى مايو سنة ١٩٢٦ ما نصه :

« ومن الأمور المضحكة التى يجوز اثباتها فى سجل السياحة على سبيل الفكاهة أن قد وصلنى كتاب من الارجنتين يقول فيه مرسله انه قرأ فى الجرائد مدحى والثناء على وحيث أن له عواطف نحوى فهو يشير علىّ مراعاة لصالحى أن أكون كاثوليكياً لأنه من الأسف الشديد أن يكون رجل مثلى بعيداً عن طريق الهدى ومحجة الصواب وانى ان لم أقبل ذلك دخلت الجحيم وعذبت العذاب الأليم وعلى ذلك ينصح لى بالأسراع إلى التوبة واعتناق الكثلكة الحقة ذلك الدين القويم والصراط المستقيم .

وعقب الأمير ذلك بقوله « هـذا والاسبانيون كالايطاليين والبورتغاليين متعصبون لدينهم فلو كان مثل هـذا الأمر قد حصل لأمير غربى وهو سائر فى بلاد المشرق لعد ذلك تعصباً من المسلمين وكان ذنباً عظيما لا يمحى ولا يغتفر » .

ومن هذا وذاك ترى أن الشعب الاسبانى أصبح من الفقر وضعف الارادة بمكان لجملة أسباب :

اولا — لتوزيع ثروة البلاد على الأشراف والقسوس وملكهم لأغلب أراضيها الخصبة ، واستيلائهم على وظائف الحكومة المهمة .

ومرتباب القسوس السنوية وحدهم تبلغ مليونى جنيه ، وهو عشر مالية الحكومة تقريبا .

ثانياً — الجيش الذى يلتهم جل ايرادات الدولة بما تضطر معه إلى الاستدانة كثيراً . وهى الآن ترزح تحت عبء دين ثقيل ، ولولا شدة الأحكام العرفية لظهرت آثاره السيئة مهددة لكيان البلاد .

ودين اسبانيا كما جاء فى لائحة رسمية (انظر دائرة المعارف للبستانى) بلغ فى سنة ١٨٧٤ (٤٠٤ر٨١١ر٤٠٨) ليرة انكليزية ، وفائدته السنوية (١٠ر٢٣١ر٢٢٨)ليرة انكليزية،ولا بد أن يكون دينها الحالى أكثر من هذا كثيراً ، وهو ما لم أوفق لمعرفته .

ثالثا — قلة المواصلات فى البلاد وصعوبتها ومع أن مساحة اسبانيا أكثر من ٤٩٢ الف كيلو متر مربع ، فالطرق الحديدية لاتزيد فيها عن ١٥ الف كيلو متر على ما فيها من عدم توفر أسباب الراحة ، مع أنها فى مصر التى لا يبلغ المعمور فيها غير ٣٢ الف كيلو متر مربع [١] تزيد على أربعة عشر الف كيلو متر .

رابعاً — حرب الريف التى كلفتهم نفقات باهظة جداً ،

خامساً — كسل الأهالى وعدم ميلهم إلى العمل وذلك لاستسلامهم إلى الأفكار الساذجة التى أدخلها القسوس فى عقائدهم حتى أصبحوا أقرب الناس إلى الآخرة منهم الى الأولى ، وان شئت فالى الموت منهم إلى الحياة .

---

(١) مساحة مصر مليون كيلو مربع منها معمور ٣٢ الف كيلو متر والباقى صحارى غير معمورة.

سادساً – شيوع الأمية فيهم لقلة ماينفق على التعليم بحيث لا يصل عدد القارئين منهم إلى ٤٠ فى المائة على أكثر تقدير . وأشنع ما فيهم محاربتهم لتعليم البنات لفكرة سخيفة (لا يزال موجوداً بمصر شيء منها وخصوصاً فى جهات الصعيد) ، اعتقادهم بأن كثرة العلم تؤدى بالشخص الى الزندقة والإلحاد ! !

هذا هو شأن اسبانيا اليوم فى عمومها . وان وجد فى عواصمها شيء من الحياة انطبق عليه المثل العربى « كل الصيد فى جوف الفرا » وبالجملة أن الاسبانيين اذا كانوا يعيشون بجسومهم فى القرن العشرين فعقليتهم لا تزال تتصل بالقرون الوسطى .

وما دامت البلاد على ما فيها من فقر مدقع [1] وتعصب سخيف وعدم نشاط للعمل ودم يغلى على الدوام ببخار الثورة ، وحكومة مع فقرها لا تهتم الا بقبيل من الناس دون الآخر تاركة أساليب الإصلاح فيها الى الشركات الأجنبية من انجليزية وألمانية وفرنسية وامريكية ، فمصيرها من غير شك لا يبشر بقرب مستقبل سعيد .

---

(١) بلغ من فقر الاسبانيين انهم يبيعون غلات أرضهم فى الغالب وهى على ارضها قبل نضجها . ولا يزال بمصر شيء من ذلك الا انه فى أرض المترفين من أبناء الاغنياء أكثر منه فى أرض الفقراء

بعض الاعلام الاسبانية بالافرنكية وما يقابلها بالعربية

LA VEGA	المرج
ALARCOS	الأرك
ALBAICINS	البيازين
ALCAZARE	القصر
ALGESIRA	الجزيرة الخضراء
ALHAMBRA	الحمراء
ALICANTE	القنت
ALJAMIADO	الخميادو
ALMERIA	المريه
ALMAZAR	المزار
AINDAMAR	عين دامر
ALPHONSE	الأذفونش
ALPIXARAT	البشرات
ASTURIES	مغارات استوريش
ATARZANA	الترسانة (دار الصنعة)
AVERROES	ابن رشد
AVILA	أبله
AXAROF	الشرف
BADAJOS	بطليوس
BARCELONE	برشلونه
BASA	بياس
BEJA	باجه
BASQUES (les)	البشكنس
BOABDIL	ابو عبد الله

CARCASSONE	قرقشونه
CARTHAGENE	قرطاجنه
CASTEJON	قسطجون
CASTELLE	قشتاله
CENTRA	شنتره
CEUTA	سبته
COIMBRA	قلمريه
CORDOUE	قرطبه
EVORA	يوره
FONTARABIA	فنترابيا
GALICE	جليقيه
GIBRALTAR	جبل طارق
GRENADE	غرناطه
GOTHS (les)	القوط
GUADALAJAR	وادى الحجارة
GUADALAVIAR	وادى الآبار
GUADALQUIVIR	الوادى الكبير
GUADIANA	وادى يانه (آنه)
GUADIX	وادى آش
INQUISITION	محكمة التفتيش
JAEN	جيّان
JATIVA	شاطبه
JERCY	شريش
JULIEN	يوليان

ZAMORA	صاموره
LANGDOC	لانجدوك
LEON	ليون
LERIDA	لارده
LISLONNE	لشبونه(اشبونه
LOJA	لُوْشَة
LORCA	لُورقه (لُرْقه)
LUQUE	لُكْ
MADRIDE	مجريط
MALAGA	مالَقَه
MAURES (les)	المغاربه
MEDINACELI	مدينة صالح
MERIDA	مارده
MIRANDA	ميرنده
MURCIA	مُرْسِيَه
MASQUITA	المسجد
PELAGE	الملك بلاى
PORTO	مدينة البورتغال
PORTUGALE	البورتغال
PROVENCE	بروفانسه
RODERIC	لذريق
RONDA	رنده

BURGOS	برغش(برعش
CADIX	قادس
SAINT-SEBASTIEN	شانت(اشتانى)
SALAMANQUE	سلمنقه
SANTIAGO	شانت ياقب
SANTAREN	شنترين
SARAGOSSE	سرقسطه
SARRASINES (les)	الشرقيون
SEGOVIC	شقوبيه
SEGURA	ساجوره‍شاقوره
SEVILLE	اشبيليه
SIDONIA	شذونه
TARIFA	طريف
TARIK	طارق
TARTOSE	طَرْطُوشه
TARRAGONE	طَرَّكُونه
TOLEDE	طليطلة
TOLOSA	طالوشه.طولوشه
UBEDA	أبّده
VALENCE	ولنسيه(بلنسية)
XEMINES	شمينيس

فهرس

صفحة

صفحة

﴿ تمت ﴾

فهرس

عما اشتمل عليه الكتاب من الصور